
د. كفاح أبو هنود
مكتبة سُر مَن قرأ
في صُحبَة الحَبيب
مُحَمَّد
صلى الله عليه وسلم
عصير الكتب

في صُحبَة الحَبيب



مكتبة سُر مَن قرأ



إدارة التوزيع

00201150636428

لمراسلة الدار:

email:P.bookjuice@yahoo.com

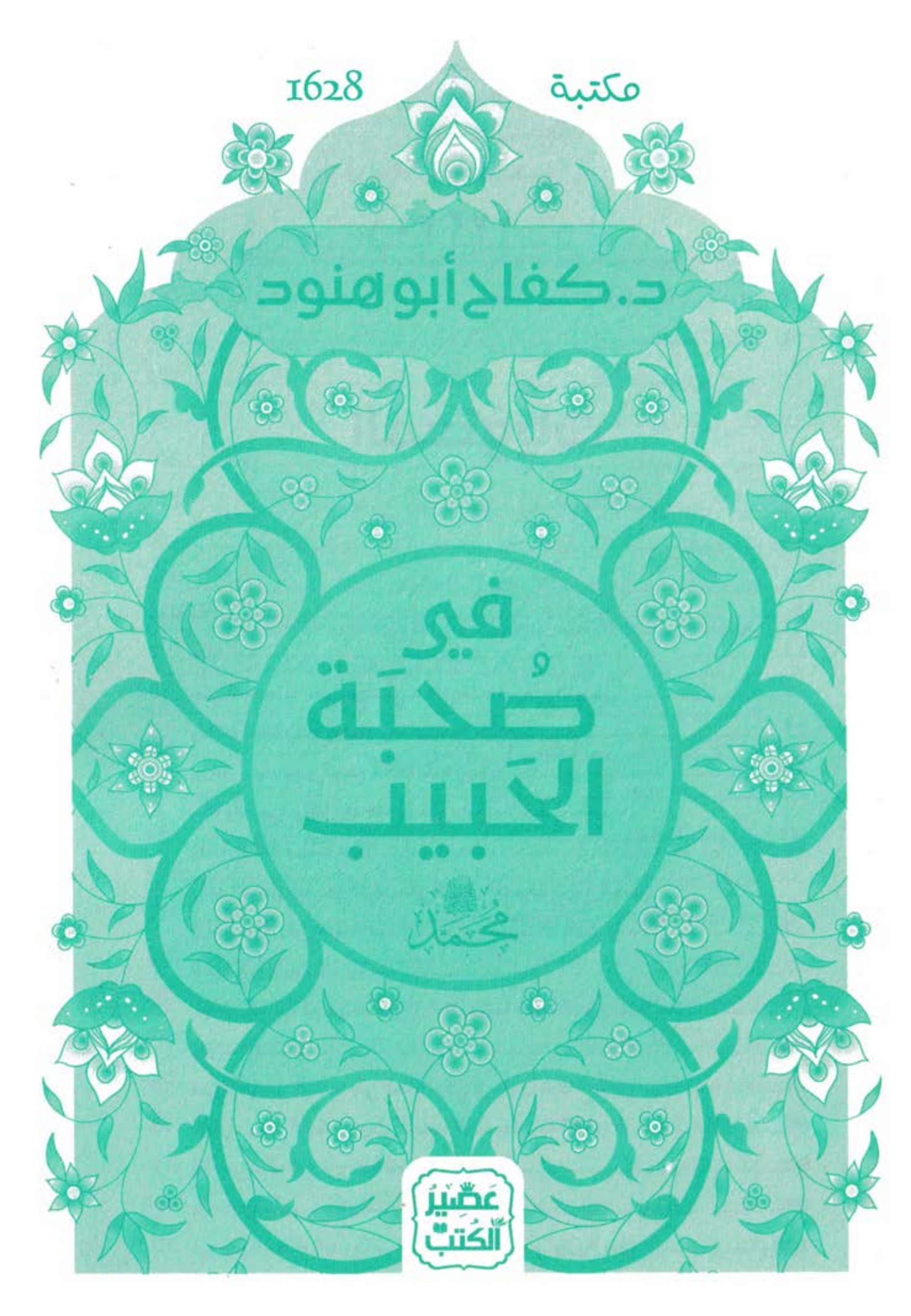
Web-site: www.aseeralkotb.com



- العنوان: في صحبة الحبيب صلى الله عليه وسلم
- تدقيق لغوي: نهال جمال
- تنسيق داخلي: معتز حسنين علي

- طبعة: يوليو/ 2023م
- رقم الإيداع: 11826/ 2023م
- الترقيم الدولي: 978-977-992-264-5

الآراء الواردة في هذا الكتاب تُعبر عن وجهة نظر الكاتب
ولا تُعبر بالضرورة عن وجهة نظر الدار


مكتبة 1628
د. كفاح أبو هنود
في
صُحبَة
الحَبيب
محمد ﷺ
عصير الكتب



المحتويات

الإهداء



إلى القُلوبِ التي تَتهجَّى اسمكَ، دون أن تُخطئ مِنه حَرفًا..

إلى الذين يَمسحون دَمعتهم بارتباكِ الشَّوقِ إليك..

إلى كلِّ الَّذِينَ قَطعوا العُمرَ انتظارًا للمَوعد.. والمَوعِدُ الحَوض!

إلى الَّذِينَ كلّما صارَت الحَياة سنينَ عِجاف..

بَعثوا هَديكَ غيثًا كَيْ تَحيا الحَياة!

إلى الَّذِينَ عبَروا فوقَ القُيود، وبَذروا للجِياع البائسةِ

أحلامًا كبيرة.. وقالوا:

هكَذا كَان الرّسُول!

إلى إخوانكَ الذين اشتَقت إليهم..

مَن صابَروا على جَمرِ الثَّبات..

أُهدي هذا الكِتاب..

في صُحبَةِ الحَبيب ﷺ

المُقَدِّمَة



بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيم

والحَمد لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِين، والصَّلَاة وَالسَّلَامُ على أفضلِ الخَلق وإمامِ المرسَلِينَ، الحَبيب الأميــن، أمَّا بَعد:

كِتابُ (في صُحبَةِ الحَبيب ﷺ)..

كَــان فِكرة في الخَيال، ثمَّ مَددتُ مِدادي إليها، وحاولتُ أن أترُك العَنان لخيلِ الحروف، عَساها تراه.

عَساها تَلمس حُقول معانيه، عَساها تقتربُ مِن سِرِّه!

حاولتُ الكتابة، فأنكرت منِّي، أنِّي كلَّما اقتربتُ فُتِنتُ بمنتهاه، وإذا سكبتُ الحِبر عنه، فاضَ على السُّطور المزيد من مَعناه، وأراهُ يزيد، وعبثًا على مَرمى القَلم، كلَّما عبَّأتُ حرفي، رأيتني كالنَّبتة الخَضراء تحاول وصفَ غابة من فردوس فيها ما لا عينٌ رأت!

مِيلاده، أم يُتمه، أم رَعــي الغنم، البعثُ والوَحي، وآلامٌ كأنَّها القَدر..

خديجة في قلبِه، والهِجرة، والبدر إذ طَلَع، حكايةُ صَبره وجهاده، وتَبتُّل روحه، وملامِح كأنَّها القمر!

غزواته مِن بَدره إلى أُحد، إلى انتهاءِ الفتح ومعنى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ﴾ [سورة النصر: 1].

موته، وشَوقنا، وأنيـن الباحثين عنه في طُرقاتٍ، كأنَّها منافي الحياة، ثمَّ انتظَار الشَّوق، وانتظار الموعد، والموعد الحَوض يَا رسُولَ اللَّه!

كِتاب (في صُحبة الحَبيب ﷺ)..

ليس سَردًا لأحداث السِّيرة وتفاصيلها، وصَحيحها مِن الدخيل عليها، بل هو ليسَ تِعدادًا لمناقب النَّبِيِّ ﷺ وفَضائله، ولكنَّه محاولة الكتابة عن نَبِيٍّ (ارتدى ثياب بشريته ثم تسامى في بُرْهَان بَشَرِيَّتِه، وحَسب الْأُمَّةِ أَن تَفْهَمَ: أَنَّ نَبِيَّها ﷺ كَانَ فِي الْحَيَاةِ بَشَرًا، وما كان فِيهَا ملكًا، وَلَكِن ترابَها لَمْ يُجَاوِزْ قَدَمَيْه)!

ها نحنُ نَرحل في امتدادِك، فلا نبلُغ، نُحاول أن نكونك، أكثَر ما نكوننا.

نحنُ إلى سرٍّ سِرِّك، نحاول الاقتراب، وبين نحن وأنت، مسافة الحبِّ الإلهيِّ ﴿فاتَّبِعونى يُحبِبكُمُ اللَّهُ﴾ [سورة آل عمران: 31].. ومن دونك، نمضي من دوننا..

أعترف أني حاولتُ ارتقاء مُرتقى صَعب، ولكن يعلم الله أني في نيِّتي حاولت بالقَلم أن أقولَ لرسُّـول اللّـهِ ﷺ: إنِّــي أحبُّـك!

وحاولتُ أن أقول: إن سِيرتك تَحمينا مِن المغيب، وإنَّ قَدر هذا الشَّرق، هو الذبول إن لَم تَكُن أنتَ الدَّليل!

للهِ الحَمد كلُّه، أن مَنحني مِن الكلمات ما كتبت، وله الحمد كلُّه، أن وهَبني كرامة البيان عن نبيِّه!

ومِنه العفو عن كلِّ الكتاب، إذ أراهُ أقلَّ ما يُقال، لكن عساه ببركة النَّبِيِّ ﷺ مقبولًا، وعسى ما أصاب حليمة السعدية في ناقتها الهزيلة يصيب كتابي فيسبق ويوهب الأثر ببركة الحبيب ﷺ.

وأخيرًا..

كلُّ الشُّكر «للأستاذ فادي شَلالدة»، الذي ظلَّ مُرابطًا على تَنسيق كلِّ النُّصوص، مُنذ أن شَاء الله للقلمِ أن يَكتُب، وله منِّي خالص الدُّعاء، أن يَجعله اللَّهُ في قُرب نبيِّه في مَقعَد صِدقٍ عند مَليكٍ مُقتَدِر!

والشُّكر لغاليتي «إيناس أبوهنُّود» على مُراجعتها الأولية للكتاب، وعَسى اللَّـهُ أن يَجمع بين اسمي واسمها بين يدَي رسول اللَّه، وهو عنَّا راضٍ في عيشةٍ راضيةٍ مَرضيَّة!

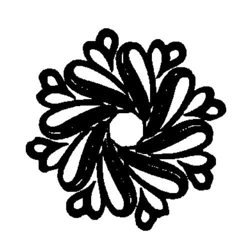
ثمَّ الشُّكر الموصول لزوجي «د. ناصر الكِسواني»، الذي أسألُ اللَّهَ أن يجعلَ كلَّ أعمالي في مَوازينه، فقد كان مِن قبلُ ومن بَعد هو الأمينُ على قَلمي بحبِّه وعَونه، ودَعمه، حتى يظلَّ القلم مُتدفقًا لا يكلُّ ولا يَملُّ، عسَى اللَّـهُ أن يَجعلك في صحبة النَّبِيِّ ﷺ، ومِن أقرَب الخَلق إليه!

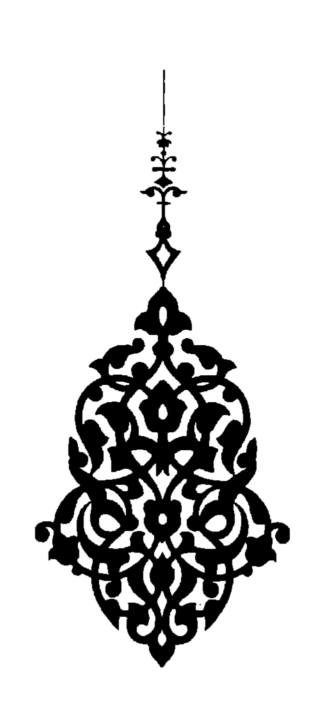
والدُّعاء لوالديَّ، اللَّذين لولاهما ما نبتَت نَبتة الخَيـر في قلبي، ولا كنتُ في عِـداد مَن حاولوا بالقَلم جِهادًا عساه كبيرًا.

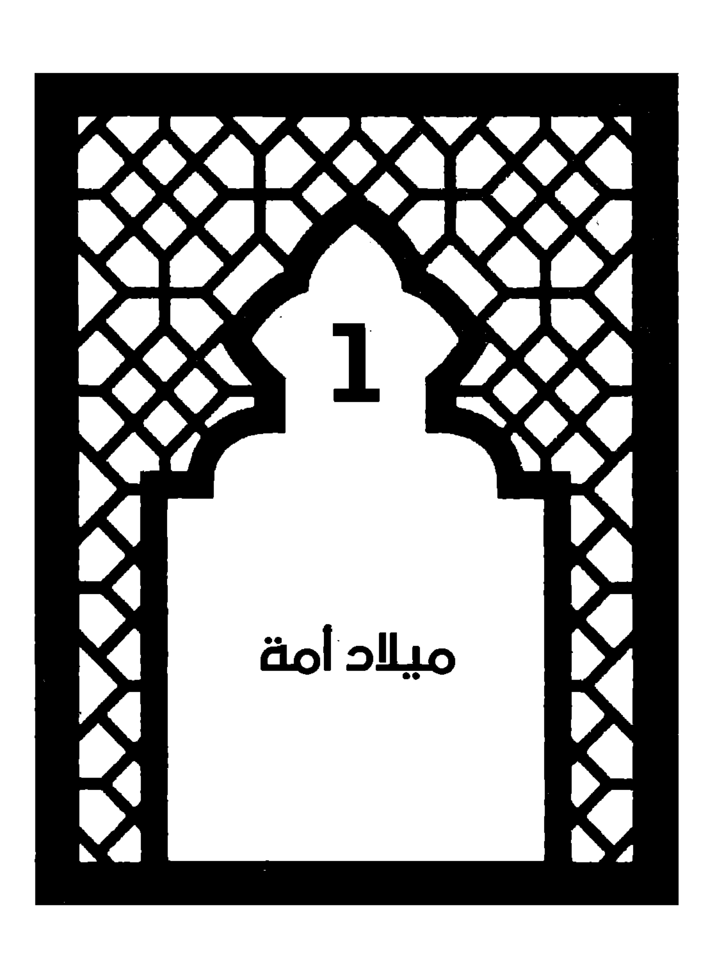
وآخرًا، لا بدَّ مِن شُكر دار (عَصير الكتُب)، التي تبذُل جهودًا جبَّارة في رعاية مؤلَّفاتي ونَشرها وتسويقها، والبلوغ بها إلى كلِّ دُول العالم العربيِّ، شُكرًا لهم، فَهُم رُفقاء دَرب الوَعيِ والمعرفة الكَريمة!

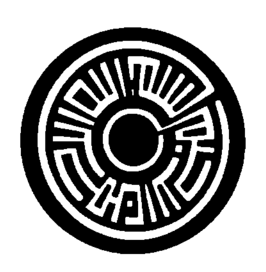
لِلَّهِ الحَمدُ مِن قبل ومن بعد، ولِلَّـهِ الفَضلُ مِن قَبْلُ ومِن بَعد، في كلِّ كلمةٍ سُطِّرت في ليلٍ أو نَهارٍ!

اللَّهُمَّ اجعَل هذا الكِتاب عَملًا مُمتدًّا مَقبولًا، وصدقةً جاريةً إلى يوم الدِّين!






1
ميلاد أمة



الزَّمان: عامُ الفيل
المكان: أمُّ القُرى
الحدَث: ميلادُ أُمَّة

يكادُ عبد المطلب لا يثبت على عصاه وهو يَعبر الباب ليرى مُحمدًا ﷺ..

كان الوَقت بُعيد غسَق الدُّجى، حين رأى ألفَ سَوسَنة تهتزُّ بالضَّوء، حين رأى البدر مُلقى في حِضن آمنة، كان الفَجر حينها يَعبُر بلهفة إلى مَخدع آمنة، ويَمسح بأصابعه عن جَبينها عَرق المَخاض.

يقفُ عبد المطلب مَشدوهًا، تائهًا في مُحمد ﷺ، فقد كان مثل بُؤرة النور، وفي مُقلتيه مدائن من نَعيم!

يسميه جده محمدًا، «أردت أن يحمده الله في السماء، وأن يحمده الخلق في الأرض».

يَضمه، فيَشمُّ حبق المدينة، يبتسمُ الطفل فَيرتقي ليل الحزن في قلب جدِّه. ويكاد عبد المطلب يذوق زَمزم في عرق الوليد، بضعة من عبد الله!

كان جبين مُحمد ﷺ يقطر، كأنَّه ندى الغيم اجتمع كيْ يسقي مكَّة.

يُزهر الشَّفق فجأة، وتنبتُ أول خطوة بعدَ زمن الفيل!

تنتبهُ آمنة على صَوته..

كان صوته هديلًا يوقظ الظِّباء في روحها، تتدافعُ النسوة على الوليد ويتهامسن: «كأنَّه يمامة من الجنة».

تبخر إحداهن المكان بمسكٍ عربي أصيل، وتشعلُ الحطب، وتُزغرد النسوة للوليد..

تشمُّ آمنة عطرًا ملائكيًّا، كأنَّه رَوح ورَيحان.

تُلملم روحها وتُرمِّم داخلها، تقتربُ منه وتُناجيه، مثل نايٍ فقد صاحبه، وبَقي فيه موَّال حزن طويل، يستيقظُ فيه بكاء هادئ.

يا لليلة، كيف تَزدحم بالشَّوق لعبد الله، وكيف يَهطل الليل عليها وحشَةً وغيابًا!

(تبكي عبد الله الذي مات في المدينة عند أخواله بني عدي وكان عائدًا في مهمة تجارية، وهو الذي فداه أبوه بعشر من الإبل لقاء نذر نذرَه إن توافى له عشرة من الولد ليذبحن أحدهم فكانت القرعة عليه، وهو أحب أولاده لقلبه، فقال: اللهم هو أو مائة من الإبل، فوقعت القرعة على الإبل ونجا من الذبح).

يهطل الشوق عليها وحيدة، ومثل غزالة تبكي.

كانَت آمنة تضعُ مولودها في صبح مُلتبس بدُموعها، تشتهي لو أنَّ الغياب يأذَن لعبد الله بالوُقوف على الباب فيرى صغيره، تشدُّ مُحمدًا ﷺ إلى صَدرها، وتُريق له الحزن حليبًا..

يُناغيها، فتلتفتُ إليه، فتحسُّ بأنَّ عُمْرًا ثانيًا يتنفسُ فيها..

يلمَسُ وجهها، فتمتلئ طمأنينة، تلتفتُ للنور في وجه الرضيع، فتراه لؤلؤًا منثورًا في بَطحاء مكَّة..

تراه يحرث الأرض حقولًا، وفي يده كتابٌ، مَن يقرؤهُ، لا يتَلعثم.

أكانَ خيالها يُواسيها؟ أم أنَّ روحها افتتنت بهذا الضِّياء المكتمل؟!

كان ذلك ميلادُ مُحمد ﷺ..

ميلاد سُنبلة، في كلِّ حبة منها مائة سُنبلة..

وفي كل سُنبلة، كونٌ لا يتنَاهى من عطاء سيبقى إلى قيامِ الساعة.

كان ذلك ميلادُ زمنٍ عذب المَعاني، زمن سورة القَدر، والفرقان والحَديد، والملك والنَّصر.

وبعد أن ولَّت قريش ظُهورها للبيت وقالت: للبيَت ربٌّ يحميه!

كان ذلك ميلاد دلاء الرُّوح، تغرف من القُرآن الهُدى زَمزمًا

كان ذلك ميلاد زمن ينسابُ فيه النور في العِراق وفي الشَّام جيوشًا توقظ الرَّافدين..

كان ذلك زمن ميلاد المرأة، بعد أن كانت عاريةً من الأمَل، وواثقة من الموت..

فإمَّا الوأدُ، وإمَّا التَّهميش، وإمَّا عَيش عابر.

كان ذلك ميلاد الكَعبة، فقد تأخَّرت مواعيد النَّهار، واشتاقَ المطاف لخُطى الأنبياء.

كانت الكَعبة وحيدة، يحتسي القوم حَولها قوارير الظَّلام خمرًا ويغترفون الفرَاغ، يتسَامرون عند الأصنام، ولُغة الهبوط إلى الأُمنيات الصَّغيرة، تُكتب قصائد وشِعرًا، ثمَّ تُعلَّق على أستار الكعبة!

لم يكن العرب أكثر من جَمرٍ منطفئ في ليلة باردة، لا وزن لهم في تَاريخ الحَضارات..

كانوا زَوبعة من القلَق التَّافه، زَوبعة حولَ ناقة، أو امرأة، أو جاه، كانوا مثل دُخانٍ باهت.

كانت أمُّ القرى تحتاج إلى ميلاد نبي الله، حتَّى لا تنحدر وراءَ الأفق، وينبت فيها الضياء . .

وكانت الأرواح، تحتاجُ إلى ميلاد النبي ﷺ، كي تُعشب الأُمنيات بصلاته، ﴿وصَلِّ علَيهِم إنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُم﴾ [سورة التوبة: 103].

كانت القَناديل بلا زيتٍ، والليل في امتداد، وجِراح الجاهلية تنزف أذى..

وكانت الأوجاع تنتظرُ مَولد الرحمة:

وكانت البشرية كلها تنتظرُ بَسمتك التي لا تَغيب، تنتظر انتصارك للضُّعفاء

تنتظركَ في الخَمسين، وفي الستين، تعلِّمنا:

(أنَّه لا شحوب في الأَعمار)!

تنتظرك الجبال، كيْ تمشي في مَناكبها ناثرًا قمحَ الهداية..

تنتظرُك المَشارق والمَغارب في مواعيد الصَّلاة، فقد صارت كلُّ الأرض مسجدًا.

أكان مصادفة أن تولَد في عام الفيل؟!

أكان مصادفة؟! أم ﴿وكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ [سورة الأحزاب: 38].

كان ميلادك معنى:

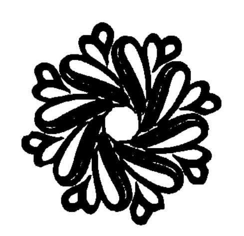
أنَّ الفيل قدَر الضُّعفاء، وأنَ جُندَ مُحمدٍ ﷺ سيفيضون في الأرض شُهبًا، سيفيضونُ طيرًا للحقِّ أبابيل..

وما بين عام الفيل، وبينَ أن نكون قدَر الله في الأرض، أنْ يولَد في عُمرك نبيك، أن يولَد فيكَ محُمَّد، أن يظل حيًّا في أيامك، في بيتك، في اتباعه في التفاصيل..

ميلاد محمد..

ليس حكاية تُحكى، بل هو ميثاق التغيير!

فإلى قصة السيرة النبوية، إلى سيرة النبي، مشهدًا، مشهدًا.




2
حليمة السعدية
على موعد مع
طفلٍ يستحيلُ
بعده النّسيان!

تهرول المرضعات بصغارهن إلى البادية، في كل حضن غنيمته، فتَوَدُّ لو أنَّها سابقَت، فسبقت إلى سواه!

أكانَ نَصيبها يتيمًا لمْ تتَّسع له الصُّدور؟!

تَمضي النسوة بخفَّة وفي الأيدي الغَنائم، أمَّا هي فلَقد أبقاها الخَوف مِن فَراغ الإياب!

توسَّطت المكان بِبُطءٍ وحَذر، كَمن يحاول اختبارَ المجهول، يتيم!

وهي التي تعلم من فقرها ما تعلم، (لقد خَرَجْتُ من بادية بني سعد عَلَى أَتَانٍ قَمْرَاءَ ما تَبِضُّ عَلَيْنَا بِقَطْرَةٍ مِنْ لَبَنٍ، قَدْ أَذْمَتْ فَزَاحَمْتُ بِالرَّكْبِ، فِي سَنَةٍ شَهْبَاءَ لَمْ تُبْقِ لَنَا شَيْئًا، وَمَعِي صَبِيٌّ لِي إِنْ نَنَامُ لَيْلَتَنَا مَعَ بُكَائِهِ، مَا فِي ثَدْيِي مَا يُغْنِيهُ!).

يَتيم!

تَمشي إليه مَشحونة بِقَلقها كأنَّها تستندُ على فراغٍ شاسع..

طفلٌ لا هو عَليَّ ولا هو لِـــي!

تلمع نجمة في عينها ويهمس يتمه قرب قلبها، تقترب منه فتكاد تلمسُ السَّماء، تَمسح رأسَه، فَتنمو الحــنَّاء في يديها، تُناغيه، فَتقطفُ مِن ثَغره ضَحكة ضَحكة..

وفي صَدرها تفيضُ سكينةُ المُتعَبين!

ومثل خيال محال (وَاللَّهِ مَا هُو إِلَّا أَنْ جَعَلْتُهُ فِي حِجْرِي، فكان أرقَّ على قلبي مني، أَقْبَلَ عَلَيْهِ ثَدْيِي بِمَا شَاءَ مِنَ اللَّبَنِ، فَشَرِبَ حَتَّى رُوِيَ وَشَرِبَ أَخُوهُ حَتَّى رُوِيَ)!

كانَ محمد مثل لحظةٍ دافئة بين تَعَبٍ وتعَب، وما في الرُّوح يفيضُ على المَلامح.

يُواصل الحَليب تَدفُّقهُ وهي في صمتٍ عميق..

تَكاد تَسمع نشيدًا مُقدَّسًا، وتَكاد لا تَجِدُ كلمةً كافية تَصِفُ ما تَشْعُر، فقد كان في قِلَّتها هو كَثرتها..

وما كان خَيالها يتَّسع لكلِّ ما حَملت، بل كيفَ تُفسِّر ما لا يُفَسَّـــر؟!

يتلاشى الوقتُ وتتنفس البركة..

كانت مُتعَبة وفَقيرة، وكانت يَده تقبضُ على يدها فتشعُر بغزارةِ الحليب كأنَّه زَمزم!

تهمس فطرتها، سبحانك (ما شئت لي جل علاك، لا ما شاؤوا)، يتدافع نبضها، هل وجدتُ ضَالتي؟

تتأمله، في عَينيه شموخٌ لا تعرفه ملامح الصغار..

يضحكُ إليها فيمرُّ فرحٌ غريب على فقرها!

هل كانت حليمة السعدية على موعدٍ مع قَدر لا ينتهي؟ مع طفلٍ يستحيلُ بعده النِّسيان؟!

طفلٌ مَن فَقدهُ فقد فَقدَ وَما وجد!

تقترب منه، فَتجدها فيه، وكلَّما اقتربت، استقامت الرَّاحلة!

يبتسمُ، وتفيض النَّاقة بالفَرح، تُلاحق أنفاسه فلا تَلحق..

تُقرضها الشمس، فما يَضيرها وبين يديها قَمر، وسِـــلال الفرح!

ما الذي جَرى لروحها؟ لا بؤسَ ولا ضَجر!

كلُّ شَيءٍ كان مهدَّدًا بالنَّفاد، حتى أطـــلَّ مُحَمَّدٌ فلا همٌّ ولا كَدر،

وألفُ لونٍ لغيمةٍ على حافَّة الشَّفق!

تجري النَّاقةُ كأنَّها تعتلي الريح، وتسبقُ بِهزالها مَن سبقوا..

وحين غادرت الزِّحام تنبَّهت للمعنى، لمعنى (ومن ألفِ دهرٍ وعمري يَشتكي الظَّمأ، وأنت وحدَك مَـــن رَواه مُنفردًا)!

(كانَ خفيفًا كأنَّه سِـــرٌّ خفيٌّ لستُ أدركه، ومليئًا ببركةٍ تزيد).

ها هي تَحكي الحكاية:

(وَقَامَ زَوْجِي إِلَى شَارِفنَا مِنَ اللَّيْلِ، فَإِذَا هِيَ حَافِلٌ فَحَلَبَتْ لَنَا مَا سَنَّنَا، فَشَرِبَ حَتَّى رُوِيَ، قالت: وَشَرِبْتُ حَتَّى روِيتُ، فَبِتْنَا لَيْلَتَنا تِلْكَ بِخَيْرٍ، شِبَاعًا رِوَاءً، وَقَدْ نَامَ صَبْيَانِنَا، فيَقُولُ زَوْجَهَا: وَاللَّهِ يَا حَلِيمَةُ مَا أَرَاكِ إِلَّا أَصَبْتِ نَسَمَةً مُبَارَكَةً، قَدْ نَامَ صَبِيُّنَا وَرُوِيَ)!

تُرى، هل كان ما قَبلك سُدى؟

تُـتَمتم: هل عثرتُ عليه أم عثرتُ علـيَّ؟!

تكادُ لا تتوقَّف عَن دهشتها وصدرها يفيضُ له ولأخيه.

تلوحُ أمواجُ السَّراب، وتُرهَق القافلة وليتَ الناقة في الجَري تَقتَصِد!

تمدُّ الناقة عُنقها لطائرِ الأحلام، وتشدُّ بعضها إلى بعضها كأنَّ الأرض تُطوى لها..

(ثُمَّ خَرَجْنَا، فَوَاللَّهِ لَخَرَجَتْ أَتَانِي أَمَامَ الرَّكْبِ قَدْ قَطَعَتْهُ حَتَّى مَا يَبْلُغُونَهَا، حَتَّى إِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ: وَيْحَكِ يَا بِنْتَ الْحَارِثِ، كُفِّي عَلَيْنَا، أَلَيْسَتْ هَذِهِ بِأَتَانِكِ الَّتِي خَرَجْتِ عَلَيْهَا؟ فَأَقُولُ: بَلَى وَاللَّهِ وَهِيَ قُدَّامُنَا)!

وفي حضنِ حليمة، كان (حشدٌ من العَطايا يرقُد هاهنا).

تشدُّ رحلها، ومِن فقر كأنَّه الدُّجى، إلى بركةٍ هي غاية المُنى، ومع مُحَمَّدٍ، أقلُّ الفضل لو تَدري، خيال!

كانت في النَّقص هنا، ومعه صارت في الفَضل هناك.

(قَدِمْنَا مَنَازِلَنَا مِنْ حَاضِرِ بَنِي سَعْدِ بْنِ بَكْرٍ، فَقَدِمْنَا عَلَى أَجْدَبِ أَرْضِ اللَّهِ، فَوَالَّذِي نَفْسُ حَلِيمَةَ بيدِه إِنْ كَانُوا لَيُسَرِّحُون أَغْنَامَهُمْ إِذَا أَصْبَحُوا، وَيُسَرِّحُ رَاعِي غَنَمِي فَتَرُوحُ غَنَمِي بِطَانًا لَبَنًا حُفَّلًا، وَتَرُوحُ أَغْنَامُهُمْ جِيَاعًا هَالِكَةً مَا بِهَا مِنْ لَبَنٍ. قَالَتْ: فَشَرِبْنَا مَا شِئْنَا مِنْ لَبَنٍ وَمَا فِي الْحَاضِرِ أَحَدٌ يَحْلِبُ قَطْرَةً وَلَا يَجِدُهَا، فَيَقُولُونَ لِرُعَاتِهِمْ: وَيْلَكُمْ أَلَا تُسَرِّحُونَ حَيْثُ يُسَرِّحُ رَاعِي حَلِيمَةَ؟ فَيُسَرِّحُونَ فِي الشِّعْبِ الَّذِي يُسَرِّحُ فِيهِ رَاعِينَا، وَتَرُوحُ أَغْنَامُهُمْ جِيَاعًا مَا بِهَا مِنْ لَبَنٍ وَتَرُوحُ غَنَمِي حُفْلًا لَبَنًا).

قَالَتْ: (وَكَانَ ﷺ يَشِبُّ فِي الْيَوْمِ شَبَابَ الصَّبِيِّ فِي شَهْرٍ، وَيَشِبُّ فِي الشَّهْرِ شَبَابَ الصَّبِيِّ فِي سَنَةٍ، فَبَلَغَ سِتًّا وَهُو غُلَامٌ جَفْرٌ)!

ماذا لو بدأت النسوة من نهايةِ المشهد؟ لانهمرنَّ على الصغير، و(لو يعلمُ الهاجِرون الغيب ما هجروا)!

كان محمد كالغَيب في خزائنه، وكالفضلِ في مَزيده، وظلَّت حليمةُ في بَسطِ بركته، في عنايةٍ مُرخاة، وسَــترٍ مُسبل، وعافيةٍ شاملة!

وظلَّ الصغير يُضيء كنور الأنبياء على المآذِن والقباب، وكان كما تَشتهيه الحياةُ والأقدار!

كل يوم كان يَقينها يحدِّثها: إنَّ مُحَمَّدًا سيِّد الأسماء وكامِلها.

وكان على حُفاة الروح في الطُّرق البعيدة، وعلى المُدن العَزلاءِ مِن أحلامها أن تنتظره قَريبًا!

وحين رأى صِغارها رَجلين يُضجعانه وهو في الرابعة من عمره ويَشقَّان صدره رأت بملء أحداقها أسراب المُنى!

كان مُحَمَّدٌ خبيئةَ النبوة، وخبيئةَ البِشارة، وكانت حَليمة تُصغي لروح مُحَمَّدٍ وتنتظر إشارةً ما، وكان شقُّ الصدرِ مُنعطف اليقين!

وقد روى أنس بن مالك ﷺ (أنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ أتاهُ جِبْرِيلُ ﷺ وهو يَلْعَبُ مع الغِلْمانِ، فأَخَذَهُ فَصَرَعَهُ، فَشَقَّ عن قَلْبِهِ، فاسْتَخْرَجَ القَلْبَ، فاسْتَخْرَجَ منه عَلَقَةً، فقالَ: "هذا حَظُّ الشَّيْطانِ مِنْكَ"، ثُمَّ غَسَلَهُ في طَسْتٍ مِن ذَهَبٍ بماءِ زَمْزَمَ، ثُمَّ لأَمَهُ، ثُمَّ أعادَهُ في مَكانِهِ، وجاءَ الغِلْمانُ يَسْعَوْنَ إلى أُمِّهِ، يَعْنِي ظِئْرَهُ، فقالوا: "إنَّ مُحَمَّدًا قدْ قُتِلَ"، فاسْتَقْبَلُوهُ وهو مُنْتَقِعُ اللَّوْنِ، قالَ أنَسٌ: "وقدْ كُنْتُ أرَى أثَرَ ذلكَ المِخْيَطِ في صَدْرِهِ").

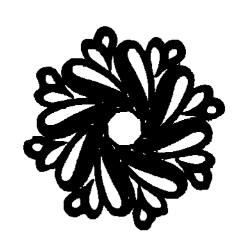
حينها حَملَته حليمة السعدية إلى أمِّه خوفًا عليه، لكن بأي إياب تعود؟ لم تكن مستعدة لفراقه لكن الخوف يغري بالوداع! كانت تعرِف الكثيرَ الكثير، لكنَّها قالت القليل، قالت: إنَّ ابنَك هذا سيكونُ له شأنٌ.

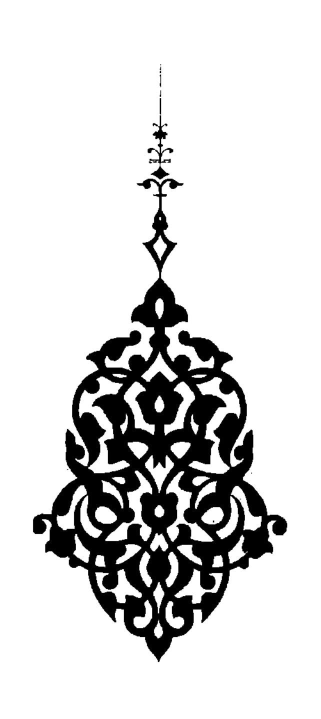
وقد كانَ وكان!

وكان قلبها مِن بعيدٍ يُبصر كلَّ الطريق، ثم ماذا؟ ثم كان ما رأته ببصيرة قلبها، كان محمد نسمة مباركة!

وفي غزوة حنين وبعد خمسة وخمسين عامًا يروي أبو الطُّفَيْلِ ﷺ قَالَ: (رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ، يَقْسِمُ لَحْمًا بِالْجِعْرَانَةِ فَجَاءَتْهُ امْرَأَةٌ بَدْوِيَّةٌ فَبَسَطَ لَهَا رِدَاءَهُ، فَقُلْتُ: "مَنْ هَذِهِ؟"، قَالُوا: "هَذِهِ أُمُّهُ الَّتِي كَانَتْ تُرْضِعُهُ")!

الحُب فوقَ المسافات، الحُب ذاكرةُ امتلاء، الحب حنين الذكريات!






3
وماتت آمنة،
ماتت يمامته
وما أبقت
ولا تركت

(أعِـنِّي يا مُحَمَّد على دَفنِ أمِّــك)..

كم تَنهيدة تَكفي لهذه اللَّحظة؟!

التُّراب جاف، ويدُ الصغير تتنفَّس الحزن، يرتجفُ ظلُّهُ وفي عَينه شرودٌ غريب، (ناوِلني التُّراب)، وبكفِّه يحملُ معنى الرَّحيل! ماتَت يَمامته وما أبقَت ولا ترَكت، وبدا الفقدُ في عمرِه أبدًا.

كيف اجتاحت الحمى آمنة، وكلٌّ ما كان عليه مِن الآمال يَعتمد..

كيف غابَ الحبُّ وظلَّ الخوف والكَمد!

تُوسِّدُ أم أيمن آمنة القبر في الأبواء، (كانت عائدة من زيارة أخوال النبي من بني عدي بني النجار وكان محمد عمره ست سنوات).

يشيحُ الصَّغير بعينه عن القبر، شيءٌ قليل أنــا وأنتِ هناك.

وبتلويحةٍ مقطوعةٍ غادَر القبر، وعندما مسحَ عينيه، رأى تَمام الحزن..

الكثيرُ من حِجارة القبر حوله، ولَحظة ستظلُّ تمتدُّ ما امتدَّ الطريق!

كان صامتًا، وكانت تلك ذَروة الألم..

يتحرَّك الهَودج، وإلى اليسار ثمَّة ألمٍ ينبض، ثمَّة قَــبر!

لقد ماتَت آمنة، ووقف قلبُ الصغير حافِيًا، ثمَّة ما يُسميه الصَّغيرُ فَقدًا.

ظلَّت عينه على الوَراء، يبحثُ عنها، وعلى الطريق عاصفة وجع..

لا تتأخَّري عنِّي، مُدِّي صوتك، مُدِّي قلبك، يتحرك الهودج بعيدًا عن القبر، ألا ليتَ المسافات تموت!

يوزِّع الليل أحزانه على النُّجوم، ويسيرُ الهَودج، وتبدأ المعاني الجَديدة: أنا هُنا وأنتِ هناك!

يقطع محمد الفَراغ إلى أمِّ أيمَن، ويختبئُ في قلبها، تتماسَك السَّماء وتخشى النُّجوم رَمادية الحزن في عينيه..

منذ هُنيهة فقط كان لَـه أمٌّ..

والآن، أبوابُ المتاهَة مُشرَعةٌ ولا قِفل في يديه!

ها هو يحملُ كَسرة الحزن فوق رأسه ويكادُ يَنهشه الخوف..

ومع كلِّ ضفيرة في شَعره المُنسدل يزدادُ المَساء!

تتَّكئ أمُّ أيمن وحدها على وحده، فلم يكن حوله إلاها.

تراه مُنهكًا من الكِتمان، وقلبه ينبضُ حتى حُنجرته، فالطفولة تُفصِح عن عذاباتها بالصَّمت!

تَعقد خُصلة من شعره بين يديها، ويوشِك الأسى أن يحملهما على جُرف الذكريات، يشتد الليل وبين يديها ثمَّة طفل يبكي من الوحشة، ومطَرٌ خفيف يتعثَّر في دَمع مُحَمَّد!

يمدُّ عينه نحو السَّماء، فيرى الشَّفق الباكي آخِر المشهد..

تُحاول أمُّ أيمن بِنبرةٍ حانية، لكن الصَّغير لا يتوقَّف عن كلمة: أمِّــي!

تحضنه أمُّ أيمن، أعيذكَ مِن طول الصَّمت وغَلبة الأنين وحَسرة الفقد!

تمدُّ يدها على جَبينه ساخنًا، عَرقٌ بارد وسِــرٌّ مدفون في أنينٍ متقطِّع.

هل هذه حمَّى؟ ربَّما..

وربَّما هو الأسَى، وربَّما كان قلبُ الصَّغير لا يتَّسع لكلِّ هذا الأسى!

هل كان كلُّ ما فيه يُعاني فراغَ الطَّمأنينة؟!

يرتدي الصَّغير اللحظة لِحافًا ويشتدُّ البرد في الحَنين..

ومع كلِّ خطوةٍ يرتعش الهَودج مِن وَخزةٍ خفيَّة! وخزة الله يعلمها!

أوَّاهُ، متى سيبلُغ هذا الطريق آخِــره؟!

أوَّاهُ، لا راحلةَ تتَّسع لكلِّ هذا الفِراق!

يقتربُ الليل ويختلط بالنَّهار، وتَخشى أمُّ أيمن على الصَّغير أن يبتلعَ حزنه صامتًا!

نادَته، محمد، ظَـلَّ هادئًا مثل حَملٍ حزين، وظلَّ قلبه طَوال الرحلة يَبكيها!

ترتجفُ أمُّ أيمن، بَرد الصَّحراء، وليلٌ موحش وهزيمةُ الموت.

يحسُّ بيدها على رأسه، وتحسُّ قلق الإياب، في المدينة قبرُ أبٍ، وفي السَّفر قبرُ أمٍّ!

بدا الطريق طويلًا إلى مكَّة، وكان على وشك كلِّ شيء.

الطِّفل، وأمُّ أيمن، وليل لا يتَّسع لما بقي في ذاكِرة اليَتيم!

كان وحيدًا يحرس قلبَه ولا أحد يَحرُسه، ومنذ تلك الليلة، كَبُر الطفل كثيرًا!

ثمَّة ما لا نفهمه في الطَّريق، لكن النِّهاية تفسِّر لك كل الاحتمالات..

وفي الألم دومًا ما يُشاهَد وما لا يُشاهَد، ومِن نشيج العزلة يبدأ طريق النَّبي!

يَـا الله، ما أثقَل الطريق إلى النبوَّة!

ها أنتَ تولَد منك وتُبعث إلى أقصاك، ومِن أقصاكَ، ينتظرُ الأقصى خُطاك.

ها أنتَ تُبعث حصَّةً للفقراء، والسِّرُّ فيكَ مِن أوَّل البَدء حتى آخِر الإسراء.

مِن (طُور سِينين) حتى (البلدِ الأمين)، ومِن (وادٍ غير ذي زَرع) حتى (إذا جاءَ نَصْر اللهِ والفَتح)!

كنتَ في قِدَم البداية وخاتَم النِّهاية.

﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ﴾ [سورة الضحى: 6].

{ألم يَجدك..} فصنَع منك ما لا يُدرَك!

{ألم يَجدك..} لا بأس، فأنتَ بعضُ أوراق الوجود، وبكَ ستكتمل الحكاية!

{ألم يَجدك..} وعند كافِ الحبِّ، حطَّ مُحَمَّدٌ (رحال نَبضه) وكانت العناية!

أيُّها العابر على جَمر التَّهيئة، كيف يُصبح الألم معنى: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾! [سورة طه: 39].

{ولتُصنَع..} حتى يَدُلَّهُ فَيدلَّنا!

وعلى مَتن راحلةِ الوجع بدأ سِفر النُّبوة، وحيدًا في المقدمة، وخَلفه إرثُ الأنبياء!

خلفه الجِراح التي تخلَّى عن شِفائها بنو إسرائيل، المُدن الخاوية التي تنتظر دعاءَ إبراهيم، ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ [سورة البقرة: 129].

وأمامه عبءُ ارتباك البَشرية في التثليث..

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [سورة الصف: 6].

وبين يدي محمد مهمة ثقيلة ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ﴾ [سورة النحل: 89].

شاءك الله لكلِّ البدايات التي لم تَكتمل، وليأسُ الضُّعفاء في انتظارِ الأمَل..

والعالَم المُثقَل بالأفكار العَقيمة، المليء بالرُّهبان والصَّناديد، وقَناطير مُقنطَرة مِن الأوهام الزائفة.

وسرابُ الدروب الحائرة، وأنتَ وحدك مَن ستُبحر البشرية إليك!

لقد نجَا من اليتم، لكن الفَقد ظلَّ في ذاكرته.

ووحده الذي يعرف الألم، والخَوف، والفَقد، وصوت الحواسِ وهي تبكي، البحث عن نهاية الليل!

وحده مَن يُعيد المعنى..

وفي عُمر مُحَمَّد كان الابتلاء ليتَّسع لنا المدى!

كنت خَيار الله في العُسر: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [سورة الطور: 48]. لماذا؟

لأنَّه لا أحدَ يقدِر على هَزيمةِ قلبٍ تخطَّى أصعب أيامه، قلبٍ لقدرٍ لن ينتهي! (فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا)، إذ مَنْعُ اللهِ إياكَ عطاءٌ منه لك، فإنَّه لم يمنعك بُخلًا، إنَّما منعَك لُطفًا!

﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾، رسول الله أنت زَمننا، ووقتنا، وصوت ﴿قُل هُو اللَّـهُ أَحَد﴾.

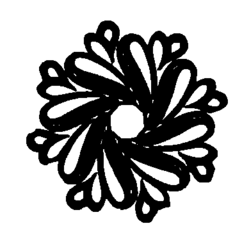
أنتَ المدد، ومواعيد النُّور، وبك صارت كل المُدن مدينة منوَّرة.

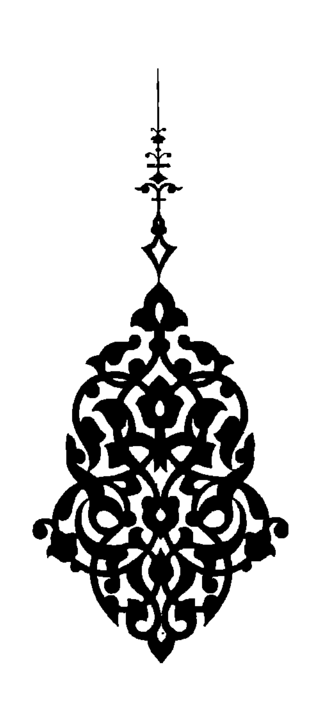
﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [سورة الأعراف: 157].

كان نِصف عمرك معنى التخلِّي، وكان بقيَّة العمر لنا معنى التحلِّي.

نَمشي في عُمرك، وبِعمرك.

(ولَعمرك)، به أقسَم الله، لأنَّ عُمرك ما سَيعيد ترتيبنا جميعًا!






4
ورحل جده،
يبدو الوجع
مُكلّفا لكنّه
يصنعنا

كُلُّ الألم في حياةِ النَّبِيِّ ﷺ كان مَحسوبًا بدقَّة..

الجِراح التي لا تنام، الأوقات الثَّقيلة، الحُروف الغائِبة مِن صوت الأمِّ، النَّبرة المُرتَجِفة مِن شدَّة الحزن...

كلُّها، كانت تُشيِّد معنى النَّبيِّ.

يبدو الوجع مُكلِّفًا، لكنَّه يَصنَعنا.

كان محمد صغيرًا حين بدأت دقَّات قلبه تكتشفُ معنى الغِياب، حين كان يتضوَّر شوقًا لأمِّه وأبيه.

في فنَاء الكَعبة، يجلسُ على رِداء جدِّه عبد المطلب هادئًا وصامتًا، والصَّامتون مُزدحمة عقولهم بالأفكار!

ينفضُ قلْبَهُ من الأصنام، وتحتَ النُّجوم، شعورٌ باغترابٍ عجيب، وكانت تلك عُزلة واعية!

يجلسُ في ظلِّ السُّكون، مُمتلئة به العيون، وفي مكة لا وَراء في الوراء، ولا أمامَ في الأمام، ولا شَيء سوى نَزوة خمرٍ وارتباكِ الطريق!

تَعبُر عيناه مكَّة فلا يعثر على شيء، خالية مِن شيء ما يبحث عنه.

ها هي الأصنامُ يكبُر رُكامها كل يوم، ومحمد هناك في فناء الكعبة..

وعلى كَتِف عبد المطلب المنهَكة كانت الأيام مَفتوحة على كل الاحتمالات.

كان يُوضَعُ لِعبد المطلب فِراشٌ في ظلِّ الكعبة، وكان بَنوه يَجلِسون حول فِراشِه ذلك حتى يَخرُج إليه، لا يَجلِسُ عليه أحدٌ مِن بنيه إجلالًا له، فكان رسولُ الله ﷺ يأتي وهو غُلامٌ ممتلئٌ قويٌّ حتى يَجلِسَ عليه، فيأخذُه أعمامُه ليؤخِّروه عنه، فيقول عبدُ المطلب إذا رَأى ذلك منهم: "دَعوا ابني، فواللهِ إنَّ

له لَشأنًا"، ثمَّ يُجلِسُه معه على فِراشِه، ويَمسَحُ ظهرَه بيدِه، ويَسُرُّه ما يراه يَصنَعُ.

فقد كان عبد المطلب ما تبقى من أبيه، وكان يكفي لرتق جرحه، وبدا بِساط جدِّه مُشبعًا بالنَّجاة!

ثمَّ فجأةً، وفي الثامنة من عمره يَخلو المكان من عبد المطلب ويَرحل الحُبُّ، وفي غِيابه لم يَجِدُ الصغير مِنديلًا يكفي لما بقي مِن الدمع، فقد كان مُمتلئًا بمعنى الغياب!

كانت تلك ذَروة النَّقص، أو ربَّما هي ذَروة الاكتمال.

مرحلةٌ فاصلة بين الخوفِ والقوَّة، بين الاتكاء والثَّبات، وبين التخلِّي والعَطاء!

غادَر عبد المطلب، ولم يتبقَّ في صُحبة الصَّغير إلا المسافات إلى القُبور!

هُنــا جدِّي، وهناك أمِّي، وفي البَعيد قبرُ أبي!

تشيخُ الأسماء التي لا تُقال، لذا، لا رغبةَ في النِّسيان، فما لدَى الصَّغير سوى أيام مؤلَّفة مِن الذِّكريات.

وإلى ضفَّةٍ جديدة تَحمله الأقدار، في غرفةٍ مكتظَّة بأجسادٍ كثيرة، ينامُ في زاوية تخشى انهمار الشَّوق.

ثيابه تبتلُّ بدمعةٍ مُباغِتة، وفي الظَّلام يَلتهمه الحنينُ لجدِّه، أو ربَّما أمِّه، أو خَيل تجمعه بأبيه!

وعلى وسادةٍ قديمة وتحتَ ملاءةٍ صامتة يتسَاءل الصَّغير: ماذا لو انتهى الفراغ وجاءَت آمِنة؟!

يتساقط الشوق بِبُطء، يبتسمُ لها: أُحبُّكِ. يفتَح نافذة قلبِه وينظر إليها!

أحِبُّكِ. وليتها تسمع فتُجيب!

ويَلوح وجهُ عبد المطلب، ويَشتهي الصَّغير لو يطفئ الشَّوق بعناقٍ حنون، وكان ذلك نهايةَ الحلم!

(أرسَله جدُّه يومًا في إثر إبلٍ ضلَّت، فلمَّا تأخَّر حزِن عبد المطلب حزنًا شديدًا، وعندما رجعَ بالإبل أقسَم جدُّه ألَّا يُرسله في حاجةٍ أبدًا، وألَّا يُفارقه أبدًا)، لكنَّه فارَقــه!

ها هي أهازيجُ المَساء، حكايات الرِّجال، غُروب الشمس على أستارِ الكعبة، أسئلة الصَّغير لجدِّه، وندى الصَّباح في يدِ عبد المطلب، وصوت مُحَمَّد: آتٍ إليك يا جدِّي!

يقبضُ جدُّه على يَدِه بقوَّة، وتبدو مكَّة كلُّها مَطر.

يبدو الصَّدى شاسعًا، فقد جاءَ وقتٌ، يَدُ عبد المطلب في المَقبرة!

كم هو فادحٌ هذا الفَقد!

كم هو فادحٌ هذا الحنين!

تهرُب الدموع خِلسةً إلى المسافرين نحو السماء، رباه كيف ينبشُ الليل كُلَّ الأحزان؟!

ينتبه، فيرى بيتَ أبي طالب، حيث مَذاق الجوع وكثرة الفقر، والانتظار على حافَّة الأمَل!

كان بيت أبي طالب بيتًا وحلُمًا بالإيواء فقط، وكان المشهد يزداد نقصًا.

وفي جراحِه كان النَّبي يَكتَمِل، ها هو في نصِّ الإعداد الثَّقيل!

يَـــا للهِ، كيف تَعجز المفردات عن كتابة نصِّ التَّهيئة!

ينهضُ الفتى كَسُنبلةٍ شاء اللَّـــهُ لها الكثير، وتبدأ رحلة رعيِ الأغنام.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النَّبي ﷺ قال: "ما بعث الله نبيًّا إلَّا رعى الغنم"، فقال أصحابه: "وأنت؟"، فقال: "نعم، كنت أرعاها على قراريط (جزء من الدينار) لأهل مكَّة" لِمشقة الحياة!

الرِّمـال الصفراء المُمتدة، الأيدي المُرهقَة مِن خواءِ الجوع، الأقدام المُجهَدة مِن السعي، الهواء المليء بالذكريات!

يفترشُ التراب، وتحيطُ به الوحدة، وحدة مليئة بتأمل صامت!

يبتسمُ لفرحةٍ لم تكتمل، لحكايةٍ انتهت سريعًا، لبقايا أمكِنة، ولنحيبِ النُّجوم في سكونِ الموت، ولطفولةٍ ذكرياتها وداعٌ كثير، وشوق يَقلبه جنبًا إلى جَنب!

أحبه عمه أبو طالب واصطحبه في سفره إلى الشام وعمره يكاد يبلغ ثلاثة عشر عامًا، وهناك رآه الراهب بحيرا واستشرف فيه النبوة، ثم عاد به إلى مكة.

ومُحَمَّد الفتى في ذلك كله، ينصتُ لنفسه، ويحصي تاريخه وجعًا وجعًا، فقدًا فقدًا، وبصمة بصمة، وقدرًا قدرًا، ليجدَ أنَّ (أنَـــا)، هي نحنُ جميعًا في غَيبٍ تنتظره الحياة جَمعاء!

كلُّ تلك الأوراق التي تمزَّقت، كلُّ ما تدفق في الفُصول مِن ألم، وكلُّ الطرقات التي كانت فارِغة من فوانيسها..

وكلُّ احتراق كان رماده كثيرًا، وستار عصمة خفية..

روى البخاري أنه: (لما بُنيت الكعبة ذهب النبي ﷺ وعباس ينقلان الحجارة، فقال عباس للنبي ﷺ: "اجعل إزارك على عاتقك من الحجارة"، ففعل فخر إلى الأرض، وطمحت عيناهُ إلى السماء، ثم أفاق فقال: "إزاري إزاري"، فشد عليه إزاره).

كل الرَّعشات الصغيرة، والعناية الخفية، والليل المليء بوجعِ الأسئلة، وهذا النصُّ المزدحم بالحزن...

كانَ لأجلنا!

كانت طَلاقة قلبك يا رسول الله مِن نسيان الضعفاء والفاقدِين والحزانى، والمُتعثِّرين في الطرقات!

كان صوتك الذي لن يصمتَ عن نُصرة أنين الفقراء..

كان قلبك الذي لن يُرهبه الرحيل والهِجرة والانتقال..

كان يَدك التي ستتشبَّث بكلٍّ يتامى الحُـب!

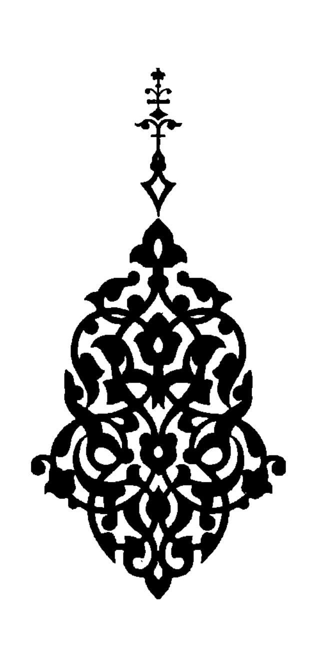
ستبسُط رداءَك لكلِّ مَن أنهكهم غِياب الأمان.

نحن رعيتك وأنتَ وحدك طُمأنينة كل آهٍ خذلتها الأيام!

أنتَ مَن ذاق، ومَن ذاق عَرف!

وفي أزمنةِ الجفاف، أنت غَيثنا وغَيمنا وخبيئة السماء لكلِّ القلق!






5
مكة والوحي
و(إذا أراد الله ما
منع مانع، ولا
حجب حاجب،
وقد أراد اللهُ
محمدًا نبيًّا)!

"والله لا أعبد اللات والعزى"، يقسم وتكادُ عين محمد ﷺ تلجُ الغَيب، قادمٌ مِن ذرى المستحيل وعُمره، ألف ألف نَبِيٍّ ورسول، تَلقاه مكَّة حُلمًا، فهل في السَّماء أجنحة لهذا الحُلم؟

نبي في عينيه أزمنة وعُصور، تتعب جِياد السَّفر ولا تبلُغ مَدى مِشكاة تنتظرُ من الله النور.

كان مُحَمَّدٌ في مكَّة، وكانت العَرب في سِفر مِن الفَوضى، تَتيه القوافلُ وتزداد المسافات النَّائية.

يَرتفع نحيبُ المُستضعَفين على حافَّة الانهيار، يَطوون ثيابهم المبتلَّة بدمع الأحلام، ويتدثَّرون بهامشِ الحياة.

وفي هَجير الأيام يستظلُّون بسقفِ أمنياتهم المُتعَبة.

كانوا يبتهلون بأوجاعهم، بانكساراتهم الصَّامتة، بالأمنيات اليائسة، وببقايا ما تبعثَر منهم، وفي دَمع العين، ما تعثَّر من عذابها، وكان الانتظار وهنًا على وهن.

يَنحني عُــود أيامهم، ويذبُل، فلقد غَلَّت قريش أنفاسهم بوَهم البقاء!

وكان محمد يتلمس الحق فينصره. يقول عليه الصلاة والسلام: "شهدتُ حلفَ المُطَيَّبين وأنا غلامٌ معَ عمومتي، فما أحبُّ أنَّ لي حُمْرَ النِّعَمِ وأني أَنكُثُه"، والمطيبون خمس قبائل هم: عبد مناف وزهرة وأسد بن عبد العزى وتيم والحارث بن فهر، وقد أخرج بنو عبد مناف قصعة مملوءة طيبًا، ثم غمس الحضور أيديهم فيها، فتعاقدوا وتعاهدوا على نصرة بني عبد الدار والمظلومين من بعدهم، ثم مسحوا الكعبة بأيديهم توكيدًا على أنفسهم فسُموا المطيِّبين،

لكن مُحَمَّدًا قبل وبعد بينَ الغار والكَعبة يمضي في وَحشة الاغتراب، وبين كُلِّ نبضتين تتنفَّس روحه أُمنية الانعتاق.

والضُّعفاء حوله كأشلاء متناثرة، والعقول في سُبات الجهل، وكاهنٌ يَستقسم بالأزلام في فَوضى تستقرُّ عليها الأصنام.

يَجول «أُميَّة بن الصَّلت» يتلمَّس ما بقي مِن دِيانة إبراهيم، وَيبدو غَريبًا تائهًا في اتِّساع الليل.

(أميَّة هذا كان متصلًا في الجاهلية بأهل الكتاب، يسمع أخبارهم وكتبهم، وكان قد قرأ الكتب المتقدمة من كتب الله -عزَّ وجلَّ- ورغب عن عبادة الأوثان، ويتصل بمن يكفر بالأصنام من العرب، ويبحث عن التوحيد، يذكر في شعره خلق السموات والأرض، ويذكر الملائكة، وكان يخبر بأنَّ نبيًّا يُبعث قد أظلَّ زمانه، ويؤمِّل أن يكون ذلك النبي).

وعلى هامِش الزَّمن، كانت تُوأدُ البنات وتولَد العَورات، عَورات الفِكر، والوعي، والسلوك!

وكانت الحياةُ أشبَه بصمتٍ جنائزيٍّ يُعلن مآتم الرُّوح.

وكان مُحَمَّدٌ في كلِّ ذلك هُنا وهناك يبحثُ عن جواب اللَّه، ودومًا يُقاس عقل الإنسان بقدرته على رؤية ما لا تَراه الحشود.

يحرُس قلبه ويغسل آلام الناس بالبحثِ عن الله..

مثل المُستحيل كان ذاك الترقُّب! مثل المُستحيل!

لا أحَد يفهم مَدخله ومَخرجه، وفي عيون القَوم، يبدو كنخلةٍ تستبدُّ بها قَسوة الصحراء.

لكن مُحَمَّدًا كان في يقينه أنَّ ثمَّة جوابًا، (انظُر بِعَقلك، إنَّ الرُّعاةَ تَرى ما لا يرى الضأن).

وكان مُحَمَّدٌ يرى رغم الرؤى المَحدودة، والألوان الباهتة، والظِّلال المُعتِمة، ودِماء الفتيات التي سقَت القبور...

وبين الإفصاح والكِتمان، كانَ اللَّـهُ به عَليمًا!

ذات يوم (كان يطوف بالبيت العتيق، ومعه مولاه زيد بن حارثة مرة، فلمس زيد بعض الأصنام فنهاه رسول الله ﷺ عن ذلك، ثم عاد زيد للمسها فنهاه ثانية فانتهى. وكان يأبى أن يأكل مما ذبح على النُّصب)، وبعض الرفض قرار! كان السؤال على الرمال، ما الذي تبقَّى للجاهلية حتى تُقاوم لأجله؟

ها هي تحتضر وقد آن أوان بعث جديد.

كانت الأرضُ قد ملَّت حياد المواقف واكتمَل الشوق للإجابة، وآنَ لِقَيظِ المسافةِ والوُعورة أن ينتهي.

وكان مُحَمَّدٌ قلبًا يستحقُّ كلمات الله، فكان الوحيُ، وخطَّ القرآن بمحمَّد معانيه.

نزَل القرآن، فَلم تترك الكلمات المَكان كما كان، يَغمرهم صوته بـ ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢﴾ [سورة العلق] فلا يبقى القلبُ كما كان!

يسيرُ في الطرقات بلا إلهَ إلا الله، ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [سورة الحج: 62]. يعلن الحقيقة فتهدأ القلوب المُتعَبة، وتَحيا القلوبُ ببعضِ البشر!

لا مسافةَ بين عيني مُحَمَّد والطمأنينة، لا مسافة، والوُجوه الباحثة عن الله تأوي إليه إذ اتَّسع الوجَل.

ثابتةٌ ملامحه رغم اشتعال الخَوف، تهيج قريش وهي ترى جموع الضعفاء حوله، ولم يبقَ حَجر جاهليٌّ إلا وارتفعَ لِرَجم النَّبِيِّ.

وكان مُحَمَّدٌ يَقِفُ بين الزَّبَدِ وبين وعد الأبَد، ﴿وَأَنتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ [سورة البلد: 2].

وسَيتبَعُك الوَلد وما ولد، فَقُل: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [سورة الإخلاص: 1].

تحوَّلت مكَّة إلى خارطة للدَّم.

(كان أبو جهل الفاسق الذي يغري بهم في رجال من قريش، إذا سمع بالرجل قد أسلم له شرف ومنعة، أنَّبه وخزاه، وقال: "تركت دين أبيك، وهو خير منك، لنسفهن حلمك، ولنسفهن رأيك، ولنضعن شرفك". وإن كان تاجرًا قال: "والله لنكسدن تجارتك، ولنهلكن مالك". وإن كان ضعيفًا ضربه، وأغرى به).

(إن كانوا ليضربون أحدهم ويجوّعونه ويعطّشونه، حتى ما يقدر أن يستوي جالسًا من شدة الضر الذي به، حتى يعطيهم ما سألوه من الفتنة، حتى يقولوا له: "اللات والعزى إلهك من دون الله؟"، فيقول: "نعم". افتداءً منهم، مما يبلغون من جهدهم).

(أسلم الزبير بن العوام وهو ابن ثماني سنين، وهاجر وهو ابن ثماني عشرة، وكان عمه يعلقه في حصير ويدخن عليه بالنار ويقول: "ارجع إلى الكفر"، فيقول الزبير: "لا أكفر أبدًا").

وبين حريقِ الغداة وصَبر العِشيِّ، وقَف النَّبِيُّ يَمتطي صَهوة الوَعد، ويُناول أصحابه أرغفةَ اليقين.

إننا مِن وطَن الجِراح سَنُضيء..

ولله أسبابه، والأعمَى مَن ظنَّ الأشياءَ هي الأشياء.

للهِ أسبابه، وأدنى ما فيكَ قد يعلو إن شاءَ الله.

للهِ أسبابه، يكفيني ويكفيكَ، وبيده فوقَ ما قيل وما لا يُقال.

للهِ أسبابه، وفي الليالي الطّوال، نسجَ النَّبي ﷺ اكتمالَ الهِـلال.

اجتمعت قريش إلى أبي طالب تسأله أن يكف دعوة النبي، بعث إلى رسول الله ﷺ فقال له: «يا بن أخي إن قومك قد جاؤوني فقالوا كذا وكذا (الذي قالوا له) فأبقِ عليَّ وعلى نفسك، ولا تحمِّلني من الأمر ما لا أطيق»، فظن رسول الله ﷺ أنه قد بدا لعمه فيه بدو وأنه خاذله ومسلِّمه، وأنه قد ضعف عن نصرته والقيام معه، قال: فقال رسول الله ﷺ: "يا عم والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله، أو أهلك فيه، ما تركته"، ثم استعبر رسول الله ﷺ فبكى ثم قام، فلما ولى ناداه أبو طالب، فقال: "أقبل يا بن أخي"، فأقبل عليه رسول الله ﷺ فقال: "اذهب يا بن أخي فقل ما أحببت، فوالله لا أسلمتك لشيء أبدًا".



كان النَّبي جوابَ اليقين، كان يُرتب مَجيئه، والأقدار تُرتب غيابهم.

وفي الصحيح: بيْنَما رَسولُ اللَّهِ ﷺ قَائِمٌ يُصَلِّي عِنْدَ الكَعْبَةِ وجَمْعُ قُرَيْشٍ في مَجَالِسِهِمْ، إذْ قَالَ قَائِلٌ منهمْ: "ألَا تَنْظُرُونَ إلى هذا المُرَائِي أيُّكُمْ يَقُومُ إلى جَزُورِ آلِ فُلَانٍ، فَيَعْمِدُ إلى فَرْثِهَا ودَمِهَا وسَلَاهَا، فَيَجِيءُ به، ثُمَّ يُمْهِلُهُ حتَّى إذَا سَجَدَ وضَعَهُ بيْنَ كَتِفَيْهِ، فَانْبَعَثَ أشْقَاهُمْ"، فَلَمَّا سَجَدَ رَسولُ اللَّهِ ﷺ وضَعَهُ بيْنَ كَتِفَيْهِ، وثَبَتَ النبيُّ ﷺ سَاجِدًا، فَضَحِكُوا حتَّى مَالَ بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ مِنَ الضَّحِكِ، فَانْطَلَقَ مُنْطَلِقٌ إلى فَاطِمَةَ عليها السلام (وهي جُوَيْرِيَة)، فأقْبَلَتْ تَسْعَى، وثَبَتَ النبيُّ ﷺ سَاجِدًا حتَّى ألْقَتْهُ عنْه، وأَقْبَلَتْ عليهم تَسُبُّهُمْ، فَلَمَّا قَضَى رَسولُ اللَّهِ ﷺ الصَّلَاةَ، قَالَ: "اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بقُرَيْشٍ، اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بقُرَيْشٍ، اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بقُرَيْشٍ".

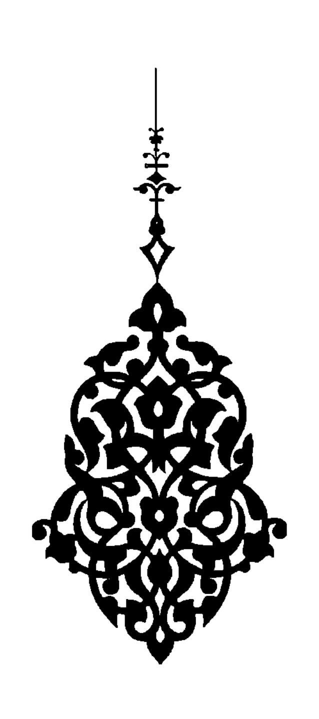
كان النبي روايةَ الإسلام التي لم تَنتهِ ولن تنتهي، وإنَّ الله إذا أرادَ أمرًا، أزالَ العواقِبَ وأتَمَّه، وقد أتمَّهُ في توقيت شاءه، ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [سورة المائدة: 3].

بدَت مكَّة في تجهمها دَهرًا طويلًا، وقبرًا للشُّهداء، ومَحاق النُّجوم، وأصاب النبي أذى كثير.

(إذ بينما النبي ﷺ يصلي في حجر الكعبة، إذ أقبل عليه عقبة بن أبي معيط، فوضع ثوبه على عنقه، فخنقه خنقًا شديدًا، فأقبل أبو بكر رضي الله عنه حتى أخذ بمنكبه ودفعه عن النبي ﷺ وقال: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [سورة غافر: 28].

(لكن إذا أرادَ الله، ما مَنَعَ مانِع، ولا حَجَبَ حَاجِب، وإذا أراد الله، جاءتكَ الأماني خفيفة، وصارت لك المُستحيلاتُ حقيقة)!

وقد أرادَ اللهُ مُحَمَّدًا نَبِيًّا!




6
(أحدٌ أحد)،
وملحمة الثبات
على الرمال ألبسوهم دروع
الحديد، تراهم قريش في
البقاء احتمالا.. ويراهم
محمدٌ ﷺ للأمة اكتمالا!

يتحمَّل بلال عِبء وحدته بِـ (أَحَدٌ أَحَد)، فقد كان مُحمَّلًا بِقَدَرِ الضُّعفاء كلِّهم.

يتلمَّس أمية بن خلف حُنجرتهُ وتَكاد تَخنقه الكلمة، (أَحَدٌ أَحَد).

كان بِلال يَخرج مِن نفسه، وأبو جهل أنهَكه انتظارُ أنَّــةٍ بصوتٍ مَسموع.

يَصِلُ الصَّناديد مُحمَّلين بالألم، ومُنتفخين بامتلاءٍ فارغ، وكلَّما قال بلال: "أَحَدٌ أَحَد"، كانَ يتهدَّم أحدهم!

بدا أمية بن خلف تحت شمس الظهيرة شاحبًا ومُتعَبًا، ومدفونًا فوق التراب، يلتهمه قَلَقٌ مَــا ويسقُط في مكانٍ سَحيق. (كان أمية بن خلف يخرِجه إذا حميت الظهيرة، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضَع على صدره، ثم يقول له: "لا والله لا تزال هكذا حتى تموت، أو تكفر بمحمد، وتعبد اللات والعزى"، فيقول وهو في ذلك: "أحدٌ أحد").

ها هي آلافُ الرِّمال الموحشة تُحيط به.

يتدفَّق معها عَرقٌ ساخن، وبلال عيناه تَغرقان في الدُّموع، وقلبه حمامةٌ بيضاء ناعِسة تنتظر اكتمال الولادة.

"إلى مَتى؟"، قالها أمية بِضَجرٍ ثقيل، إلى مَتى؟

تتَزاحم الكآبة في عَين أمية، ويخشى ألَّا ينتهي الرهان، الرهان على انطفاءِ الشمس.

يتمتم أمية: "هذا العبدُ سيموت مرَّات".

سَيموت كثيرًا، ربَّما لن يتوقَّف موته، لكنَّه لا يَصمت عن: "أَحَدٌ أَحَد"!

وأنا، كيف أطفئ كلَّ هذا النَّهار وحدي؟! لَيتني أستطيعُ بَتر صوته.

أَحَـــدٌ أَحَـــد، رغم القَيظ يَسمعها بلال مُبلَّلة بندى روحه.

وكلَّما زادت السِّياط انفجرَ نبعٌ من اليقين.

على الرِّمال ألبسوه دروع الحديد، تَراه قريشٌ في البقاء احتمالًا، ويَراه مُحَمَّدٌ ﷺ للأمَّة اكتمالًا!

كان الفراغُ واسعًا، وفائضٌ من المخاوف يتكاثر في الروح الآثمة.

حدَّقَ إليه بلالٌ ثمَّ ابتسم، فقد رآهُ خاويًا. قلبٌ تملؤه الثَّغرات ويكادُ يجفُّ فكلُّه زبَد، وبلال خالَط عَـذبهُ عَذابُهُ، فهطَل صوته غيثًا: "أَحَدٌ أَحَد". كان مثل حَول كامل مِن الثَّبات واستوفى نِصابه.

يَنوء أمية بن خلف بِـــ: "أَحـــدٌ أَحَـــد".

يضيق بها كأنَّها تَريِّق شرابه لِسرابه.

يعطشُ فجأةً وما يَدري إيابَه مِن ذهابه، لكن بِلال كان أدرى به.

يُقاتله بالكلمة فتخرج الحُروف، فتَسمع مِن أبي جهل نعيب غُـرابِهِ كأنَّه مقبرةٌ مليئة بآثامه، يمشي إلى الصَّناديد مثل هاويةٍ تمضي إلى هاوية.

كان بلالُ واحدًا لكن لا تشبهه الأعداد، وفي قلبه كانَ الله أَحَدًا فَرْدًا صَمَدًا.

حطَّ بلال رحاله على بابِه، فعمَّهُ وابلُ جُوده!

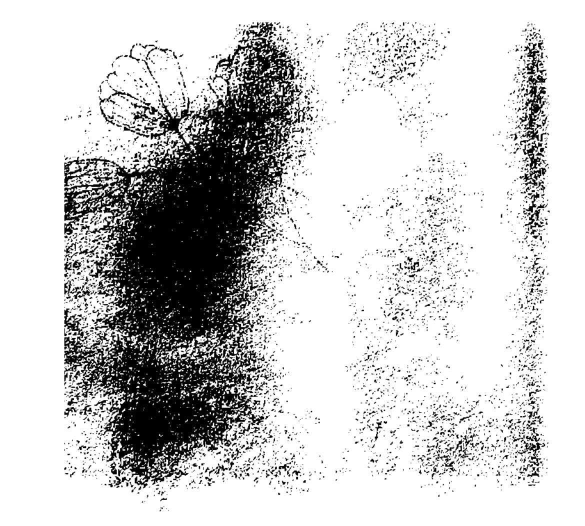
تهبُّ الريح برَواحها وتكشف عن أقدام التَّعب. كان باطِلهم مُرهَقًا مِن ثباتهم. وكان الصحابة جميعًا تحت السِّياط مبتلِّين بِفَيضِ بَهائهم!

يتساقط الدَّم، فتُكتب أسماؤهم بملءِ جلالها، ويَسقيهم اللهُ سلسبيلًا مِن أسرار مُستحيلها!

عمَّار، وياسر، وسميَّة. والشُّهداء في أعينهم لُغة مُستحيلة لا تَفهمها قريش، تبتلُّ أجسادهم بدَمع مُضرَّج بِمسك الثَّبات، يمرُّ النَّبيُّ ﷺ، فهل تدري ما في قلبه على صَحبه؟

يراهم وقد استَوى يقينهم على عَرشِ الثَّبات!

(منهم زِنِّيرَةُ، وَكَانَ أَبُو جَهْلٍ يُعَذِّبُهَا حَتَّى عَمِيَتْ، فَقَالَ لَهَا: "إِنَّ اللَّاتَ وَالْعُزَّى فَعَلَا بِكِ"، فَقَالَتْ: "وَمَا يَدْرِي اللَّاتُ وَالْعُزَّى مَنْ يَعْبُدُهُمَا؟ وَلَكِنَّ هَذَا أَمْرٌ مِنَ السَّمَاءِ، وَرَبِّي قَادِرٌ عَلَى رَدِّ بَصَرِي"، فَأَصْبَحَتْ مِنَ الْغَدِ وَقَدْ رَدَّ اللَّهُ بَصَرَهَا).



في الرِّمال، وعلى الرِّمال ألبسوهم دروع الحديد وصهروهم في الشمس، تَراهم قريشٌ في البقاء احتمالًا، ويَراهم مُحَمَّدٌ ﷺ للأمَّة اكتمالًا، يرى (أُفولَ الثُّريا وبزوغ الهِلال).

كانت الدعوة سرية ثلاثة أعوام، توافد فيها أبو بكر وعلي وزيد بن حارثة وسعد بن أبي وقاص وعثمان بن عفان وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام وخديجة من النساء -رضي الله عنهم جميعًا- ثم نزل الأمر بالإعلان، ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ [سورة الشعراء: 214]، فخرَجَ رَسولُ اللهِ ﷺ حتَّى صَعِدَ الصَّفا، فَهَتَفَ: "يا صَباحاه"، فقالوا: "مَن هذا الذي يَهْتِفُ؟" قال: "مُحَمَّدٌ"، فاجْتَمَعُوا إلَيْهِ، فقالَ: "يا بَنِي فُلانٍ، يا بَنِي فُلانٍ، يا بَنِي فُلانٍ، يا بَنِي عبدِ مَنافٍ، يا بَنِي عبدِ المُطَّلِبِ"، فاجْتَمَعُوا إلَيْهِ، فقالَ: "أرَأَيْتَكُمْ لو أخْبَرْتُكُمْ أنَّ خَيْلًا تَخْرُجُ بسَفْحِ هذا الجَبَلِ، أكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ؟"، قالوا: "ما جَرَّبْنا عَلَيْكَ كَذِبًا"، قالَ: "فإنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بيْنَ يَدَيْ عَذابٍ شَدِيدٍ"، قالَ: فقالَ أبو لَهَبٍ: "تَبًّا لكَ أما جَمَعْتَنا إلَّا لِهذا!".

وبعدها شمت الصحراء جسد الزبير بن العوام وهو يُحرق على نار عمه!

تَسري الدِّماء من العروق، خدرٌ ثقيلٌ مِن الوريد إلى العظام، وفي بَيداء الدُّجى تشتعلُ البَصيرة، تنشقُّ غَمامةٌ عَن مَطرٍ ويَمضون.

(أما خباب بن الأرت فقد أخذه الكفار وعذبوه عذابًا شديدًا، فكانوا يعرونه ويلصقون ظهره بالرمضاء ثم بالرضف، وهي الحجارة المحماة بالنار، ولووا رأسه، فلم يجبهم إلى شيء مما أرادوا منه).

وعن مسعود بن حراش قال: (بينا أنا أطوف بين الصفا والمروة إذا أناس كثير يتبعون إنسانًا فتى شابًا موثقًا يده إلى عنقه، قلت: "ما شأنه؟"، قالوا: "هذا طلحة بن عبيد الله صبأ"، (كفر بدين قريش)، وامرأة وراءه تذمه وتسبه قالوا: "هذه أمه الصعبة بنت الحضرمي").

(ومرَّ رسولُ اللهِ ﷺ بياسر وعمَّار وأمِّ عمار وهم يُؤذونَ في اللهِ تعالى فقد غضب عليهم مواليهم بنو مخزوم غضبًا شديدًا، وصبوا عليهم العذاب صبًّا، فقال لهم: "صبرًا يا آل ياسرَ، صبرًا يا آل ياسرَ فإن موعدكُم الجنةُ").

(ورغم كبر سن سمية رضي الله عنها فإنها ثبتت ثباتًا عجيبًا أمام أبي جهل الذي كان يتولى تعذيبها، وأغلظت له القول فطعنها في قُبلها بحربة في يديه فماتت أمام زوجها وابنها، من دون أن تتنازل لأبي جهل عن شيء من إسلامها، حتى قال جابر رضي الله عنه: "يقتلوها فتأبى إلا الإسلام").

لم تلتفت إليه رغم غوائل التهديد، بل قالت موعدنا غدًا، وغص حلقه بثباتها.

طعنها فظل جرحها راعفًا، وظل الطريق إلى الجنة ينزف بدماء الشهداء، وظل اسمها في زحمة الحياة لا يعرفه النسيان.

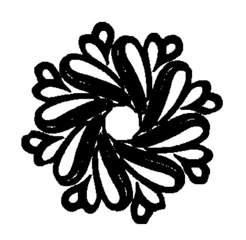
يَــا لِلنَّبِيِّ وهو يودِّع البائِتين على ما انطَوى.

يُتمتم شَهيد:

"إنِّي أراك، ولا أرى أحدًا سِــواك، يكفيني أنِّي قد عثرتُ على خُطاك..

إنِّي أراكَ فأرتوي، ودونك كُلُّ الظَّما، إنِّي أراك، يَكفيني أنَّ عينيَّ تراك!".

ذاكَ شهيد كان قريبًا مِن مُحَمَّد، قريبًا، قابَ قوسين أو أدنى، وكان ذلك يَكفيه كي يبلُغ النَّعيم!




7
الحبشة واغتراب
كله وجع

يودِّعهم بعينين، كأنَّهما مطرٌ خفيف، يَقبضون على يديه كيْ يقطعوا عَناء الطريق!

يَراهم في معنى {قَرِيبًا}، في {بِضْعِ سِنِينَ}.

و﴿سَيُهزَم الجَمعُ ويُولُّون الدُّبُر﴾ [سورة القمر: 45]، ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ [سورة مريم: 84].

(مَاذَا يَملكُ لهُم وهوَ يرى مَا يُصِيبُ أَصْحَابَهُ مِنَ الْبَلَاءِ، وَمَا هُو فِيهِ مِنَ الْعَافِيَةِ، بِمَكَانِهِ مِنَ الله –عز وجل– وَمِنْ عَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ، وَأَنَّهُ لَا يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يَمْنَعَهُمْ مِمَّا هُمْ فِيهِ مِنَ الْبَلَاءِ، فقَالَ لَهُمْ: "لَو خَرَجْتُمْ إِلَى أَرْضِ الْحَبَشَةِ"، فخرجوا).

تنهمرُ البَسملة عليهم ويَرحلون، ثمانون رجلًا ونساء وأطفالًا.

يُتمتم قَلْبٌ: اللَّهُمَّ إنَّ هذا السَّفَر وُسْعِي فلا تكلِّفنا ما لا نطيقُ مِن وجع الرَّحيل!

يفرُّ بعض الصحابة بدينهم، ودعاؤهم: "اللَّهُمَّ أعِـدْ لنا مكَّة".

كان البحر عنيفًا، الأضلُع المجهَدة تنهز مَع قوة المَوج، ويشتدُّ الظَّـلام.

يتلمَّس أحدهم قلبه ويُدرك أنَّ شوقه أوسَع مِن هذا الليل.

الصِّغار، وحبيبةٌ في الصحراء، في يَدها ما بقي مِن دفئه، يضمُّ خَيالها وتختبئ في أنفاسه، وبخيطٍ من الحزن يَرتق جُرحه..

تهزُّ العواصف كل الشِّراع، وحين ارتطَم الموجُ بالسفينة كاد الغَرق أن يبلُغ سِرَّه!

كان يحلم بها، وكانت السَّفينة ممتلئة بالبكاء من دون دمعة، ممتلئة بأنين الوَداع الذي لا يَبين.

يختفي الساحل، كيف للبُعد أن يمزِّق الروح في المَسافة إلى نصفين، بعضها هُنا وأكثرها هناك!

يرتعشُ الشَّوق ويزدحم الليل بالراحلين..

وفي يَمٍّ زاخر، كانت أرواحهم في الصُّفوف الأولى رغم غُروب المُنى واغتراب النُّفوس.

يتعثَّر صوت أحدهم وهو يقول: "أيتها السَّفينة، إلى أين تمضين؟".

يردُّ عليه أخوه: "إلى بعضِ الأمان!".

هذا ما قاله رسول الله: "لو خرجُتم إلى أرضِ الحبشة؟ فإنَّ بها مَلِكًا لا يُظلم عنده أحَد، وهي أرضُ صِدق، حتى يجعلُ اللَّـهُ لكم فَرجًا ممَّا أنتم فيه". تلوح كلماته في غيم ملبد بالظلام ..

ها هو الحُلم يبحث عن وطن، والوطن يحتاجُ إلى دفء أمان.

لكن الهِجرة هنا، كانت خَطوة لأجل العودة.

يشد بيده على عضد أخيه: "اقبِض على جَمرك، وأذِب الجوارح في صَبرك، إنَّها هجرةٌ لحماية حفنة النور من الفتنة".

يُتمتم أحدهم: "وإني لأحبُّكِ يا مكَّة رغم المَخاوف".

ومِن آخر السفينة يرتفعُ صوت: "الغِياب ليس نِسيان الراحلين، ولكنَّه حماية أوتادِ الأرض مِن منايا تَجوس، وبعذاباتنا تُقام الطُّقوس.. لقد طَرحتنا قريش بين ليلٍ مرير ويومٍ عبوس.. اليوم نخصِف على ضعفنا أوراقَ صبرنا، وغدًا يُخصَفون".

كان في السَّفينة جَعفر وعثمان بن مَظعون، وثلَّة ممَّن خاض العُلا، حاملًا ومَحمولًا، وحين خَرج عثمان بن عفان ومعه رُقيَّةُ بنتُ رسولِ اللهِ ﷺ واحتَبَس على النَّبيِّ ﷺ خبرُهم، فكان يخرُجُ يتوكَّفُ عنهم الخبرَ، فقد كان أبًا، فَقَدِمَتِ امْرَأَةٌ مَنْ قُرَيْشٍ فَقَالَت: "يَا مُحَمَّدُ، قَدْ رَأَيْتُ خَتْنَكَ وَمَعَهُ امْرَأَتُهُ"، فقال النَّبيُّ ﷺ: "على أَي حَال رأيتِهما؟"، قَالَت: "رَأَيْته قد حمل امْرَأته على حمَار من هَذِه الدِّبَابَةِ وَهُو يَسُوقُهَا"، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "صَحِبَهُمَا اللَّهُ، إنَّ عثمانَ لأَوَّلُ مَن هاجَر إلى اللهِ بأهلِه بعدَ لوطٍ".

أكاد أتخيلك، وقلبك يودُّ لو كان دِثارها في اغتراب الطَّريق.

أكاد أتخيلك، تسأل عنها المارين، فهي بقيَّة خديجة وذكريات السِّنين.

أكاد أتخيلك، أبًا يغادرك هَودجها، ولا يدَ تُكفكف عنها وجع الرَّحيل.

صلى عليكَ اللهُ وأنت تَستوطن غَيب الوعد كأنَّك ترى المقادير.

يَمضون، وبعدهم ما يَستوي البحران، بحرٌ لعابر وبحرٌ سفينته امتلأت بدمعٍ مالح!

ذَهبوا لِيَرْتُقوا ما بعثَرته قريش.

(فلا تسل عن فَيض غربتهم هناك، لا تَسل عن حزنهم، عن شوقِهم، عن كل ما حَملوه في نعشِ القلوب).

والنَّبي خلفهم يدعو لهم، ويواري غربتهم بالأمَل، وكان قلبه بالله مَشدودًا!

كان يراهم من بوابة الخروج سيعودون، كان النبي ينسج من الوقت خطة البقاء رغم رماد الحريق. كان ينتشل أصحابه من مذبحة قريش. كان يحميهم من أن يغتالهم الخراب.

كانت قريش تعد خطتها وكان النبي أفقًا من اليقظة، وما أذن أن يكون أصحابه حصاد صيد الجاهلية! وما كان الترحل محض أحلام بأوهام النجاة!

كان النبي يشع في بيداء الحزن بالوعي، وفوق المياه نجت السفينة، لم تخرقها قريش وكان وراءها ملك لا يُظلم عنده أحد!

عليك سَــلامُ اللهِ، إذا شابَ القلبُ شــكًّا، كنتَ أنت يقينه!

عليكَ سَــــلامُ اللهِ، وأنت تَحمي منابت النُّور للأمَّة.. وتحمي البقية من اغتيال الجاهلية ..

عليكَ سَــــلامُ اللهِ، وقلبك يسأل عن رقيَّة.

عليكَ سَــــلامُ اللهِ، وجراحك تتوهَّج، لتضيء لنا.

تُبعثر الجاهلية كلَّ شيء، ومحمَّدٌ يُعيد ترتيبها، ولا أشد مِن عذاب اليَقظة في عالَمٍ مليء بالعميان.

وفي الحَبشة تلاحقهم قريش، يبلغون النَّجاشي، ويراوده عَمرو بن العاص بذهب ومَتاع، تتراقَص الشُّموع حول النَّجاشي، يتلو جعفر بن أبي طالب آياتٍ من سورة مَريم تتَّقد بها وصايا عيـسى، ويُسافر النَّجاشي فيها، حتى نهاية النَّص، يهتزُّ، ويقول: "وَاللَّــهِ هذا حَصاد الأنبياء!".

يسمع القرآن وتحتَ أهدابه أنيــن، يقرأ أحزانهم ويَرى فيها حُزن عيسى مع بني إسرائيل.

تُدركه دهشة الحقيقة ويعبُر المعنى، ويُعلِنُ: "إنَّ هذا والذي جاءَ به موسى لِيخرج مِن مِشكاةٍ واحدة، انطَلِقا، فواللهَ لا أسلمهم إليكم أبدًا ولا أكَاد. اذهَبوا فأنتم الآمِنون، مَن سبَّكم غُرِّم، ثم مَن سبَّكم غُرِّم، ثم مَن سبَّكم غُرِّم، فما أحِبُّ أنَّ لي دبرًا ذهبًا (أيْ جبلًا ذهبًا) وإني آذيت رجلًا منكم، رُدُّوا عليهما هداياهما، فلا حاجةَ لنا بها".

فجأةً، يطفو الذَّهب زَبَدًا، ويلقي بجمرهِ في أفواه قريش.

يتساقَط الإغواء مثل ورقة أخيرة من يَباس السَّراب..

ترنُّ الدنانير على قارعةِ الثبات، ويَلتهمهم اليأس وهم يتلمَّسون طريق الهروب، ويَندثر فصلًا ممَّا تبقَّى من حكاية الاستبداد.

تضيق مكة فتفيض سلالة الإيمان في الحبشة ..

أيتها الجاهلية، لن نَنسى: حِصارًا، ونفيًا، ومُطاردة.

ولن نَنسى: صوت ابن العاص مهددًا: "واللهِ لأنبِّئنَّه غدًا عيبهم عنده، ثمَّ أستأصل به خضراءهم".

ثم ماذا ؟ ثم تدفق إيقاع الكلم وذكرت القلوب ما جرى وفي كتب السيرة تفاصيل الامتحان!

(بَعَثَتْ قُرَيْشٌ عَمْرَو بْنَ الْعَاصِ وَعُمَارَةَ بْنَ الْوَلِيدِ بِهَدِيَّةٍ، فَلَمَّا دَخَلَا عَلَى النَّجَاشِيِّ سَجَدَا لَهُ ثُمَّ ابْتَدَرَاهُ عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ، ثُمَّ قَالَا لَهُ: "إِنَّ نَفَرًا مِنْ بَنِي عمنَا نزلُوا أَرْضك وَرَغبُوا عَنَّا عَن مِلَّتِنَا". قَالَ: "فَأَيْنَ هُمْ؟" قَالَا: "فِي أَرْضِكَ فَابْعَثْ إِلَيْهِمْ". فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ، فَقَالَ جَعْفَر: "أَنَا خَطِيبُكُمُ الْيَوْمَ". فَاتَّبَعُوهُ.

فَسَلَّمَ وَلَمْ يَسْجُدْ، فَقَالُوا لَهُ: "مَا لَكَ لَا تَسْجُدُ لِلْمَلِكِ؟"، قَالَ: "إِنَّا لَا نسجد إِلَّا لله –عز وجل–".

قَالَ: "وَمَا ذَاكَ؟"، قَالَ: "إِنَّ اللَّهَ بَعَثَ إِلَيْنَا رَسُولًا، ثمَّ أمرنَا أَلا نسجد لأحَدٍ إِلَّا لله –عز وجل– وَأَمَرَنَا بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ".

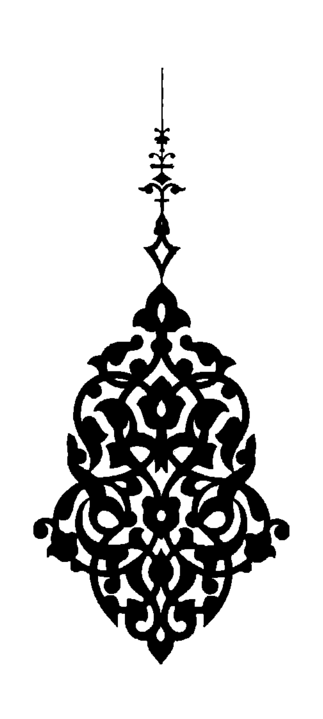
قَالَ عَمْرٌو: "فَإِنَّهُمْ يُخَالِفُونَكَ فِي عِيسَى ابن مَرْيَم".

قَالَ: "فَمَا تَقولُونَ فِي عِيسَى ابن مَرْيَم وَأمه".

قَالَ: "نقُول كَمَا قَالَ الله: هُو كَلمته وَرُوحُهُ أَلْقَاهَا إِلَى الْعَذْرَاءِ الْبَتُولِ الَّتِي لَمْ يَمَسَّهَا بَشَرٌ وَلَمْ يَفْرِضْهَا وَلَدٌ".

فَرَفَعَ عُودًا مِنَ الْأَرْضِ ثُمَّ قَالَ: "يَا مَعْشَرَ الْحَبَشَةِ وَالْقِسِّيسِينَ وَالرُّهْبَانِ، وَاللَّهِ مَا يَزِيدُونَ عَلَى الذي نقُول فِيهِ مَا سوى هَذَا، مَرْحَبًا بِكُمْ وَبِمَنْ جِئْتُمْ مِنْ عِنْدِهِ، أَشْهَدُ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ وَأَنَّهُ الَّذِي نَجِدُ فِي الْإِنْجِيلِ، وَأَنَّهُ الرَّسُولُ الَّذِي بَشَّرَ بِهِ عِيسَى ابن مَرْيَمَ، انْزِلُوا حَيْثُ شِئْتُمْ، وَاللَّهِ لَوْلَا مَا أَنَا فِيهِ مِنَ الْمُلْكِ لَأَتَيْتُهُ حَتَّى أَكُونَ أَنا الذي أحمل نَعْلَيْه!".

وَأَمَرَ بِهَدِيَّةِ الْآخَرَيْنِ فَرُدَّتْ إِلَيْهِمَا).




8
حصار الشعب
كم هو شاهق، أن
تظلّ مؤمنا وعواء
الجوع يوقظ صوت
الشكّ في يقينك
الصامت!

محمد وصحبه في شِعب أبي طالب يتقاسَمون الانتظارَ جَوعى.

هناك في زاوية مهمَلة وعلى هامش النسيان وملح الدموع ينسكب حريق في الحلوق اليابسة، كانت قريش حينها على سفوح السراب تحاول حصار البحر، إذ (لما رأت قريش أمر رسول الله يعلو أجمعوا بكل قبائلهم أن يتعاقدوا على بني هاشم وبني المطلب وبني عبد مناف ألا يبايعوهم ولا يناكحوهم ولا يكلموهم ولا يجالسوهم حتى يسلموا إليهم رسول الله ﷺ فانحازت بنو هاشم وبنو المطلب مؤمنهم وكافرهم إلى رسول الله، إلا أبا لهب، فإنه ظاهر قريشًا على رسول الله ﷺ وبني هاشم وبني المطلب، وحبس رسول الله ﷺ ومن معه في شعب أبي طالب ليلة هلال المحرم سنة سبع من البعثة، وبقوا محصورين مضيقًا عليهم مقطوعًا عنهم الميرة نحو ثلاث سنين حتى بلغ بهم الجهد).

فلو رأيتَه في الشعب وليس في رِفقته إلا اليقين..

لو رأيتَه، والألم يُلقي على الصَّحب ما ألقَى، فلا يَستثني مِنهم ولا يبقي..

لو رأيتَه، ابتهالًا وصلاةً وتسبيحًا، وما في قلبه لا يَرويه مُسندٌ عَن مُسند..

ما في قلبِه، لا ترويه الصُّحف، فقد كان للهِ، وباللهِ متَّصلًا.

كان سُنبُلَةً وكان الحِصار قيَظًا عابرًا، كان صابرًا كأنَّه صَبرُ ملَّاحٍ على أعماقِ الصَّدَف.

لم يخشَ على الصحابة الجُوع.

كان يخشَى اليأس، فاليأسُ أشدُّ وجعًا!

ينظرون إليه في جوعهم، فَيلتقطون ومضةَ عينيه ويبصِرون، وممَّا جرى يَرون ما سَيجري، فيهمِسون: "يا آخِر الشِّعب، سنَنجو!".

(وذلك أنَّ قُريشًا وكِنانةَ، تحالفتْ على بني هاشمٍ وبني عبدِ المُطَّلبِ، أو بني المُطَّلبِ: أنْ لا يُناكِحوهُم ولا يُبايِعوهُم، حتَّى يُسلِموا إليهِمُ النَّبيَّ ﷺ فدخلوا الشِّعْبَ جميعًا مُسلِمهُم وكافِرهُم، وأجمعَ المشركون أمرَهُم على أنْ لا يُجالِسوهُم، ولا يُخالِطوهُم، ولا يُبايِعوهُم، ولا يَدخُلوا بُيوتَهم، حتَّى يُسلِموا رسولَ الله للقتلِ، ثم أعلنت قريش هذه الوثيقة وعلقتها على جدار الكعبة)!

وفي أنينِ الجوعِ، كان العَزاء أنْ لا عَزاء، كان العَزاءُ الجنَّة، فقد كان الألم شاسِعًا جدًّا، ولا تَحتمل الحياةُ عِوض ما جرى لحفنةِ النُّور الأخيرة للبشرية.

يَطوفون بالطمأنينة، ويَشتهون معها قطعةَ خُبزٍ طريَّة!

كم هو شاهق، أن تظلَّ مؤمنًا وعواء الجوعِ يوقِظ صوت الشكِّ في يقينك الصامت!

موحشةٌ الأواني في فَراغها، كم تُعاني وتعاني..

كم مرَّة يموتُ الصابرون .. يَتشاركون في الثبات إلا الألم، فإنَّه نبضُ صاحبه!

ومن بعيد تَلوح خديجة في الأعيُن الشاحِبة، مزدحمةٌ بالنور، تتهادى في غلالةِ حزنٍ جليل.

تسيرُ فيخلو الطريق إلَّا مِن شَذاها.

تَحمِلُ في يدها حبَّات عِنَب ترتِق بها بعض أوجاعهم.

يراها النَّبي ﷺ وقد جاءَته كاملة، جاءَته كلُّها ولم تترك منها شيئًا، لم تترك للدنيا مِن دنياها شيئًا.

فيقول لها قلبه ما لا يُقال...

كانت سيِّدةً فوق الخيال، قد تمَّ معناها، ومَن إلى ذرى معناها يرقى؟

حبيبةٌ كأنَّها خُلِقت بلا شبيه، بل كأنَّها بلغَت في المُنتهى منتهاها.

تراهُ، فيلتقط قلبُها حنينَ قلبه، وما كَفاهُ كفاها، بل مَن رآهُ رآها.

فقد كانت مأواهُ ورُوحه، وكانت لا تُريد سواه.

لم يكن بَينه وبينها فراغٌ يتَّسع لسواها.

ودومًا، لا يَصِلُ إليك إلا مَن يَحمل في روحه شبهًا مِن روحك!

تجيءُ فيمضي الظَّمأ، وتبقى فيمضي الزَّوال.

ها هي خديجةُ التي لا شكَّ فيها، ها هي غارقة في التَّعب ووجهها وجهُ المطَر.

ها هي خَطوة خطوة، وفي يدها صحنُ اليقين، وكلُّ لقمةٍ تكفي اثنين، وثلاثة، وربَّما عشرة، وكلُّ لاءٍ جَعلَتها نَعم.

شيءٌ مِن الخبز يكفي كي لا يَطير الجوع بالألباب..

تُضمِّد الطريق للأقدام التي تركت خلفها خيطًا من الدموع.

وتنزِع من الطريق جُذور الضَّباب، فيغيبُ الحصار، وتَسلم الكلمات، ويُصبح الحزن آخرَ الأشياء.

تتقصَّف تحت قدميها أوراق عذاب يابِس.

يا أمّنا .. سيَذكُرك الجَوعى، ويَذكُرك اللَّيْلُ، سَيذكُرك الغَيب..

امرأةٌ شُفيت مِن الدنيا، وعيناها بلا حُجُب..

تَمُــرُّ الملائكة على رائحة الجوع فتشمُّ مِسك الخُلود.

في الحِصار، لا صوت للأبواب، لا صوتَ لغيرِ التَّوحيد مِن أقصى العذاب، (أحَــدٌ... أحَــد) رغم حريقِ الجوع!

تُمزِّق قريش الأجساد وتَكتب بالرَّماد أسماء مَن احترقوا، وفي كلِّ يوم تشدُّ الصحراء عليهم حصارًا وتُقاتلهم الجاهلية على ما خَفق من بالي الرايات، والصُّحبُ يحتضنون الرَّاية مِن منفى لِـمَنفى...

يفترشون بقاياهم، كي تعبُر الأمَّة.

(لكن وبعد قدر من الابتلاء أَطلعَ الله رسولَه ﷺ على أمرِ الصَّحيفةِ، وأنَّه أرسلَ عليها الأَرَضَةَ، فأكلتْ جميعَ ما فيها من جَورٍ وقَطيعةٍ وظُلمٍ إلا ذكرَ الله -عزَّ وجلَّ-، فأَخبر بذلك عِمَّه، فخرج إلى قُريشٍ فأخبرهم أنَّ ابنَ أخيهِ قد قال كذا وكذا، فإنْ كان كاذبًا خَلَّيْنا بينكم وبينه، وإنْ كان صادقًا رجعتُم عن قطيعتِنا وظُلمِنا. قالوا: "قد أنصفتَ". وبعد أنْ دار الكلامُ بين القومِ وبين أبي جهلٍ، قام المُطعم إلى الصَّحيفةِ لِيَشُقَّها، فوجد الأَرَضَةَ قد أكلتْها إلَّا (باسمِك اللَّهمَّ)، وما كان فيها مِن اسمِ الله فإنَّها لم تأكلْهُ. ثم نقضَ الصَّحيفةَ وخرج رسولُ الله ﷺ ومَن معه مِنَ الشِّعبِ).

الكثير من الجوع كان خيرًا من انحناء لحياة لا تكتمل، حياة تنجب خطى للوراء وللوراء فقط!

في بني إسرائيل كان سِفر الخُروج، ومُحَمَّدٌ وَصَحْبُه سطَّروا سِفر العُروج!

يَقبضون على الآتي، وينفون الحزن عن عُمر الأمة.

وبين الصمت والسكون، كانت غيمةٌ من بكاء المُتعَبين تَصنع الغَيث.

وسِـــرُّ السِّـــر في نصِّ الثَّبات! ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ [سورة الإنسان: 24]، وقد صبر!

وفي الصحيح (أَنَّ قُرَيْشًا لَمَّا اسْتَعْصَتْ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ دَعَا عَلَيْهِمْ بِسِنِينَ كَسِنِينَ يُوسُفَ، فَأَصَابَهُمْ قَحْطٌ وَجَهْدٌ، حَتَّى جَعَلَ الرَّجُلُ يَنْظُرُ إِلَى السَّمَاءِ فَيَرَى بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا كَهَيْئَةِ الدُّخَانِ مِنَ الْجَهْدِ، وَحَتَّى أَكَلُوا الْعِظَامَ، فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ رَجُلٌ فَقَالَ: "يَا رَسُولَ اللهِ اسْتَغْفِرِ اللهَ لِمُضَرَ، فَإِنَّهُمْ قَدْ هَلَكُوا"، فَقَالَ: "لِمُضَرَ! إِنَّكَ لَجَرِيءٌ"، قَالَ: فَدَعَا اللهَ لَهُمْ، فَأَنْزَلَ اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾ [سورة الدخان: 15] قَالَ: فَمُطِرُوا، فَلَمَّا أَصَابَتْهُمُ الرَّفَاهِيَةُ، قَالَ: "عَادُوا إِلَى مَا كَانُوا عَلَيْهِ"، قَالَ: فَأَنْزَلَ اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [سورة الدخان] ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾﴾ [سورة الدخان] قَالَ: يَعْنِي يَوْمَ بَدْرٍ).

تلك سنون نالت من جسد النبي كثيرًا!


9
نبيٌّ مشى
في أوجاعه
إلى الطائف كي
لا تطول علينا
الطّريق!

يُهَاجِر الصَّحْب إلَى الْحَبَشَة، وما زال فِي مَكَّة بَقِيَّة فِي الْعَذَابِ، يُسْرِج النبي عزمه، ويَمْضِي إلَى الطَّائِفِ وحيدًا مع زيد بن حارثة عَسَى فِيهَا مَا يَشَاء.

(حيث توجه النبي إلى الطائف في شوال سنة عشرة من النبوة، وهي تبعد عن مكة نحو ستين ميلًا، سارها ماشيًا على قدميه جيئة وذهابًا)!

ها أنت وحيد في مهمة الطريق تَصْبِر عَلَى جِدَارٍ يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ، فتقيمه.

وَحْدَك تَرَى الكَنْز ويُتمًا يحتاج إلى يَديك، وَحْدَك ترْبط النِّطَاق عَلَى أَلَمِك وتُسَافِر فِي الدُّهُور.

يصل مشارفهم فَيَبْدُو الْهَوَاء ثَقِيلًا، وَالْبُيُوت كأصحابها، يَسْمَعُه صناديد الطائف، ثم ماذا؟ ثم يَمْضِي الرَّمَاد إلَى الرَّمَاد وينطفئون، ما أقسى أن ترى الوجوه كلها كالعرجون القديم! غَرِيبٌ فِيهِم وَهُمْ غُرَبَاء عَنْك.

يتغامزون ويَسْخَرون وبعد نجوى آثمة تنهال صِبْيَانهُم عَلَى النَّبِيِّ ﷺ بِالْحِجَارَة.

(وقف أهل الطائف صفين على طريقه، فلما قفل عائدًا إلى مكة جعلوا لا يرفع رِجليه إلا رضخوهما بالحجارة حتى أدمَوْه)، تَسِيل دماؤه، ويُبْصِر مَا لَا يُبْصِرُون، ألا سَاءَ مَا يَفْعَلُون!

ينْزف حُزْنك لِأَجْلِ أَنْ نَكُونَ فِي قَامَة أُمة.

تقيس الْمَلَائِكَة المَسَافَات بالشهقة وَالْأَنِين، وتمَهِّد لَك السماء معراجًا.

هَذَا الْوَجَع فِي ظَاهِرِه الْحُزْن وفِي بَاطِنِه نعيمٌ مكنون.

لَكِن لا شَيء يا محمد قَبْلَ أَوَانِه.

لا شَيء قَبْلَ أَوَانِهِ!

نبي مَشَى فِي أَوْجَاعِه كَيْ لَا يطُول عَلَيْنَا الطَّرِيق، تَتَسَاقَط الْوَحْشَة عَلَى حَافَّةِ النِّهَايَة، تَتَوَالَى الخطُوَات الْهَارِبَة.

ترتطم الْحِجَارَة بِجَسَدِه، تُحَاوِل أَنْ تهْدمَ يَقِينه.

يُلاحِقُه السُّفَهَاء بِكَلِمَات، مِثْل شَظَايَا مَكْسُورَة، تَزِيد نزيفه، يحميه زيد بجسده الغض بما يطيق وما لا يطيق!

تَتَّسِع لَه صَخْرَة، فَيَمِيل عَلَيْهَا بِأَقْصَى التَّعَب، وينغمس فِي الدُّعَاء، وَفِي الْعَيْنِ دَمْعٌ تفتديه المَلَائِك!

ولَحْظَةَ بَعْدَ أُخْرَى، كَانَ الْمَكَانُ يفيض بِالْمَشَقَّة، وَكَانَ الْوَقْتُ لَا يَتَّسِعُ، إِلَّا لِلدُّعَاء!

كَانَتْ مَكَّة، وَالطَّائِف، وحِصَار الشِّعْب، ومَوْت خَدِيجَة تحتشد فِي صمْت النَّبِيِّ ﷺ، وَكَان الْأَلَم كَثِيفًا!

يَا رَجْفَة الشَّوْق فِي الرُّوحِ التِي تَشَكي (إِنْ لَمْ يَكُنْ بِك عَلَيَّ غَضب فَلَا أُبَالِي).

و(أُسْطورَة الثَّبَات، أَنْ يَتَنَزَّهَ الْحَبُّ عَنْ الشَّكِّ).

وفِي عُمْقِ الْأَلَم كُنْت أُسْطورَة فِي جَلَالِ الذِّكر (لَك الْعُتْبَى حَتَّى تَرْضَى).

يتكئ عَلَى الدُّعَاءِ، يناجيك سبحانك مُسْتَغْرِقًا فِيك، مُسْتَوْحِشًا عَمَّا سِوَاك..

وحاله، أَنَا لَك، مِنْكَ وبِك وَإِلَيْك.

منْ بَدء إِلَى أَبَد، ومن ضَعْفِي إِلَى كُلِّك، ومن كُلِّي إِلَى سَعَتِك..

ولوجهك أُسَافِر، فَيَبْدَأ الْمِيلَاد.

وَلَك الذَّهَابُ، إِلَيْك دُونَ غِيَاب!

(إِلَيْكَ أَشْكُو ضَعْفَ قُوَّتِي، وَقِلَّةَ حِيلَتِي، وهواني عَلَى النَّاس).

(يَا رَب، عَافِيَتَك أَوْسَع لِي).

(أَعُوذ بِنُورِ وَجْهِكَ الذِي أَشْرَقَت لَه السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْض، يا رب أناديك بظمأ الانتظار وَأَخْشَى، أَنْ يَحِلَّ عَلِيَّ غَضَبك!).

ثَمَّة خطى هُنَا، حَصَادُهَا سِدْرَة الْمُنْتَهَى!

(اللَّهُم يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ، أَنْتَ رَبُّ الْمُسْتَضْعَفِين، وَأَنْتَ رَبِّي، إِلَى مَنْ تَكِلُنِي، إِلَى بَعِيدٍ يتجهَّمني، أَو إِلَى عدو مَلكته أمْري، إنْ لَمْ يَكُنْ بِكِ عليَّ غَضب فَلَا أُبَالِي، أَعُوذ بِنُورِ وَجْهِكَ الَّذِي أَشْرَقَت لَه الظُّلُمَات، وَصَلُح عَلَيْهِ أَمْرُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَة، مِنْ أَن تنزلَ بِي غَضبك، أَو تَحُلَّ عليَّ سَخَطك، لَك الْعُقْبَى حَتَّى تَرْضَى، لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بك)!

يا لفرط حُزْن جبْرَائِيل إذ يَهْمِس الشَّوْك: "حَنَانَيْك لَا تُدمي بِنَا الأقدام!".

وَفِي مُنَاجَاة النبي ﷺ مَعْنَى فَوْق الْمَعْنَى، فَهُنَا بُرْهَان بَشَرِيَّتِه، وحَسب الْأُمَّة أن تَفْهَمَ، أَنَّ نبيها كَانَ فِي الْحَيَاةِ بَشَرًا وما كان فِيهَا ملكًا، وَلَكِن ترابَها لَمْ يُجَاوِزْ قدَمَيْه.

يا لله، نحن فِي هُنَيْهَة مِن قَضْم الْأَلَم، يراودنا السُّؤَال: أَكَان عَلَيَّ أَنْ أَسْعَى مِنْ حُزْنٍ إِلَى حُزْن؟

يهبنا اللَّهُ دُعَاء النَّبِيِّ ﷺ، نتوحد بِه، ونردد مِنْ خَلفِه: "وَلَكِن عَافِيَتك أَوْسَع لِي!".

حَبِيبِي يَا رَسُولَ اللَّهِ، عَلَّمْتَنَا أَدَب الْمُعَانَاة!

ودومًا ستبقى الرِّحْلَة مَلأَى بالأسئلة التي لَا يَتَّسِعُ الْعَقْل لِفَهْمِهَا.

(إنْ لَمْ يَكُنْ بِك عَلَيَّ غَضَب) أوليْس هَذَا بَعْض قلقنا؟ بَعْض سُؤَالِنَا؟

هَلْ أَنَا يَا رَبِّ عَلَى هَامِشِ الحبِّ؟! ولكأننا نسمع نبضنا في كل كلمة.

وفِي لَحْظَةِ مِن الْوَجَعِ يُصْبِح جَمْر الثَّبَات منهكًا، وَيَبْدُو الثَّبَات نَصًّا ملحميًّا.

دومًا فِي كُلِّ اخْتِبَار يُتَوَسَّل الْإِيمَان:

نَعُوذُ بِكَ يَا رَب مِنْ مَوَاسِمِ اليأس، يَا مُمْسِك الْقَلْب، هَذَا البَوْح مِنْ وَجَع.

(إِنْ لَمْ يَكُنْ بِكِ عَلَيَّ غَضَب).

لا شَيء أقْسَى علينا مِن زَمَنٍ تَتِيه فِي الإِجابات، لا شَيء أقْسَى مِنَ قَفر كُلِّ الإِجابات فِيه: لَا أَدْرِي!

أما في نَفْسِ النَّبِيِّ ﷺ لا شَيْء أقْسَى مِن فَقْد صَوْت خَدِيجَة فِي هذه اللحَظَات: "لَن يضيِّعك اللَّهُ أَبَدًا".

لاَ شَيْء أقْسَى مِنَ أَن تتوحش الْغُرْبَة إِلَى هَذَا الْحَدِّ!

تتجهم الطَّائِف بِكُلِّ وعورَتهَا، كَانَت الطَّائِف مِثْل سَيِّئَة رَاسِخَة فِي شَوْك الزَّقُّوم!

يَتَسَاقَط مَطَر شَحِيح وتبدو الظِّلَال هشة، وتتأرجح دَمْعة مَلِيئَة بشجن خَفِي!

تهَاجر دَمْعة إِلَى السَّمَاء، وَعَلَى أعتاب الْعَرْش يَشْتَدُّ النِّدَاء، يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِين، أَنْتَ رَبُّ الْمُسْتَضْعَفِين، وَأَنْتَ رَبِّي، إِلَى مَنْ تَكِلُنِي، إِلَى بعِيدٍ يتجهَّمني، أَو إِلَى عدوٍّ مَلَّكته أمْرِي!

تسأله عائشة رضي الله عنها ذات يوم: "يَا رَسولَ اللهِ، هلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كانَ أَشَدَّ مِن يَومِ أُحُدٍ؟"، فَقالَ: "لَقَدْ لَقِيتُ مِن قَوْمِكِ وَكانَ أَشَدَّ ما لَقِيتُ منهمْ يَومَ العَقَبَةِ، إذْ عَرَضْتُ نَفْسِي علَى ابْنِ عبدِ يَالِيلَ بنِ عبدِ كُلَالٍ فَلَمْ يُجِبْنِي إلى ما أَرَدْتُ، فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ علَى وَجْهِي، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إلَّا بقَرْنِ الثَّعَالِبِ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا أَنَا بسَحَابَةٍ قدْ أَظَلَّتْنِي فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ، فَنَادَانِي، فَقالَ: "إنَّ اللَّهَ -عَزَّ وَجلَّ- قدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَما رُدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إلَيْكَ مَلَكَ الجِبَالِ لِتَأْمُرَه بما شِئْتَ فيهم"، قالَ: فَنَادَانِي مَلَكُ الجِبَالِ وَسَلَّمَ عَلَيَّ، ثُمَّ قالَ: "يا مُحَمَّدُ، إنَّ اللَّهَ قدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَأَنَا مَلَكُ الجِبَالِ وَقَدْ بَعَثَنِي رَبُّكَ إلَيْكَ لِتَأْمُرَنِي بأَمْرِكَ، فَما شِئْتَ، إنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عليهمُ الأخْشَبَيْنِ"، فَقالَ له رَسولُ اللهِ ﷺ: "بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِن أَصْلَابِهِمْ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لا يُشْرِكُ به شيئًا".

حَبِيبِي يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنْتَ نَبِيُّ الْجراح كُلِّها، أَنْتَ نَبِي يُؤَرِّخ عمرهُ بالآلام!

يتوسل إلى الله "وَلَكِن عَافِيَتَك هِي أَوْسَع لي".

يَنْتَصِب فِي الدعاء وَيَكْتُب الْعُمْر صَلَاةً تَامَّةً عَلَى سجَّادَة الثَّبَات.

"لَك الْعُتْبَى حَتَّى تَرْضَى، لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِك!".

ما أطيب المعنى، حَنَانَيْكَ إن ضَاقَتْ بِنَا السُّبُل، فَالْقَلْب إِلَيْك مُرْتَحِل!

نبي يُسَابِق وفِي يَدِهِ قَبْضة وَعد، وما يكون في علم الله قَدْ كَانَ!

وَفِي شَظَف الْمَشَقَّة تُضِيء لَنَا قَمَرًا مُنِيرًا، وَمَن جَذْب الْقُلُوب، تُكْتَب لَنَا الرَّبِيع.

وفِي عَيْنِ اللَّهِ، مَا ثَمَّ إِلَّا أَنْتَ.

طُوبَى لَك، طُوبَى لِمَنْ جَعَلَ الْعُمْر لِلَّه قُرْبَانًا، وَكَتَب أَيَّامنَا.

مِنْ بَعْدِك، نَحْن نبحث عَنْ سِيرَةٍ ذَاتِيَّة لخطانا!

عَنْ سِيرَةٍ ذَاتِيَّة، لصدى أَقْدَامِنَا، عَنْ آثَارٍ تُقَدِّس أسماءنا فِي الْمَلأَ الْأَعْلَى.

عَنْ ثِيَابٍ تُصْبِح آيَة فِي تَارِيخِ الذِّكر، عَن عباءَةٍ تتدثر بِهَا الْأُمَّة إِذْ اشْتَدَّ الصَّقِيع حَوْلَهَا، وأَنَّى اقْتَرَبْنَا إِلَيْك، لَا نَصِلُ.

يا مُحَمَّدُ، إِنَّ اللَّهَ قدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَأَنَا مَلَكُ الجِبَالِ وَقَدْ بَعَثَنِي رَبُّكَ إِلَيْكَ لِتَأْمُرَنِي بِأَمْرِكَ، فَما شِئْتَ، إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عليهمُ الأخْشَبَيْنِ. قُل ما تشاء، فَلَا يَشَاء مُحَمَّدٌ إِلَّا مَا اللَّهُ يَشَاء، عَسَى أَنْ يَخْرجَ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يُوَحِّدُ اللَّه!

قَد اخْتَرْت مَا أراد الله، وَمَا شَاءَ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ.

خلَعَ النَّبِيُّ ﷺ ذاته، أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِن أَصْلَابِهِمْ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ!

مَا أَشَدَّ اخْتِبَار النُّبُوَّة، إذ عَلَيْهَا الْبَلَاغ، وَعَلَى اللَّهِ النَّتَائِج.

يَتَنَزَّل مَلَكُ الْجِبَالِ، وتَفِيء إِلَيْك مُشْرِق الْأَقْدَار وَمَغْرِبهَا: إِنْ شِئْت أَطْبَقْتُ عَلَيْهِمْ الْجبَلَيْن!

· يَخِرُّ قَلْبُهُ بَيْنَ يَدَي اللَّهِ، ويَلْهَج الْقَلْب بِأَلْف لَا، حَنَانَيْك لَا تَعْجَلْ عَلَيْهِم، لَا تُعَذِّبهُمْ، لَا تنتقم مِنْهُم، (بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِن أَصْلَابِهِمْ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ)!

ترتجف السَّمَاء وَيَشْهَد الْأَنْبِيَاء: أَنْ مُحَمَّدًا كَانَ أَمِينًا عَلَى الْأُمَّة.



خَلَع حَظَّه وارتدى عَبَاءَة الرِّسَالَة، وَتَسَامَى عَنْ نَفْسِه..

كَانَ مُحَمَّدٌ يشبهنا فِي بَشَرِيَّتِه، وَيَنْفَرِد عَنَّا فِي صِفَاتِهِ!

وكُلُّ ما كانت تَعْجز عَنْه الْإِنْسَانِيَّة كَانَت تَبْدَأ مِنْه النُّبُوَّة!

لَمْ يَكُنْ النَّبِيُّ ﷺ يَزِيدُ فِي مُدَّةِ الْحَيَاةِ، وَلَكِنَّهُ كَانَ يَزِيدُ فِي مَعَانِيهَا!

كَانَ يكبرُ حَتَّى اتَّسَعَ لِحَقِيقَة: الله أكبر.

نَبِيٌّ، مَا ذَاقَ طَعْمَ نَفْسِه، فَتَرَك معَارِك الْحَيَاة وثاراتها، وَانْتَصَر لِلَّه!

يَرَى «عَدَّاس» نَبِيًّا عَلَيْه وَقَار رُوحه.

مِن الْبُعْدِ الْبَعِيد يلوح "عَدَّاس"، فَيَصِير الْمَكَان حَدِيقَة، وتَبْتَلُّ الْفَرَاشَات بندى طَفِيف، وَتَمر غَيْمة، ويَسْمَع الْحَبِيب تراتيل الْمَطَر!

ترتبك الْوُرُود، وَهِي تنتشي بِمِسْك الْحَبِيب.

تَفُوح الطُّمَأْنِينَة، وَتربت عَلَى رُوح النَّبِيِّ ﷺ فِي الْوحدَةِ الشَّاسِعَة، يَغْسِل «عَدّاس» قطْف عِنَب، وَيَتَقَدَّم نَحْو النَّبِيِّ..

هذِه التَّفَاصِيل الصَّغِيرَة كَانَت تَكْفِي كَي يَنْجُو كُلُّ شَيءٍ!

فِي الْمَكَانِ تَنْهِيدَةٌ عَمِيقَةٌ تَتَفَتَّح السَّكِينَة بِهَا فِي آنِيَةِ الرُّوح، كَأَن غاشِيَة مِن الْوَحْيِ تُسَبِّح الْمَلَائِكَةُ فِي جلَالها!

يَكَاد يَرْتَفِع الْحِجَاب وَيَرَى مُحَمَّدٌ بِعَيْنِ قَلْبِهِ وَصْلًا لَا يَتَنَاهَى.

وما بعد الْوَصْل إِلَّا الْوَصْل، ما مضى زَمَن جَزر، وَقَد عاودت الْأَقْدَار مَدَّهَا.

تنهمر الْبَسْمَلَة مِنْ شَفَتَي النَّبِيِّ ﷺ، فَيَقْرَأ «عَدَّاس» السِّر، وترتجف أضلعه مِن الشَّوْق.

يهرع قَلْبه: "مِنْ أَيْنَ لَكَ هَذَا الْكَلَام؟ مِن مَتَى؟".

يَردُ عَلَيْه: "مِنْ قَرْيَة أَخِي يُونُس بْن مَتَّى!".

يَجْتَاز «عَدَّاس» الْحُدُود، وفِي مُقْلَتَيْه يَرَى كُلَّ الطُّرُق تُفْضِي إِلَى النُّبُوَّة!

تصحو النُّجُوم وَيَنْتَهِي الْكُفْر إِلَى غيَابة النِّسْيَان، وَيَتَنَاوَل النَّبِيُّ ﷺ الْعِنَب وفِي يَدِهِ الْمَدَى!

يَنْكَبُّ «عَدَّاس» مُقبِلًا، ويَدْنُو عَلَى وجلٍ، ويَكَاد يشَمُّ رِيح يُونُس.

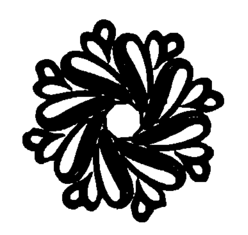
فيا لهف الْقَلْب إِذْ رَأَى مَا رَأَى! هُنَا منتهاك، وكُلُّك الْمَنْسِيُّ مِنْك.

وَمَا كَانَ مَا كَانَ إِلَّا سرب الضَّوْضَاء، فَانْفض غُبَاره عنك.

يَنْتَبِه صِنْدِيد مِن الطَّائِفِ فَيخْشَى لِلنُّور أَنْ يَتَسَلَّلَ إِلَى الْحُصُون الْمُغْلَقَة، يَصْرُخُ فِي غُلَامِهِ «عَدَّاس» فَيَمْضِي عَائِدًا إِلَيْه بِغَيْرِ الرُّوح الَّتِي خَرَجَ بِهَا!

(فدعَوا غلامًا لهُما نصرانيًّا، يدعى عدَّاسًا وقال لهُ: "خُذ قِطفًا منَ العنَبِ، واذهب بهِ إلى الرَّجلِ"، فلمَّا وضعَهُ بينَ يدَي رسولِ اللَّهِ ﷺ مدَّ يدَهُ إليه قائلًا: "باسمِ اللَّهِ" ثمَّ أكلَ. فقال عدَّاسُ: "إنَّ هذا الكلامَ ما يقولُهُ أَهْلُ هذِهِ البلدةِ"، قال لهُ النَّبيُّ: "مِن أيِّ البلادِ أنتَ؟"، قال: "أَنا نصرانيٌّ من نينَوى"، فقالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ: "أمن قريةِ الرَّجلِ الصَّالحِ يونسَ بنِ متَّى؟"، قال لهُ: "وما يُدريكَ ما يونسُ؟"، قال رسولُ اللَّهِ ﷺ: "ذلكَ أخي، كانَ نبيًّا وأنا نبيٌّ". فأكَبَّ عدَّاسٌ علَى يدَي رسولِ اللَّهِ ﷺ ورجليهِ يقبِّلُهُما).

حَسْبُكَ يَا مُحَمَّدُ أنك سعيت وأَنَّ النُّورَ تَسَلَّل بِخفيَة وَاسْتَقَرَّ هُنَاك، وينتظرك فِي غَزْوَةِ حُنَين، كَي تشْرع لَهُ الْأَبْوَاب!





10

الإسراء ووعد التمكين، وعلى أجنحة الوعد يطير به البراق

عام الحزن، إذ ماتت خديجة الحبيبة ومات أبو طالب النصير وزادت الوحدة اتساعًا، فكان الإسراء واستحق البدء بـ {سُبْحَانَ} بصيغةِ اسم المَصدر التي تُنبئ عن اكتمالِ الفِعل بما يليقُ باكتمالِ الحَدث، فهو ليسَ فعلًا ماضيًا {سبَّحَ}، ولا مُضارعًا {يُسبِّح}، بلْ باسم مَصدر الأفعالِ كلِّها، وكل ما بَعد هذا التعبير سيؤرَّخ بِـسُبحـان الله!

قال رسول الله: "فُرِجَ عن سَقْفِ بَيْتي وأَنَا بمَكَّةَ، فَنَزَلَ جِبْرِيلُ ﷺ فَفَرَجَ صَدْرِي، ثُمَّ غَسَلَهُ بمَاءِ زَمْزَمَ، ثُمَّ جَاءَ بطَسْتٍ مِن ذَهَبٍ مُمْتَلِئٍ حِكْمَةً وإيمَانًا، فأفْرَغَهُ في صَدْرِي، ثُمَّ أطْبَقَهُ، ثُمَّ أخَذَ بيَدِي، وكان الإسراء"!

يُقَدِّم القُـرآن المَرحلةَ الأولـى والأخـيرة مِن مَشهد الصِّراع كلِّه، ويجيء بنا إلى خاتمةٍ، وما بينهما، هو سُـنن الزَّوال وسُنـن البَـقاء.

سبحان الله القادر على فعل المعجزة إذا شاء لمن شاء ممن يستحق أن تسخر له الأسباب وتخرق له الظواهر والعوائد في الأحوال.

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ﴾ [سورة الإسراء: 1] يُطوى الكَون حتى كَـأنَّ الأرض شبِـر في خطوةِ البُـراق، إذْ يُعبِّـر القرآن عن الرِّحلة بمفردةٍ تختزلُ المعاني.

هنـا وَعْد التَّمكين..

وعلى أجنحةِ الوَعـــد يطيرُ بــه البُــراق..

وهُــنا الفارِق الزَّمنــي بيــن السابق واللاحِق!

{أسرى}، بألف مَمدودة، ونهايةٍ مَفتوحة، فالفِعلُ فوقَ المَسافة، وفوق التوقّع، وفوق الخَـيال.

تـخشعُ اللغة مِن رهبة المَعنى، كلــمات مِلؤهــا المَـددا!

أسَرى، فشَــاخَ وجهُ الشِّــرك إذْ مــا بعدَ الإســـراء لــنْ يكونَ كما كَــان، وما كــانَ بعده إلا رحلة الهِــجرة.

وكان ذلك أول اقترابٍ مِن الأقصَــى!

الشَّاهد هُنا هُو اللهُ، والمَشهود هُو الإسْراء، والكَــشف {لِنُرِيَه}، والمُنكِرونَ لهم سؤال الحِــيرة.

يَــا مُحمّــد، مَــن أوصلَــك!

{بعبده} يَمُــدّ له بِســاط القُــرب، فإذا للخَطو صدى في سِــدرة المُــنــتهى! وبها وصلَ شاهِــق الغَــيب.

فكَــانَ قــابَ صَريــر أقلام الوحــي مُنفردًا!

مُفردةٌ تُــفتَح بها أقفالُ الفَــهم، كأنَّــها نُــونٌ تَسبقها الكَــاف، كُــن عبدًا، يَكُــن لَــك مَــا تشَــاء!

هي العُبوديةُ إذن، بسملةُ العُبور للأقصَى، وبَسملةُ العبُور للمُنتهى!

مُــفردةٌ، تَشُقُّ قميصَ أوهامِــنا، وتُعلنها: لا إســـراءَ ولا مَــسرى من دونِ عُــبوديتنا!

{بعَبدِه}، التعبيرُ صارِمٌ في مَعناه وفي مَــغــزاه.

اركَب بُراقك بالعُبودية نحو المسرى، تَنشَقُّ لك السمَاواتُ مِعراجًا، صَوِّب عينكَ نحو المُستحيل، فاللهُ لا يُعجِزه مَا يُعجِزك إن كنت عبدًا!

وهُنــا، كَــان سِــرُّ مُحمَّد ﷺ الذي لمسَ بــه الغَيب!

لقَد كانت الآيَة الأولى مِن سورة الإسراء، تَرفعنا عَن عالَم الأسباب.

وبقية السُّورة توقِفنا على عالَــم الأسبَــاب، ولا تناقُض في الأمــرين.

والعلاقَة بينهما هي معنى: {اضْــرِب بِــعَصاك البحــر يَنفلقُ}!

أنتَ مأمــورٌ بِسُنن الأسبَــاب، ولِلهِ مَــا فوقَ الأسبابِ مِن عُــلُــو التَّــدبير، وعلى قَــدر اليَقيــن والسعي جَــاءَ البُــراق!

{لَيْلًا} والليل مَظنَّة التِّيه والعَتمة والخَوف، لكن الله يقول: {لِنُريَه}، فيَشرِق الغَيب بَياضًا لا عَتمة فيه!

{ليلًا} ينسَابُ دفءٌ سمَاوي في ساحةِ الكَعبة، وتُفتحُ بوابةٌ ويَرى مُحمد ما لا يُرى!

يُفضي بِه البُراق إلى رحلةٍ هي خُطوط القَدر الآتِي!

"أُتيتُ بالبُراقِ، وهو دابَّةٌ أبيضُ طويلٌ، فوق الحمارِ، ودونَ البغلِ، يضعُ حافِرَه عند مُنتهَى طرْفِه، فركبتُه، حتى أتيتُ بيتَ المقدسِ، فربطتُه بالحلْقة التي تَربِطُ بها الأنبياءُ، ثم دخلتُ المسجدَ، فصليتُ فيه ركعتَينِ، ثم خرجتُ، فجاءني جبريلُ بإناءٍ من خمرٍ، وإناءٍ من لبنٍ، فاخترتُ اللبنَ، فقال جبريلُ: اخترت الفطرةَ".

{لِنُرِيَهُ}، الرؤيةُ رغم الليل، بِنونِ العَظمةِ كلها، يشتعلُ الأفُق نُورًا، وتَنبتُ عَناقيد الضوء في خُطى البُراق، وينكشفُ للنَّبيِّ مَا لا نَعلَم!

{مِنْ آيَاتِنَا}، وليسَ كلها، فَما زال في الغَيْب الكثير، وهو نوعٌ مِن البشارة المَطويَّة!

{إِنَّهُ هُو السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} يا لدعاء الطائف ما أعظمه!

كانت قُريش حينها تَنغمسُ في سُباتٍ عَميق، تتوسد الخرافة وتَنامُ علَيها، وتَبدو الجِهات كلها مُفلِسة!

ويكَادُ يَسيل اليَأسُ مِن أجسادِ المُؤمنين عَرقًا، فيأتي جبريلُ في ليلِ الصحراء لِيُعلِّمنا:

أنّ الواقِع البائِس، لا يَسلُب الروحَ تَحليقها!

يَحمله على البُـراقِ {مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى}، ثمَّ إلى سِــدرة المُنتهى..

خارطــةٌ، تُفصِح عَما وراءَ الغَــيب!

هُنــا البَـدء، وما سِــواهُ، ألواحٌ مُبعثرة!

هُــنا يَكـبر المُستحيلُ، وتَــنتهي الأسئلــة!

الإســـراء مِن مَسجدٍ في سُلطة قُريش، إلى مَوقع مَسجد في سُلطة الرُّومان، كلاهما في عُهدة الشِّــرك!

ورُغم ذلك، تَــنيخُ المَطايا على بوابةِ الوعــد!

يلتفتُ النَّــبي ﷺ، فلا يَــرى إلا بقايَــا ميراث إبراهيــم.

وَيشتدُّ السُّــؤال: لماذا مِــن المَسجد الحَــرام إلى المَسجد الأقصَــى؟!

كانت رحلةُ إبراهيم، رفــع القواعِــد، وأذَّن في النَّاس.

وعلى مُحمَّــد أنْ يجعلَ الأذان أعالِــي الصهيل في كل مكان، وعليه العبور نحو المُستحيل!

حلُــمٌ وفعل ما زالَ في الطريق، وعلى مُحمــد إتمامه!

إلى {المَسجد الأقصَــى}

إذْ بالإســراء، تكتملُ الرِّحلة الإبراهِيمية، وهُنــا، لَفتةُ الغَيب.

حيث تشرعُ أبواب السَّماء مِعراجًا مِن هناك، ويوثِّق القُــرآن مِــيلاد خارطَــة الرُّوح، ويجعل الأقصَــى امتحانَ السماء، لمنْ يَحلمون بِمعراجٍ نحو المُنتهى!

تَــشتاقُ روحُ مُحمد ﷺ للملكوت، فَيجعل الله السبــيل للمِعراج مِن المَسجد الأقصَــى!

كانَ المَسجد الأقصَى مَؤودًا في الذاكِــرة، لكن بإســراء مُحمد، تكتملُ الرحلة!

رُبمــا كَــان في أقاصِــي الحُــلم، بل رُبما ما كَــان قط في الحُلم.

فقد كَــان النــبي ﷺ مَسكونًا بالمَهجر، وكيفَ يُــنزعُ ثَــوب الحُــزن عَن جَسد الأمــة؟

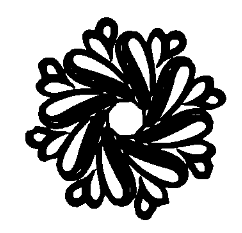
يَحمله الله على هَودج بُراق، خَطْوُه في الأقصَى، وغَايته سِدرة المُنتهى!

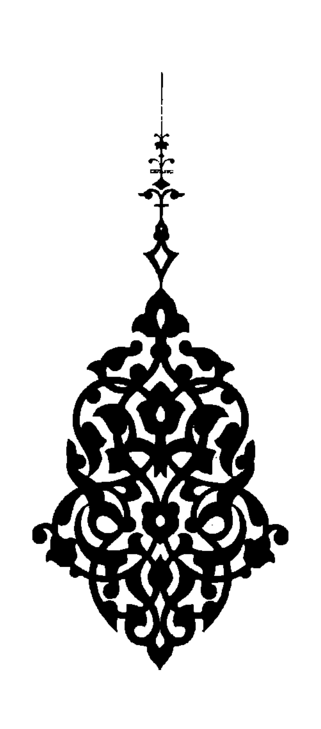
تعتكفُ طويلًا أمام الآيِ، فإذا المعاني لكَ تنكشِف، وإذا المُفردات تفجًّـر غَـدًا يتـقـد.

حيثُ تَهبك الآياتُ الحَقيقة، أن الإســراء هو بيــان المَهمة، وبالإسراء، اكتملتْ دائِـرة الرِّحلة!

والمُعجزةُ في الرِّحــلةِ كانت في تَحــريــرِ السُّــلـطة والرُّؤيــة، رغْـمَ فَقــدِ أسبَــابــها!

وعندما عاد رسول الله كذَّبته قريش فأتم الله له الكرامة، "لَمَّا كَذَّبَتْنِي قُرَيْشٌ، قُمْتُ فِي الحِجْرِ، فَجَلَّى اللهُ لِي بَيْتَ المَقْدِسِ، فَطَفِقْتُ أُخْبِرُهُمْ عَنْ آيَاتِهِ وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَيْهِ".






11
إذا صح منك
الخروج تهيأ لك
العروج

ومن الإسراء يحمله البراق إلى رحلة المعراج.

تَرْتَعِش النُّجُوم مِثْل ذُبَالَة ضَوْء أَمَام النُّور، تَنْزَاح الْحُجُب، وتتفتق السَّمَاوَات عَنْ مَعانِي النور.

تَبْدُو الْمَعَارِج كَأَنَّهَا شُقوُق فِي غَيْبٍ مُمْتَدٍّ، تَكْشِف أَسْرَاره، وينكشف للنبي ﷺ ما بدا مِنْه! وَمن عَالم الْمَنْظُور إِلَى غَيْرِ الْمَنْظُور، وَمن الْمَرْئِيِّ إلَى اللامرئي يعرج النبي!

وفي السماء تَبْدُو النُّجُوم مُعَلَّقَة مِثْل قَنَادِيل المَسَاجِد..

تِفيض بِالتَّسْبِيح، وترتعش للموكب الْجَلِيل..

ويَغِيب النَّبِي ﷺ فِي الْقُرْبِ بِلَا مَسافات وَلَا أَسْبَاب، إِلَّا اصطفاء الْحُب!

ويوهب النبي ما يوهب فقد كَانَ اللَّهُ أَعْظَم مِنْ أَن يَخْذل قَلْبًا نَبض لَهُ وَحْده!

ها هو البراق يعلو بك، وَأَنْتَ عَلَى ضِفاف اللامنتهى وَحْدَك، تَشْتَهِي جرار الْخُلْد أَن تَمَسَّهَا يَدَاك..

تسمع صَوْت خَرِير فِي ضبَاب كَثِيف..

تَتَدَلَّى لَك الْأَسْرَار، وَلَا يَرَى الْكَوْن سِوَاك، مُنْفَرِدًا فِي الْقُرْبِ، وَالسَّبْق يَهْمِس لَك: كُن أَوَّل العابرين إِلَى الْمُنْتَهَى، وها هي الْمَقَامَات تعبر إِلَيْك!

يا الله، تشيب الْخُطَى، وَلَا تَبْلُغُ الْبَشَرِيَّة مَا اللَّهُ اصْطَفَاك، يسْند النَّبِي قَلْبهُ عَلَى الوُدِّ، ويغمره السَّلَام!

وفي الأفق الأعلى يرى الخواتيم ويرى حُطَام الزِّينَة رَمَادًا مَنْثُورًا.

فَلَا تَلْتَفِت وَلاَ تَكْتَرِثْ، فَمَا ثَمَّ فِي الْكَوْنِ إِلَّا أَحَد..

أَحَدٌ أَحَدٌ، وَكُل الَّذِي دُونَه الْعَدَم!

وفي الأعالي تهيِّئ السَّمَاوَات معراجًا، لِمَنْ لَمْ تَغْلِبْ قَدَمَيْه وَعَوْرَةُ الطُّرُقَات..

وقد قيل، إذَا صَحَّ مِنْك الْخُرُوج، تهَيأ لَك العروج، وَمَنْ صَحَّحَ بَاطِن الْمَقَام، رزِق جَلِيل الْإِعْظَام!

لقد كَانَ النَّبِيُّ ﷺ مَعَ اللَّهِ دائمًا، وَبِه قائمًا، وعَنْ غيره سالمًا، وبعظمته عالمًا، وَحَالَه: اللَّهُم أَسْقط ما يحول بَيْنِي وَبَيْنك، حَتَّى لَا يَكُونُ شَيْءٌ أَقْرَب إلَيَّ مِنْك!

كَانَ النَّبِيُّ ﷺ متدثرًا بعباءته فِي حَرَمِ الْكَعْبَة، وَقَلْبُه يَبْحَثُ عَنْ مَأْوَى، وَمَنْ كَانَ مَعَ اخْتِيَار الْحَقِّ تَعَالَى لَا مَعَ اختياره لِنَفْسِهِ، كَانَ مجابًا، وَالْأَعْمَال بِخَوَاتِمِهَا!

وهناك وما أدراك ما هناك!

"ثُمَّ صَعدَ بِي إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ، قِيلَ: "مَنْ هَذَا؟" قَالَ: "جِبْرِيلُ". قِيلَ: "وَمَنْ مَعَكَ؟"، قَالَ: "مُحَمَّدٌ". قِيلَ: "وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟" قَالَ: "نَعَمْ". قَالَ: "مَرْحَبًا بِهِ، فَنِعْمَ المَجِيءُ جَاءَ". فَلَمَّا خَلَصْتُ فَإِذَا إِبْرَاهِيمُ، قَالَ: "هَذَا أَبُوكَ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ". قَالَ: فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَرَدَّ السَّلاَمَ، قَالَ: "مَرْحَبًا بِالاِبْنِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالح".

رأى إِبْرَاهِيمَ ﷺ مُسْنِدًا ظهره إِلَى الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ، وَإِذَا هُو يَدْخُلُهُ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ لاَ يَعُودُونَ إِلَيْهِ، «وَرَأَيْتُ إِبْرَاهِيمَ وَأَنَا أَشْبَهُ وَلَدِه بِهِ».

وهناك وما أدراك ما هناك!

(ثم ذهب بي إلى سدرةِ المنتهى، وإذا ورَقُها كآذانِ الفِيَلَةِ، وإذا ثمرُها كالقِلالِ، فلما غشِيَها من أمرِ اللهِ ما غَشِيَ تغيَّرتْ، فما أحدٌ مِن خلْقِ اللهِ يستطيعُ أن ينعتَها من حُسنِها، فأوحى اللهُ إليَّ ما أوحى).

هناك فِي هَيْبَة الْجَلَال يُكَلِّمهُ اللَّهُ وتوحى الصَّلَاة، وَيُغَاث الْقَلْب وَهْبًا عَلَى وَهْب، قلب كان كله مُوقِنًا: وكان نبضه (عَرَفْتُك وَهْبًا، واستقمت بك عِصْمَة، وأُسْرِيَ بِي كَرَامَة)!

لِذَا، مَنْ عرفَ رَبَّهُ، لَمْ يَكُنْ لَهُ مَطْلَبٌ مَنْ إيَّاهُ إلَّاهُ.

يغيب النبي في ملكوت الجلال ويعرج إليه!

وإِذَا تَجَاوَز الْعَبْد الْأَنَا، تَخَطَّى هَذِه الدُّنا..

وَإِنَّمَا تَتَّسِع الْآخِرَة عَلَى قدر ما تركت مِن الدُّنْيَا، فَاسْتَعِن بسيرك إِلَى اللَّهِ، بِتَرْكِ مَا سِوَى اللَّهِ!

ارْتَفَع محمد ﷺ حَتَّى اتَّسَعَ لَهُ مَا لَا يَخْطِرُ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، وَرَأَى مَا لَمْ تَرَ الْأَفئدة!

كل ذلك لعبد كان همه ربه، ومَا تقرَّب الْعَبْدُ إِلَى الله ﷻ بقُرْبة، بِأَعْظَم مِنْ تَحْقِيقِ صَلَاحِ الْأُمَّةِ!

﴿وَلَقَد رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ [سورة النجم: 18]، لقد رأى حتى ارتوى، وَكُل ما نأى تَدانَى.

فَقَدْ كَانَ عَبْدًا لَهُ فِي كُلِّ سَاعَةٍ فتح وطَاعَة، يَحْمِلُه الْبُرَاق، فَـ ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾! [سورة النجم: 17].

وَمَنْ ثَبَتَ فِي المسار وَاحْتَمَل فِتْنَة الاخْتِبَار، رَفعه الْعَظِيم الْقَهَّار!

وفي الصحيح: (ثُمَّ عَلَا به فَوْقَ ذلكَ بما لا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ، حتَّى جَاءَ سِدْرَةَ المُنْتَهَى، ودَنَا لِلْجَبَّارِ رَبِّ العِزَّة، فَتَدَلَّى حتَّى كانَ منه قَابَ قَوْسَيْنِ أو أدْنَى).

ومِن ربه في موطن فوق المكان يحْمل التَّكْلِيف خَمْسِينَ صَلاةٍ ويَنْزِل بِالْفَضْل، ثُمَّ هَبَطَ حتَّى بَلَغَ مُوسَى، فَاحْتَبَسَهُ مُوسَى، فَقالَ: "يا مُحَمَّدُ، مَاذَا عَهِدَ إِلَيْكَ رَبُّكَ؟"، قالَ: "عَهِدَ إِلَيَّ خَمْسِينَ صَلَاةً كُلَّ يومٍ ولَيْلَةٍ"، قالَ: "إِنَّ أُمَّتَكَ لا تَسْتَطِيعُ ذلكَ، فَارْجِعْ فَلْيُخَفِّفْ عَنْكَ رَبُّكَ وعنْهمْ"، فَالْتَفَتَ النبيُّ ﷺ

إلى جِبْرِيلَ كَأَنَّهُ يَسْتَشِيرُهُ في ذلكَ، فأشَارَ إلَيْهِ جِبْرِيلُ أَنْ نَعَمْ إنْ شِئْتَ، فَعَلَا به إلى الجَبَّارِ، فَقالَ وهو مَكَانَهُ: "يا رَبِّ خَفِّفْ عَنَّا فإنَّ أُمَّتي لا تَسْتَطِيعُ".

اسأله، هذا أنا، أسأله التخفيف في التكليف... يا لكرامة المقام.

يرف الْحَمام عَلَى قَلْبِهِ، وَتَغِيب وعوْرَة الطَّائِف وعَتمَة قُرَيْش، وينتهي عام الحزن!

كَم عُمر الزَّمَانِ فِي تِلْكَ اللَّحْظَة؟!

كَم عُمر الزَّمَانِ عَلَى أعتاب الْوَعْد؟!

لَكِن الْمَنَازِل الْعَالِيَة، لَا تُنَالُ إِلَّا بِالْبَلَاء!

ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ.

تَغِيب الْأَزْمنَة، وَيَتَجَلَّى الْجَمَال، وَيَرْجِع مُحَمَّدٌ إِلَى اللَّهِ!

ترتجف الدَّهْشَة، وتتقد جَذْوَة الْمَعْنَى: أَن لِمُحَمَّد مَا ليس لسِوَاهُ.

فَيسَأَله التَّخْفِيف، وَاَللَّه للحبيب يُجِيب!

يَشْتَد التَّسْبِيح فِي الْمَلَأ الْأَعْلَى، ويَسْمَعُ النَّبِي صَرِير أَقْلَام الْوَحْي تكتب أقدارًا خفية!

هُنَا أَوَّل الْأَشْيَاءِ وأخيرها، وقُرَيْش على بقعة صغيرة تَجْهَل، أَنَّهَا خَسِرت الْحَقِيقَة!

وَيَنْزِل ثانية مُحَمَّد بِالتَّخْفِيف، فيوقفه مُوسَى، ويَحْكِي لَه تَجْربَته، ويَقُولُ لَهُ: "اسْأَل رَبَّك التَّخْفِيف!".

هُنَا مُنْتَهَى الْآمَال، وَكُل اِرْتِقَاء، حَال بَعْدَهُ حَال..

وَيَذْهَب الشَّوْق، بالخطو إِلَى ما فوق الْخَيَال!

رَبُّك، ويمتلئ قَلْب النَّبِيِّ مِنْ كَافِ الرؤوف.

تَتْبَعهَا نَفْسه، ويُطْوَى لَه سَفَر بِلَا مَكَان وَلَا زَمَانٍ، وَلَا سَبَبٍ!

تَفْنَى الْأَلْفَاظ، وَإِن فَهمهَا الْعَقل، فَهَيْهَات هَيْهَات، أَنْ يُدْرِكَ العقل ما وراء الكلمات!

ذَاك فَرح، لا يعلم كُنْهه إِلَّا منْ رَآه، وأَنَّى لَنَا ذَلِكَ!

تَتَدَلَّى عَنَاقِيد فَرح شَهِيٌّ، وَفِي الْغَيْب الْبَعِيد تراتيل.

تُطْوَى الدُّهُور بَعْدَ الدُّهُورِ، ويجتاز الْخُلُود، وَتَنْتَهِي مِحْنَة الْجَاهِلِيَّة، ويرى الحبيب ضالَّة قريش!

وهناك ينال وصل الصلاة..

ويتجلى المعنى، إن الْمَسَافَة بَيْنَ أَدَاءِ الصَّلَاةِ وعَيْش الصَّلَاةِ، كَمَا الْمَسَافَة بَيْنَ الْقُرْبِ وَالْبُعْد!

وصل الصلاة، ذاك مذاق لمَنْ عَرفَ اللَّهَ، ومن عرف الله شَاهد وَعْدَه!

وَمَنْ خرَجَ مِنْ مَعَانِي الْحَيَاة النَّاقِصَة، اجْتَمَعَت حَوَاسه فِي مَعْنَى الصَّلَاةِ!

فَرِّغ قَلْبك مِمَّا ازْدَحَم فِيهِ النَّاسُ، يَتَشَرَّبهَا، ويحفه الذِّكر، وَمَعَ كُلِّ صَلَاةٍ، يَفْتَح الْقَلْب إِلَى الْفَجْرِ دَرْبًا.

وصل الصلاة، ثم لَا وَحْشَة بَعْدَ الْيَوْمِ!

يَهَبُ اللَّهُ الصَّلَاةَ لِمُحَمَّد، وَيَنْزِل بِهَا.

شَيْءٌ مِن اللَّهِ!

ومَا بَعْدَهَا، إِلَا النَّجَاة وَالْقُرْب.

وعَلَى قَدْرِ الاسْتِغْرَاق، تَرَى مِن الْفَضْلِ مَا يَلِيقُ بِمَن وَهَبَك الصَّلَاة!

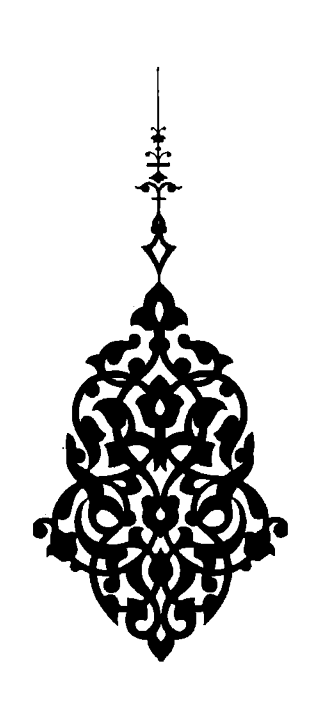
فاذكر أنه لَا اسْتِقْرَار فِي النَّعِيمِ، بِلَا فِرَار، فاعرج إِلَيْهِ في خلوة عَلَى خُطى نَبِيِّك!

إذا أخطأت الخطى طال الطريق، وإذا استقامت مُنحتَ معراجها! فاعرج إِلَيْهِ في خلوة عَلَى خُطى نَبِيِّك!

وفي الصحيح بعض تفاصيل ما جرى في المعراج فإليك عظيم الأحداث:

(ثُمَّ عَرَجَ به إلى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَضَرَبَ بَابًا مِن أبْوَابِهَا فَنَادَاهُ أَهْلُ السَّمَاءِ "مَن هذا؟"، فَقالَ: جِبْرِيلُ. قالوا: "ومَن معكَ؟" قالَ: "مَعِيَ مُحَمَّدٌ"، قالوا: "وقدْ بُعِثَ؟"، قالَ: "نَعَمْ"، فقالوا: "فَمَرْحَبًا به وأَهْلًا"، فَيَسْتَبْشِرُ به أَهْلُ السَّمَاءِ، لا يَعْلَمُ أَهْلُ السَّمَاءِ بما يُرِيدُ اللَّهُ به في الأرْضِ حتَّى يُعْلِمَهُمْ، فَوَجَدَ في السَّمَاءِ الدُّنْيَا آدَمَ، فَقالَ له جِبْرِيلُ: "هذا أبُوكَ آدَمُ فَسَلِّمْ عليه"، فَسَلَّمَ عليه ورَدَّ عليه آدَمُ، وقالَ: "مَرْحَبًا وأَهْلًا بابْنِي، نِعْمَ الابنُ أنْتَ"، فَإِذَا هو في السَّمَاءِ الدُّنْيَا بنَهَرَيْنِ يَطَّرِدَانِ، فَقالَ: "ما هذانِ النَّهَرَانِ يا جِبْرِيلُ؟"، قالَ: "هذا النِّيلُ والفُرَاتُ عُنْصُرُهُمَا"، ثُمَّ مَضَى به في السَّمَاءِ، فَإِذَا هو بنَهَرٍ آخَرَ عليه قَصْرٌ مِن لُؤْلُؤٍ وزَبَرْجَدٍ، فَضَرَبَ يده فَإِذَا هو مِسْكٌ أذْفَرُ، قالَ: "ما هذا يا جِبْرِيلُ؟" قالَ: "هذا الكَوْثَرُ الذي خَبَأَ لكَ رَبُّكَ"، ثُمَّ عَرَجَ به إلى السَّمَاءِ الثَّانِيَةِ، فَقالتِ المَلَائِكَةُ له مِثْلَ ما قالَتْ له الأُولَى مَن هذا، قالَ: جِبْرِيلُ. قالوا: "ومَن معكَ؟" قالَ: "مُحَمَّدٌ ﷺ"، قالوا: "وقدْ بُعِثَ إلَيْهِ؟"، قالَ: "نَعَمْ"، قالوا: "مَرْحَبًا به وأَهْلًا"، ثُمَّ عَرَجَ به إلى السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ، وقالوا له مِثْلَ ما قالتِ الأُولَى والثَّانِيَةُ، ثُمَّ عَرَجَ به إلى الرَّابِعَةِ، فَقالوا له مِثْلَ ذلكَ، ثُمَّ عَرَجَ به إلى السَّمَاءِ الخَامِسَةِ، فَقالوا مِثْلَ ذلكَ، ثُمَّ عَرَجَ به إلى السَّمَاءِ السَّادِسَةِ، فَقالوا له مِثْلَ ذلكَ، ثُمَّ عَرَجَ به إلى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، فَقالوا له مِثْلَ ذلكَ، كُلُّ سَمَاء فِيهَا أنْبِيَاء قدْ سَمَّاهُمْ، فأوْعَيْتُ منهمْ إدْرِيسَ في الثَّانِيَةِ، وهَارُونَ في الرَّابِعَةِ، وآخَرَ في الخَامِسَةِ لَمْ أحْفَظِ اسْمَهُ، وإبْرَاهِيمَ في السَّادِسَةِ، ومُوسَى في السَّابِعَةِ بتَفْضِيلِ كَلَامِ اللَّهِ، فَقالَ مُوسَى: "رَبِّ لَمْ أظُنَّ أنْ يُرْفَعَ عَلَيَّ أحَدٌ").

وقد رُفع محمد مكانًا عليًّا لا تبلغه الأفهام ولا ترنو إليه الأحلام.




12
بضعة وسبعون
رجلا وامرأتان على
ناصية الوعد

فِي حَالك الظلمَة، يَسِيرُ عَلَى حَصْبَاء مِنًى بِحَذَر شَدِيد، وَفِي قَلْبِهِ يصون مَا بَقِيَ مِنْ أَصْوَات الْأَنْبِيَاء!

يَشُد وَثَاق قَلْبه عَلَى آخر النُّبُوَّة، ويَمْضِي، وفِي ظِلِّه، عَمه أبو طالب يَتَوَكَّأُ عَلَى رُؤْيَا عَتِيقَة، يَكَاد يَتَعَثَّرُ فِي خَوْفِهِ عَلَى ابْنِ أَخِيه، وَمُحَمَّد يُسَابِق الْوَقْت، يَخْشَى أَنْ نَظَل فِي حَيَاة مَهْجُورَة الْمَعْنَى.

يُوَزِّع رُوحَه بَيْن بَيْنين، ويَهْدِم اليأس ويَبْنِي، كَيْف يَقْوَى؟

يحْمل الْمُزْن، إلَيْهِم وإِلَيْكَ، ويكأني وإِلَيَّ، تَكَاد أَصَابِع قَدَمَيْه تَنْطِق صَوْت الطَّرِيق!

وفي الصحيح: (رأيت رسول الله ﷺ بسوق ذي المجاز يتخللها يقول: "يا أيها الناس تولوا لا إله إلا الله تفلحوا"، قال وأبو جهل يحثي عليه التراب ويقول: "لا يغوينكم هذا عن دينكم، فإنما يريد لتتركوا آلهتكم، وتتركوا اللات والعزى"، وما يلتفت إليه رسول الله ﷺ).

مُزْدَحم بِنَا، وفَوْق اللَّحْظَة وأَبْعَدُ مِن الْآن، وعَلَى نَاصِيَةِ الْوَعْد، ومِنْ بَقَايَا الْأَمَل، صنعَ لَنَا مَلْحَمَة الشُّهُود.

(كان يأتيه الرجُلُ فيؤمنُ، فيُقرِئُه القرآنَ، فيَنْقلِبُ إلى أَهْلِه، فيُسلِمونَ بإسلامِه، حتى لا يَبْقى دار مِن دُورِ يَثْرِبَ إلَّا فيها رَهْطٌ مِن المسلمينَ، يُظهِرونَ الإسلامَ)، وتلك بداية التغيير في المدينة.

كان ذلك أَشْبَه بِمَفَاتِيح مبعثرة يَجْمَعُهَا النَّبِي ﷺ، ويَفْتَحُ بِهَا أَبْوَاب الْمَدِينَة، وَفِي عَيْنَيْه، يومض ضَوْء اليقين!

(وقد لبِثَ عشْرَ سنينَ يتبَعُ الحاجَّ في منازِلِهم في المَوسِمِ وبمَجَنَّة وبعُكاظٍ وبمنازِلِهم بِمِنًى يقول: "مَن يُؤوِيني؟ مَن يَنصُرُني حتى أُبلِّغَ رسالاتِ ربِّي

-عزَّ وجلَّ- وله الجنَّةُ؟"، فلا يجِدُ أحدًا ينصره ويُؤويه، حتى إنَّ الرجُلَ يرحَلُ مِن مُضَرَ أومِن اليمَنِ [إلى ذي رَحِمِه]، فيأتيه قَومُه فيَقولونَ: "احذَرْ غُلامَ قُرَيشٍ، لا يَفتِنُكَ").

قُرَيْش خَلْفَه، وبَيْن قَبْر يراود خطَاه، ومَنْفَى يَقِف بعد سنوات بَيْنَ أهل يثرب في موسم الحج، فَإِذَا صَوْته مَطَر ومَرْفَأ، ينصتون، وفِي ذَاكِرَة الْقَلْب ثَمَّة مَا يشدهم إلَى غَيب بَعِيد، كَأَنَّهُم وَجَدُوا ما فقدوا.

يُبْصِرُون صَوْتَه، ويُبْصِرُون بِه، وَمَعَ كُلِّ كَلِمَةٍ، يكَبرُون أَلْف عَام!

وحده الْمَلِيء، يَمْنَح قَلْبك نَبْضًا لَا ينطفئ!

قَبْلَه، كَانُوا مهزومين فِي عُقْرِ وعيهم، قَاب السُّقُوط أَو أَدْنَى قَلِيلًا...

كَانَت (بُعاث) آخر مَعْرَكَة استُبيح فِيهَا الدَّم، بَيْنَ مَنْ تَنَاسَلُوا مِن أَخَوَيْن هُمَا (أَوْس وخَزْرَج)،

وفي العراك تَكَشَّفَت سوءاتهم، وأَذَلَّهُم تِيه الاحتراب، وتيبست أَعْقَابهم، فَقَد عقر النِّزَاع لَهُمْ كُلَّ الطَّرِيق!

كَانَت يَهُود قَدْ عبثت بصهيلهم كَثِيرًا، تَنْتَظِر تَاج الْملك، فَأَوْقَدَت نَارهَا مِن حطبهم، وأبقتهم مطأطئين تَحْت غدائر كَيْدِهَا!

لكن في الْحَجِّ تَمَسهُم نَار الرُّؤْيَة، ويطوقهم النَّبِي ﷺ بنوره...

يَلْتَقُون مُحَمَّدًا خِلْسَة عَنْ عَيْنِ أَبِي لَهَب، سِتة فَقَطْ لَا سَابِعَ لَهُمْ، يؤججون نَار الْحَقِيقَة، مُحَمَّد، وهُم، والْإِسْلَام!

وقبله كان يملؤهم غَبَش الْوَهْم، وتعذبهم لَحْظَة انْطِفاء لَا تَنْتَهِي، وضفائر بَنِي يَهُود، قيودهم، يَرَوْن مُحَمَّدًا، وَقَد تَغَشَّاه جَلَال الْوَحْي، فيَنْتَهِي غُبَار السَّعْي وَرَاء السَّرَاب!

يَحْمِلُون الكَلِمَات إلَى الْمَدِينَة، يتلقاهم أَسْعَدُ بْنُ زُرَارَة، وَخَلف خُطَاهُم، يَجُر خطى الْمَدِينَة، سِت نُجُوم، بَعْدهُم كَانَت بَيْعَة الْعَقَبَة الْأُولَى!

جاؤوا اثْنَا عَشَرَ رَجُلًا، يفسحون إِلَى الطَّرِيقِ طَرِيقًا، تستسقي يَثْرِب لِلَّه: فكَيْف صاغوا لظمئها إبْرِيقًا؟!

لِلَّهِ فِي الْبَطْحَاءِ هجيرهم وإيَابهم، فَكَيْف كَانُوا فِي الظَّلَامِ بريقًا؟!

وفي خطة ذكية يهيِّئ النبي المدينة، فيرسل شابًّا قد استعلى على الدنيا..

يَلُوحُ مِنْ أَقْصَى الظَّلَام مُصْعَبًا، فَإِذَا الْمَدِينَة نَافِذَةٌ تَطُل عَلَى السَّمَاء..

لِلَّهِ مَا يَلْقَاه، لِلَّه ظَمَأ فِي قَيْظ الشُّمُوس، لِلَّه جَفَاف الْحَلْقِ مَا أَبْقَت الدَّعْوَة لَه رِيقًا! لله صوته في كل بيت!

يعبر الزَّمَن، ويحْمل جِرَاح الصَّحَابَة، و(شرعَة الدَّمْع، أَنْ يَعُودَ غَمَامًا)!

شاب غض، شَدِيد الذَّكَاء، حَذرٌ فِي انْتِقَاء الْكَلِمَات، ويمكث في بلاغة الفعل العميق! ارتوى من النبي حتى ارتوى! هدم الدنيا في قلبه وابتنى للآخرة سلمًا، فَإِذَا رَتَّل الْقُرْآن، نَطَق الصَّامت فِي أعماقهم.

وَكَانَ مُصْعَب بكلماته الْيَقظَةِ التِي أشغلتهم عَنْهَا الْيَهُود!

جاءه أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ، فَوَقَفَ عَلَيْهِ وَعَلَى أَسْعَد بْن زُرَارَة مُتَشَتِّمًا، وَقَال: "مَا جَاءَ بِكُمَا إِلَيْنَا؟ تُسَفِّهَـان ضعفاءنا؟ اعتَـزِلانَـا إنْ كَانَتْ لَكُمَا بأنفسكما حَاجَة"، فَقَالَ لَهُ مُصْعَب: "أو تَجْلِس فَتُسْمَع، فَإِن رَضِيت أَمْرًا قبلته، وَإِن كَرِهْته كُفَّ عَنْك مَا تكرهه"، فَقَال: "أَنْصَفْت"، ثُمّ رَكز حَرْبَته وَجَلَس.

فَكَلَّمَه مُصْعَب بِالْإِسْلَام، وَتَلَا عَلَيْهِ الْقُرْآن، قَال: "فَواللَّه لَعَرَفْنا فِي وَجْهِهِ الْإِسْلَام قَبْلَ أَنْ يَتَكَلَّمَ، وَفِي إشْرَاقه وتهلله"، ثُمَّ قَالَ: "مَا أَحْسَنَ هَذَا وَأَجْمَلَهُ!

كَيْفَ تَصْنَعُونَ إِذَا أَرَدْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا فِي هَذَا الدِّينَ؟"، قَالَا لَهُ: "تَغْتَسِل، وتطَهِّر ثَوْبَك، ثُمَّ تَشهد شَهَادَةَ الْحَقِّ، ثُمَّ تُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ".

فَقَام وَاغْتَسَل، وَطهر ثَوْبه، وَتَشَهَّد وَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ قَالَ: "إن وَرَائِي رَجُلًا إِنْ تبعكما لَمْ يَتَخَلَّفْ عَنْهُ أَحَدٌ مِنْ قَوْمِهِ، وسأرشده إِلَيْكُمَا الْآنَ" -سَعْد بْن مُعَاذ.

وَجَاءَ سَعْدُ بْنِ مُعَاذٍ بِخُطًى مَغْلُولَة، فَمَا غادره إِلَّا طَلِيقًا!

سَعْد الَّذِي اهْتَزَّ لَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، إِذْ حكم فِي بَنِي قُرَيْظَةَ حُكْمه الَّذِي وَافَق حُكْم اللَّهِ فَوْقَ عَرْشِهِ!

مَاذَا فَعَلْتَ يَا مُصْعَب؟!

كَيْف زرعتهم فِي خَارِطَة الْوُجُود، نَخْلَة لَا تَمُوت!

تصحو الْمَدِينَة عَلَى وَقع نَعْلَيْه، وتستكين لخطوته طُرُقَات، تَاهَت طَوِيلًا، وَيَعُودُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ قَائِلًا:

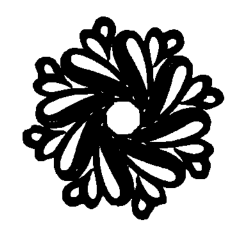
"مَا بَقِيَ بَيْتٌ مِنْ بُيُوتِ الْمَدِينَةِ إِلَا وَدَخَلَه الْإِسْلَام!".

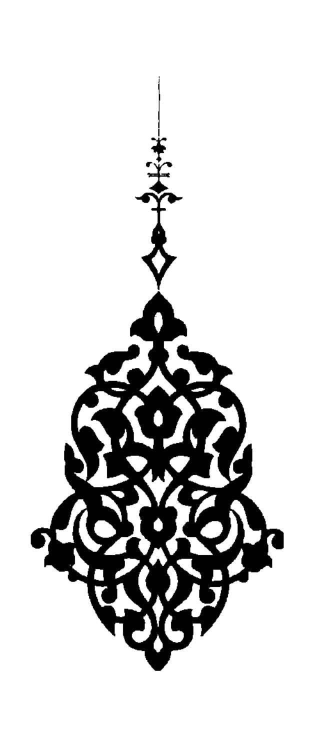
وحقَّ لَهُ كَلِمَة الْحَبِيب ﷺ: "انظروا إِلَى هَذَا الرَّجُل الَّذِي قَدْ نَوَّرَ اللَّهُ قَلْبَهُ، لَقَدْ رَأَيْتُهُ بَيْنَ أَبَوَيْنِ يغدوان بِأَطْيَبِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ، فَدَعَاهُ حُبُّ اللَّهِ وَرَسُولهُ إِلَى مَا ترون".

ثُم كَانَتْ الْعَقَبَة الثَّانِيَة، سَبْعُونَ رَجُلًا وأَحْدَاق نسوتين تَحْت رِدَاء الرُّشْد، مَسَّهُمَا حُب النَّبِيِّ ﷺ، جاؤوا وقالوا: "يا رسولَ اللهِ، عَلامَ نُبايِعُكَ؟"، قال تُبايِعونني على السمعِ والطاعةِ في النشاطِ والكسَلِ، وعلى النفقةِ في العُسرِ واليُسرِ وعلى الأمرِ بالمعروفِ والنهيِ عن المنكَرِ، وعلى أنْ تقولوا في اللهِ، لا تأخُذُكم فيه لَومةُ لائمٍ، وعلى أنْ تَنْصُروني إذا قدِمتُ يَثْرِبَ، فتَمْنَعوني ممَّا تَمْنَعونَ منه أنفُسَكم وأزواجَكم وأبناءَكم، ولكم الجنَّةُ"، فقُمْنا نُبايِعُه، فأخَذَ بيدِه أسعَدُ بنُ زُرارةَ، وهو أصغَرُ السبعينَ. فقال: "رُوَيدًا. يا أهلَ يَثْرِبَ إنَّا لم نضرِبْ إليه أكبادَ المَطِيِّ إلَّا ونحن نعلَمُ أنَّه رسولُ اللهِ، إنَّ إخراجَه اليومَ مفارقةُ العرَبِ كافَّةً، وقَتْلُ خيارِكم، وأنْ تعَضَّكم السُّيوفُ، فإمَّا أنتم قَومٌ تَصْبِرونَ على السُّيوفِ إذا مسَّتْكم، وعلى قَتْلِ خيارِكم، وعلى مفارقةِ العرَبِ كافَّةً فخُذوه، وأَجْرُكم على اللهِ -عزَّ وجلَّ- وإمَّا أنتم قَومٌ تخافونَ مِن أنفُسِكم

خِيفةً، فذَرُوه، فهو أعذَرُ عندَ اللهِ". قالوا: "يا أسعَدُ بنَ زُرارةَ، أَمِطْ عنًّا يدَكَ، فواللهِ لا نذَرُ هذه البَيْعةَ ولا نَسْتقيلها".

ثُمَّ كانَتْ الْهِجْرَةُ، وانْتَهَى زَيف العابرين، ودَارَت الْأَرْض دورَتها الْجَدِيدَة!






13
في ليلة
الهجرة، كيف
يكتب الأنبياء من
جراحهم تواريخ
ميلادنا!

يَشُم النَّبي ﷺ رائحة خَديجة في حَنايا المَكان، يَسمعُ صَوتها وَرْديًّا يفوحُ مثل اليَاسَمين: (أبشِرْ، فواللهِ لا يُخزِيك اللهُ أبدًا، ولن يُضَيِّعَك)!

كانت امرأةً من خارِج الزَّمان.

كان الليل مَعها يُشرق بالنَّهار، مثل ظَبية بَهيَّة، تَحنو عليه وتُدثِّره، وتَلمُّ شَعثَه بالمَال والبَنين!

تحرُسه بأسرابٍ من حَمام رُوحها، وكُلما تمادَت قُريش في عَتمتها، كانَ يلْقَاها، فَيرى الشمس تَجري في ضحكتها، فاستحَقَّت من الله بيتًا في الجنة {لا نَصب فيه ولا تَعب}!

يجمع النبي ﷺ لهاث الذِّكريات الأخيرة.

يَفيضُ البيتُ بِروحانية عُلوية ويَبكي!

فَفي ليلةِ الهِجرة، تَدنو خَديجة من قلب النبي ﷺ ثُم تَنأى، ويظمأُ النَّبي ﷺ شوقًا لغيمة، ظَلت تَهْطل طوال العَهد المَكيِّ!

تَرتبكُ النِّساء في وَفرة يَنابيعك يا خَديجة، أيا رحيقَ الجَمال، ونَبض النبي في حُبِّه.

يا من أنت البداية وأنت أنت الخِتام!

و"ما أبدَلَني اللهُ -عزَّ وجلَّ- خَيرًا منها، قد آمَنَتْ بي إذ كفَرَ بي الناسُ، وصدَّقَتْني إذ كذَّبَني الناسُ، وواسَتْني بمالِها إذ حرَمَني الناسُ، ورزَقَني اللهُ -عزَّ وجلَّ- ولَدَها إذ حرَمَني أولادَ النِّساءِ"..

مَعكِ كَتبَ النَّبي ﷺ أبجديات حُبٍّ عُلويٍّ فوقَ معاني الدَّهر، وفوق ما تُطيقه أفهام الحَياة!

ترى، أكانَ هذا بيتًا بشريًا، أمْ مدارِج رُوحين التَقيَا على عِشق الهرولة لله؟!

يُهرولان رغم العَتمة، كيْ يَصنعا للعالم مَزيدًا مِن النُّجوم!

خَديجة يا سيِّدة نِساء الجنة، ها أنا الليلة أُغادر عُشًّا، تنزَّلَت فيه المَلائكة!

ينْتَحب البيت للخَطوة الرَّاحلة..

وتهتَزُّ الأشواق على صوتِ النَّجوى لوداعٍ أخير..

ويُلمْلِم النَّبي ﷺ ما أبقَت له قريشُ بعدَ الحِصار!

كيفَ غادَرت عين مُحمد شُطآن خَديجة؟!

ربَّما لو كَشَف لنا الغَيب تلك اللحظة، لرأينا الحكاية في المآقي تَفورُ بالوَجد، حتَّى تتَزلزل لها الجُدران!

يا للهِ...

كيفَ يَكتب الأنبياء مِن جراحهم تواريخَ مِيلادنا!

يا للهِ...

كيفَ يُغادرون سِلال الذِّكريات، ويُسافرون غُرباءَ في الطَّريق!

نختصر نحنُ الحكاية في سَطرين، وفي ضَمير مُحَمَّد ﷺ، ظلَّت مكة حبًّا يموجُ بالشوق كلما هبَّ النسيم من نواحيها!

يقفُ مُوَدِّعًا الوطن بِعبرةٍ مَستورة: "واللَّهِ إنَّكِ لخيرُ أرضِ اللَّهِ وأحبُّ أرضِ اللَّهِ إليَّ ولولا أن أَهْلَكِ أخرَجوني منكِ ما خَرجتُ"! الوَطن هو سِترنا..

لكنَّ قُريشًا جَعلته قَميصًا لا عُروة فيه، فكانت الهِجرة لأجلِ أن يَطوي عنا النَّبي ﷺ العري..

لأجلِ أن يَطوي عنا جاهلية، تَضعنا على الهامِش، وتُبقينا في قائمةِ العَبيد!

فيا للتَّضحياتِ..

كيفَ تصنعُ أقدار الله مِن بعض الأرواح، بنانًا شاهدًا على الرِّهان، بأنَّ وعدَ الغَيب آتٍ!

يهيئ النبي ﷺ سَريرهُ للشَّاب الفَتيِّ في مَشهد تَوحُّدٍ عَجيب، بين رُوح عَليٍّ ورُوح النبي ﷺ، حيثُ لا مسافةَ في الحُبِّ، ففي حُبِّ مُحَمد ﷺ تَلاشت الذات، حتى مَسَّت رُوح علي رُوح النَّبي ﷺ، وتلاشَى فيه حتَّى اكتمل!

يتوَهَّج عَلِيٌّ، كنَجمٍ يدورُ في فُلك النُّبوة...

يَسند عَليٌّ النَّبي ﷺ، فيَستندُ عَلِيٌّ بِهِ إلى الأبد!

لا عَجب إذن، أنْ يتَّصل عَلِيٌّ بالنَّسَب، ويتَزوَّج بِضعةً مِن مُحَمّد ﷺ، يتزوج فاطمة شَبيهةَ أبيها!

كلُّ شَيءٍ في بيتِ خَديجة يَأوي إلى الصَّمت..

يَتكثَّف الأسى في سُويعاتِ الرَّحيل..

يَنسَكبُ في روحِ المَكان، وتَلتقط السَّماء صوت الوَجع في القُربان!

واهِمٌ، من يَظنُّ أنَّ خُطى الأنبياء لمْ تزاحِمها العَذابات!

واهِمٌ، من يَظنُّ أنَّ طَريق الهِجرة لمْ يَعصِف فيه غُبار الذِّكريات!

(قالَتْ عَائِشَةُ: "فَبيْنَا نَحْنُ يَوْمًا جُلُوسٌ في بَيْتِنَا في نَحْرِ الظَّهيرَةِ، فَقالَ قَائِلٌ لأبِي بَكْرٍ: هذا رَسولُ اللَّهِ ﷺ مُقْبِلًا مُتَقَنِّعًا. في سَاعَةٍ لَمْ يَكُنْ يَأْتِينَا فِيهَا، قالَ أبو بَكْرٍ: فِداء لكَ أبِي وأُمِّي، واللَّهِ إنْ جَاءَ به في هذِه السَّاعَةِ إلَّا لِأَمْرٍ. فَجَاءَ النَّبيُّ ﷺ فَاسْتَأْذَنَ، فأُذِنَ له فَدَخَلَ، فَقالَ حِينَ دَخَلَ لأبِي بَكْرٍ: أخْرِجْ مَن عِنْدَكَ، قالَ: إنَّما هُمْ أهْلُكَ بأَبِي أنْتَ يا رَسولَ اللَّهِ. قالَ: فإنِّي قدْ أُذِنَ لي في الخُرُوجِ، قالَ: فَالصُّحْبَةُ بأَبِي أنْتَ وأُمِّي يا رَسولَ اللَّهِ؟ قالَ: نَعَمْ. قالَ: فَخُذْ -بأَبِي أنْتَ يا رَسولَ اللَّهِ- إحْدَى رَاحِلَتَيَّ هَاتَيْنِ، قالَ النَّبيُّ ﷺ: بالثَّمَنِ.

قالَتْ: فَجَهَّزْنَاهُما أحَثَّ الجِهَازِ، وضَعْنَا لهما سُفْرَةً في جِرَابٍ، فَقَطَعَتْ أسْمَاءُ بنْتُ أَبِي بَكْرٍ قِطْعَةً مِن نِطَاقِهَا، فأوْكَأَتْ به الجِرَابَ، ولِذلكَ كَانَتْ تُسَمَّى ذَاتَ النِّطَاقِ. ثُمَّ لَحِقَ النَّبيُّ ﷺ وأَبُو بَكْرٍ بغَارٍ في جَبَلٍ يُقَالُ له: ثَوْرٌ، فَمَكُثَ فيه ثَلَاثَ لَيَالٍ، يَبِيتُ عِنْدَهُما عبدُ اللَّهِ بنُ أَبِي بَكْرٍ، وهو غُلَامٌ شَابٌّ لَقِنٌ ثَقِفٌ، فَيَرْحَلُ مِن عِندِهِما سَحَرًا، فيُصْبِحُ مع قُرَيْشٍ بمَكَّةَ كَبَائِتٍ، فلا يَسْمَعُ أمْرًا يُكَادَانِ به إلَّا وَعَاهُ، حتَّى يَأْتِيَهُما بخَبَرِ ذلكَ حِينَ يَخْتَلِطُ الظَّلَامُ، ويَرْعَى عليهما عَامِرُ بنُ فُهَيْرَةَ مَوْلَى أَبِي بَكْرٍ مِنْحَةً مِن غَنَمٍ، فيُرِيحُهَا عليْهما حِينَ تَذْهَبُ سَاعَةٌ مِنَ العِشَاءِ، فَيَبِيتَانِ في رِسْلِهِما حتَّى يَنْعِقَ بهَا عَامِرُ بنُ فُهَيْرَةَ بغَلَسٍ، يَفْعَلُ ذلكَ كُلَّ لَيْلَةٍ مِن تِلكَ اللَّيَالِي الثَّلَاثِ").

يقْفلُ مُحمَّد ﷺ سِنين قريش، ويَرحل في بدء الخَمسين من عُمره!

قلبٌ تَجاوز عُمْر الشباب، يُزهِر بالأملِ، ويَحمل الغَيم لِطَيبة، ويهدي البَشرية أسرار المَواسم الخَضراء!

لا وقتَ للأحزان.

ها هُو النَّبي ﷺ يُمدُّ بصره، فيَرى سُراقة بِعين النَّبي ﷺ ما لا يرى.

يرى سُفن الإسلام على مَرافئ الفُرس.

ويَرى {المُورِياتِ قَدْحًا} على بِساط كِسرى!

يَرى سُراقة خَيله تَغور في الرِّمال، فيَنتبه إلى الإشارةِ، ويَفهم:

أنَّ أقفال مَكة على موعدٍ مع مَفاتيح مُحَمد ﷺ!

ويروي سراقة خبره: "لمَّا خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ مَكَّةَ مُهَاجِرًا إلَى الْمَدِينَةِ، جَعَلَتْ قُرَيْش فِيهِ مائَة نَاقَةٍ لِمَنْ رده عَلَيْهِمْ. قَالَ: فَبَيْنَا أَنَا جَالِسٌ فِي نَادِي قَوْمِي إذْ أَقْبَلَ رَجُلٌ مِنَّا، حَتَّى وَقَفَ عَلَيْنَا، فَقَالَ: وَاَللَّهِ لَقَدْ رَأَيْتُ رَكْبَهُ ثَلَاثَةً مَرُّوا عَلَيَّ آنِفًا، إنِّي لَأَرَاهُمْ مُحَمَّدًا وَأَصْحَابَهُ، قَالَ: فَأَوْمَأْتُ إلَيْهِ بِعَيْنِي: أَن اسْكُتْ، ثُمَّ قُلْتُ: إنَّمَا هُمْ بَنُو فُلَانٍ، يَبْتَغُونَ ضَالَّةً لَهُمْ، قَالَ: لَعَلَّهُ، ثُمَّ سَكَتَ. قَالَ: ثُمَّ مَكَثْتُ قَلِيلًا، ثُمَّ قُمْتُ فَدَخَلْتُ بَيْتِي، ثُمَّ أَمَرْتُ بِفَرَسِي، فَقُيِّدَ لِي إلَى بَطْنِ الْوَادِي، وَأَمَرْتُ بِسِلَاحِي، فَأُخْرِجَ لِي مِنْ دُبُرِ حُجْرَتِي، ثُمَّ أَخَذْتُ قِدَاحِي الَّتِي أَسْتَقْسِمُ بِهَا، ثُمَّ انْطَلَقْتُ، فَلَبِسْتُ لَأْمَتِي، ثُمَّ أَخرَجْتُ قِدَاحِي، فَاسْتَقْسَمْتُ بِهَا، فَخَرَجَ السَّهْمُ الَّذِي أكرَه «لَا يَضُرُّه».

قَالَ: وَكُنْتُ أَرْجُو أَنْ أردَّه عَلَى قُرَيْش، فآخذ الْمِائَة النَّاقَةِ. قَالَ: فَرَكِبْتُ عَلَى أثره، فَبَيْنَمَا فَرَسِي يَشْتَدُّ بِي عَثَرَ بِي، فَسَقَطْتُ عَنْهُ. قَالَ: فَقُلْتُ: مَا هَذَا؟ قَالَ: ثُمَّ أَخَرَجْتُ قِدَاحِي فَاسْتَقْسَمْتُ بِهَا، فَخَرَجَ السَّهْمُ الَّذِي أكره «لَا يضره». قَالَ: فَأَبَيْتُ إِلَّا أَنْ أَتَّبِعَهُ. قَالَ: فَرَكِبْتُ فِي أثره، فَبَيْنَا فَرَسِي يَشْتَدُّ بِي، عَثَرَ بِي، فَسَقَطْتُ عَنْهُ. قَالَ: فَقُلْتُ: مَا هَذَا؟ قَالَ: ثُمَّ أَخَرَجْتُ قِدَاحِي فَاسْتَقْسَمْتُ بِهَا فَخَرَجَ السَّهْمُ الَّذِي أكره «لَا يضره»، قَالَ: فَأَبَيْتُ إِلَّا أَنْ أَتَّبِعَهُ، فَرَكِبْتُ فِي أثره. فَلَمَّا بَدَا لِي الْقَوْمُ وَرَأَيْتهمْ، عَثَرَ بِي فَرَسِي، فَذَهَبَتْ يَدَاهُ فِي الْأَرْضِ، وَسَقَطْتُ عَنْهُ، ثُمَّ انْتَزَعَ يَدَيْهِ مِنْ الْأَرْضِ، وَتَبِعَهُمَا دُخَانٌ كَالْإِعْصَارِ. قَالَ: فَعَرَفْتُ حِينَ رَأَيْتُ ذَلِكَ أَنَّهُ قَدْ مُنِعَ مِنِّي، وَأَنَّهُ ظَاهِرٌ. قَالَ: فَنَادَيْتُ الْقَوْمَ: فَقُلْتُ: أَنَا سُرَاقَةُ بْنُ جُعْشُمٍ: انظروني أكلمكم، فوالله لَا أَرِيبُكُمْ، وَلَا يَأْتِيكُمْ مِنِّي شَيْءٌ تَكْرَهُونَهُ. قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِأَبِي بَكْرٍ: "قُلْ لَهُ: وَمَا تَبْتَغِي مِنَّا؟" قَالَ: فَقَالَ ذَلِكَ أَبُو بَكْرٍ، قَالَ: قُلْتُ: تَكْتُبُ لِي كِتَابًا يَكُونُ آيَةً بَيْنِي وَبَيْنَكَ. قَالَ: "اكْتُبْ لَهُ يَا أَبَا بَكْرٍ").

تَبدو خطوات الهِجرة بلا صَدى على الرِّمال..

تَبدو عُبورًا عابرًا..

ويظَنُّ بعضُ الرُّعاة أنَّ خطوة الرَّكب عاثِرة!

فقَد كان طريقُ الهجرة فارغًا إلا مِن مُحَمَّد ﷺ وأبي بكر.

وكان النَّبي ﷺ حينها ذاهبًا، كيْ يَصنع زِحام العَودة!

كانَ طَريق الهِجرة مسكونًا بالحَذر، مليئًا بعبادة الأسباب، مليئًا بمعنى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [سورة الفاتحة: 5].

سلك طريق الساحل واختار دليلًا ماهرًا، (يبيت عندهما عبد الله بن أبي بكر وهو غلام شاب ثقف لقن فيدلج من عندهما بسحر فيصبح مع قريش بمكة كبائت فلا يسمع أمرًا يكتادان به إلا وعاه حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام)، واختبأ في الغار فاستحق المعونة، إن المعونة على قدر المؤونة! "ما ظَنُّكَ يا أبا بكرٍ باثنينِ اللهُ ثالثُهُما"!

وسار في طريق متعرج وليس في طريق مستقيم كما هو طريق القبائل، واستغرق 14 يومًا.

كان النَّبي ﷺ ذاهبًا كيْ يصنع في أصواتِ العائِدين، (جاءَ الحَقُّ وزَهَق الباطِل) نشيدًا يَشُدُّ نَشيدًا!

ذاهبًا، كيْ يشدَّ الصَّحب أقواسًا لبدر وفَتْح مكَّة!

ذاهبًا، وقد أَسرج خيله بِنطَاقيْ أسماء، كيْ يَصنع جَيشًا تمهرهُ تضْحياتُ النِّساء!

حيثُ تُنذر المَرأة وهْجها، وقِلادتها، ونِطاق خصْرها، لصهيلِ الخيل!

(المرأة في زمنِ مُحمد ﷺ، تُدلِّل الخيل، وتَهبه بَريقها)!

كانت أسماء تَكتب نصَّ الأُنوثة الحَقيقية، وتُخبرنا أنَّ زينةَ النِّساء هَشَّة، إلا إذا تَوَشَّحت بها أعناق الفَاتحين!

مِن بَعدِ أسماء قَصَّت النِّساء شُعورهنَّ لِخَيلِ الفَتح.

وارتَفعت أسماء بِزينة المَرأة إلى خلودِ الجِنان (نِطاقَان في الجَنَّة)!

يَعْبرُ النَّبي ﷺ عبرَ الغار تَحوطه ثِقة (إنَّ اللهَ مَعنا).

تلوكُ الجاهِلية بقَاياها، فالهِجرة توقيتُ البِداية لانتهاءِ الجُروح!

تَسقُط قَطرة عَرقٍ مِن جَبين مُحَمد ﷺ، وتَغرق في الرِّمال المُلتهبة.

تلك القَطرة هي أول نُقطة في طُوفانٍ مُحتَدم، سَيجمعه مُحَمد ﷺ من عَرق الصَّحابة!

سَتمضي مَلايين اللحظات، قَبل أن تكتَشِف قُريش أنَّ محمدًا ﷺ كان ذاهبًا كيْ يَكتُب بصمتٍ عميق مَرثية قُريش الأخيرة!

ذاهبًا..

كيْ يَصنع رجالًا، يتَّكئ الإسلام عليهم، فلا تأكلُ الجَاهلية مَنْسَأتهُ أبدًا!

ذاهبًا..

في سنواتٍ عَشر، لنْ يَشيخ فيها، لأنَّ الذين يَبذرون في صَمت حكيم، تُزهر حُقولهم على حينِ غَفلة من الجاهِلية، ولا يَبقى في أعمارِهم مَوطئ حُزن!

الهِجرة..

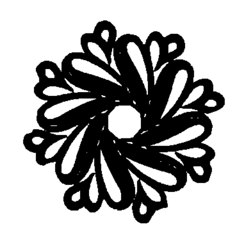
هي درسُ السَّماء، أنَّ العِطر لا يفوحُ إلا إذا كان مَكنونًا.

لذا، هاجرَ النَّبي ﷺ كيْ يزرع الجنائن بِعرَق الصَّمت، حتى تتَنفَّس عِطرًا أبَديًّا في مآذنِ الأرض!

عليكَ الصَّلاةُ والسلام، يا من مسَحْتَ بِسَعيٍ لا يَكِلُّ عن قلوبِ الأمة الجاهِلية، فارتَدَّ بِتَعبك القلبُ بَصيرًا!

نحنُ يا رسولَ الله، مَن نَقصمُ ظُهورنا بالعَجزِ، ولو فَقِهنا فِكرة الهِجرة، لَمَا نبَت لنا في الطَّريق الطُّغاة!

عمر هِجريٌّ على خُطى النَّبيِّ ﷺ، مليءٌ بالسَعي يا أُمَّتي!




14
طلع البدر علينا،
وينتهي التلاشي
وتبدأ خطّة
النهار!

ها قَد وصَل! يركض غزالٌ مِن الأشواق، وحَقل مِن الأحلام، والنَّهار يَنهمر، وفي صُدور الصحب خُيولٌ صَهيلها الفَرح، ها قَد وصَل!

(كانوا يغدون كل غداة إلى ظاهر المدينة ينتظرونه، حتى إذا اشتد الحر عليهم عادوا إلى بيوتهم، حتى إذا كان اليوم الذي قدم فيه انتظروه حتى لم يبق ظل يستظلون به فعادوا، وقدم الرسول ﷺ وقد دخلوا بيوتهم، فبصر به يهودي فناداهم: "معاشر العرب هذا جدكم الذي تنتظرون، ها قَد وصَل").

وصل النبي إلى قباء يوم الاثنين الثامن من ربيع الأول على رأس سنة 13 من النبوة..

يستفيقُ النخيل، ويكادُ سَلمان الفارسي يَرى النبوءة، يُهرول، فَمع الآتي بقية وصايا الأنبياء..

(فَوَاللَّهِ إِنِّي لَفِي رَأْسِ عَذْقٍ لِسَيِّدِي أَعْمَلُ فِيهِ بَعْضَ الْعَمَلِ وَسَيِّدِي جَالِسٌ إِذْ أَقْبَلَ ابْنُ عَمٍّ لَهُ حَتَّى وَقَفَ عَلَيْهِ، فَقَالَ فُلانُ: قَاتَلَ اللَّهُ بَنِي قَيْلَةَ، وَاللَّهِ إِنَّهُمْ الآنَ لَمُجْتَمِعُونَ بِقُبَاءَ عَلَى رَجُلٍ قَدِمَ عَلَيْهِمْ مِنْ مَكَّةَ الْيَوْمَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُ نَبِيٌّ، قَالَ فَلَمَّا سَمِعْتُهَا أَخَذَتْنِي الْعُرَوَاءُ (برد الحمى) حَتَّى ظَنَنْتُ سَأَسْقُطُ عَلَى سَيِّدِي).

يَتراكضون باحثين عنه، تَعلو الدُّفوف ويَسيل نورٌ أخضَر، طَلع البَدرُ علينا.

يُقبِّله الرمل والعُشب والغَيم، آلافُ القلوب تندَّى عليها الشَّوق فَبلَّل الأحداقَ دَمعًا.

(استقبله خمسمائة من الأنصار، فأحاطوا بالرسول ﷺ وبأبي بكر وهما راكبان، ومضى الموكب داخل المدينة)، وصلَ رسُول اللّـهِ، وطَلع البَدر! والأنفاسُ جذلى.

قال الصحابي البراء بن عازب: "ما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم برسول الله ﷺ".

(صَعِدَ الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ فَوْقَ البُيُوتِ، وَتَفَرَّقَ الغِلْمَانُ وَالْخَدَمُ في الطُّرُقِ، يُنَادُونَ: يا مُحَمَّدُ يا رَسولَ اللهِ، يا مُحَمَّدُ يا رَسولَ اللَّهِ).

تسيرُ الناقة على جَمر الهَجير، يهتز حَبل المسافات، كلٌّ يَشتهي لو تميل القَصواء بِعُنقها إليه، وكلَّما خطت بالنَّبيِّ، يهتز الثَّرى فقد عَلا للثُريَّا!

يتناثر في الدَّرب حمامُ المدينة، تدور نواعيرُ البركة، والمدينة عُرسٌ مِن الحَبق.

ينتثرُ النُّور بألوانِ الشَّفق.

يتشبَّثون بعباءته فتنهمرُ رائحةٌ نبوية العَبق، وعلى الشِّفاه بَسملة.

وفي راحتيه غَيمة، والنَّدى طيَّبَه الطِّيب، وفي عَينيه وحيٌ نَديٌّ!

يتلهَّفون لِهَمسة منك، فالصَّوت حبَّات المطر، (يا أيُّها الناس: أفشُوا السَّلام، وأطعِموا الطَّعام، وَصلُّوا بِاللَّيْلِ والنَّاسُ نِيام، تَدْخُلُوا الجنَّة بِسَلَام)!

يُمسك أحدهم بناقته:

إنِّي أتيتُ إليك فانظُر إليَّ، أنت مَن أيقظتَ النُّور في مُقلتيَّ..

إنِّي أتيتُ إليك وعُمري سِرب أسئِلة، إنِّي أتيتُ إليك ومَحض القُرب مِن قَدميك مَنزلة!

ينتثرُ قلبٌ بين يديه: يا رسول اللَّـه، لأحلامِنا الظَّمأى أنت، قَمحنا مِن بَيدرك، نَدنو لنرشفَ كوثَرك..

وَاللَّهُ مَن رآكَ بقلبه، ما أنكَرك!

يتلمَّس ثانٍ رِكاب قَدميه: أخشى عليك، وكيفَ لا أخشى عليك، وكلُّ المُنى دون شَفاعتك مؤجَّلة.

كانوا سُيولًا مِن الحبِّ، كأنَّها الأنهر، أُعيذك ممَّن قال عنكَ، أبتَـر!

أقاموا حولَك الحبَّ سُورًا، فكانوا كافًا، وكان القلبُ نُونك!

يقترب أبو أيُّوب الأنصاري خطْوَةً خطوة، وينثالُ لَهفة، ومِلء دِلاء الرُّوح ظمآن، وفي جُموع الجُموع يشدُّ أثوابه عليه: خُذ نِصف عمري، خُذ كل عمري، دَعني أراكَ في الصُّبح وفي المَساء، هَبني زمانًا مِن زمانك، لعلِّي حين ألمسُ يدك أو يديكَ أرقى هناك، هذا المقام أعظَم ما أراه للقيامة!

ينظُر إليه النَّبِيُّ ﷺ، فإذا المَدى القدسيُّ ألوان، يهتزُّ قلبه الغضُّ ووسع الروح ريَّان..

يُدنيه النَّبِيُّ ﷺ، ويسوق القَصواء إلى بيته، وينالُ شَرَف الضيافة!

اسمع إليه (نزل عليَّ رسول الله ﷺ في بيتي، نزل في السفل وأنا وأم أيوب في العلو، فقلت له: "يا نبي الله بأبي أنت وأمي إني لأكره وأعظم أن أكون فوقك وتكون تحتي، فأظهر أنت فكن في العلو وننزل نحن فنكون في السفل". فقال: "يا أبا أيوب إن أرفق بنا وبمن يغشانا أن نكون في سفل البيت"، قال: فكان رسول الله ﷺ في سفله وكنا فوقه في المسكن، فقد انكسر حب لنا فيه ماء، فقمت أنا وأم أيوب بقطيفة لنا ما لنا لحاف غيرها نكشف بها الماء تخوفًا أن يقطر على رسول الله ﷺ منه شيء فيؤذيه، قال: "وكنا نصنع له العشاء ثم نبعث إليه فإذا رد علينا فضله تيممت أنا وأم أيوب موضع يده فأكلنا نبتغي بذلك البركة").

تدور الدِّلاء في آبارِ المدينة للوضوء.

يتبتَّل الزيت في قَناديل البيوت، وتُشرق مِشكاة في كلِّ قَلْب، وغَدا الصَّباح أذانًا، والمدينة مَرقى جبريل، وهي التي تَناثر الموت في أزمانها، سُبلًا!

تشدُّ الابتهالات الأنفاس، وفي المَحاريب، فانوس الصَّلاة مع محمد!

في البَدء صلَّى حيث أدركَته الصلاة.

ثمَّ على ظَهر القصواء بحثَ، فلمَّا بَركت في مَربد ليتيمين ففرحا ورفضا قبول البيع وقالا: "بل نهبه لك يا رسول الله"، فأبى رسول الله ﷺ أن يقبله منهما هبة حتى ابتاعه منهما ثم قال: "هَذَا إنْ شاء اللَّــه المَنزل".

يغمس الطين ويسيل الماء مبتهجًا، ما أجمل الترب بين يديك حين تمسه الآمال، كانت الحِجارة بألوانِ السَّماء، كلُّ حَجر هو أفُق، هو وعــد، وهو هُوية، حَجَر وراءَ حجر.

هُنا ينتهي التلاشي وتبدأ خطَّة النهار، هنا الألوان الأولى للَّوحةِ القادمة.

لوحةٌ، لا تعرف العَتمة إليها طريقًا!

هنا يغيب الجمال في آلائك، وتتوه العظمة في بهائك.

وبحاسَّة الروح، يسمع مُحَمَّدٌ ﷺ صدى «اللَّــهُ أَكْبَر» في المآذن.

يَملؤهم غبار المدينة، ويَنفضون عن قلوبهم غُبار مكَّة!

صوتُ النِّعال المُمزَّقة، حبَّات عرَق تَسيل، وفي الأيدي المُنهَكة، بِضع لُقيمات!

يَحملون جُوعهم إلى النَّبيِّ ﷺ، وبِقلبه يُصغي إلى قلوبهم، فيترنَّم:

"اَللّهُمَّ إنَّ الأجرَ أجرُ الآخرة، فارحَم الأنصار والمُهاجِرة".

وتُكتب القصيدة بهم، ومِنهم، وإليهم: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [سورة التوبة: 100].

الأنصار والمهاجرة ينثرون في هَواء المدينة الوعود المرتّلة: ﴿لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ﴾ [سورة التوبة: 108].

يرى رسول الله عمار بن ياسر أشعثَ متعثِّرًا بالفَقر، يَحمل لَبِنَتين، يقتربُ منه: "يا عمــار، ألا تَحمِلُ لَبِنةً لَبِنة، كما يَحمِلُ أصحابك؟"، فيرد: "إنِّي أريدُ الأجرَ عند الله! باسِقات المقامات، كانت لها البواطِن سَواقي، أريدُ الأجر، مَشدودة النوايا نحو الأعالي".

يراه يحمل الحجارة وغدًا هم الأمة في الغيب، (ويح عمار تقتله الفئة الباغية يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار)!

يَنفضُون الدُّجى، ويَهدُر موجُ الرُّوح بِـــ "اللهُ أكْبَر".

تعشُب الأمنيات، ويَبذر النَّبِيُّ ﷺ الحُجرات، نَبِي يَبني على رمل المساجد مَنْزِلَه.

وتتنزل الآيات: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [سورة الحشر: 9]، شرع نظام المؤاخاة في السنة الأولى من الهجرة، حيث آخى الرسول بين المهاجرين والأنصار على الحق والمواساة، والتوارث بعد الممات دون ذوي الأرحام.

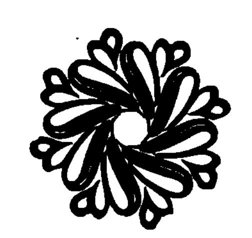
وقالت الأنصار للنبي ﷺ: "اقسم بيننا وبين إخواننا النخيل"، قال: "لا"، فقالوا: "تكفوننا المؤونة ونشرككم في الثمرة"، فقالوا: "سمعنا وأطعنا".

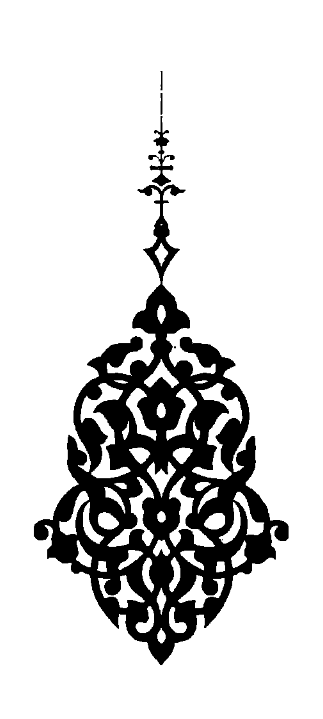
وفي أقاصي المَدينة شُحوب بني يهود، فَقد صار مُلكهم في مقبرةِ الكلمات!

يكتُب النَّبِيُّ لُغة الدولة الجَديدة..

وبالوثيقة، يُنهي امتداد الشحوب فينا، (وأنَّ ذمَّة الله واحدة يُجير عليهم أدناهم، وأنَّ المؤمنين بَعضهم موالي بعض دونَ الناس. وأنَّه مَن تَبِعنا مِن يهود فإنَّ له النَّصر والأسوة غير مَظلومين ولا مُتناصر عليهم. وأنَّ سلم المؤمنين واحدة لا يُسالم مؤمنٌ دون مؤمن في قِتال في سبيل الله، إلا على سواء وعدل بينهم، و.. و.. أنَّهم أمَّة واحدة)!

وبعدَها، أنبتَ الغيمُ على أعتابِنا الزَّرع!






15
وصلى النبي بهم
صفوفًا كأنهم
بنيانٌ مرصوص

هل يبلغ الخيال مشهد أن يرى النَّبي ﷺ في الصلاة بالمسلمين إمامًا؟ تلك والله خافياتُ الأماني.

ها هو في مسجده وأبو بكر عن يمينه وعمر عن يساره والصحب صفوفًا خلفه، والإمام هو النَّبي ﷺ!

والإمام هو النَّبي ﷺ! صلاة خلفه هل في الأرض ما يكفي من الأوقات!

يُصَلّي بِتَأَنٍّ، ويَتلو بِتَمهُّل، يتَمهَّل، إذْ كان يُعَلِّمنا كيفَ نخيطُ الجِراح في الصَّلاة!

كانَ نبيًّا مِن مِسك السَّكينة جُبِل، فلا عَجلةَ في صَلاته.

والصَّحبُ كُلها على آثارِه تَسعى!

قال ﷺ: "صلوا كما رأيتموني أصلي"، وبعدها امتلأت أعين الصحابة بالتفاصيل!

﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [سورة الفتح: 29].

كانَ رُكُوعُه وسجوده قريبًا من قيامه، وَإِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرُّكُوعِ وَبَيْنَ السَّجْدَتَيْن، كل ذلك كان قَرِيبًا مِنَ السَّوَاء!

يقفُ، فيَتندَّى العرقُ منه حياء مِن رَبِّه، يَلُمُّ الخَشية في جَوفه ويُصَلِّي.

يرونه يقرأ (الفاتحة في الظهر والعصر والعشاء من أوساط المفصل، وفي الفجر من طواله وفي المغرب تارة من طواله).

فإذا سجَد، تَجمعُ الأَرض قَطراتَ الدُّموع، وتَنبُت الرَّوضة المُباركة حيثُ صَلَّى النَّبي!

قَرَأَ يومًا فِي الصُّبْحِ بِالصَّافَّاتِ، وَروى لنا أَنَس أَنَّهُمْ حَزَرُوا فِي السُّجُودِ له قَدر عشْر تَسبيحات!

كانت تِلك صَلاة، تُومضُ بالحَنين لله، بالحَنين لِمَدى بَعيد، بالحَنين للزَّمن اللانهائي.

بالحَنين لِلَحظة الرُّؤية لله!

ولقدْ قيل لمُوسى {اخلعْ نَعليك} لما اقترب، وقيل لمُحمَّد {اسجُد واقتَرب}.

أَتُراك التَقَطْتَ المَعنى، وأدركتَ حالَ القُرب في هَذا المقام؟!

كانَ النَّبي ﷺ نَجمةً في عَتيمِ الدَّهر، يَسجُد فَيُطيل الدُّعاء.

كانَ واسعًا في دُعائه، مثل انتشارِ الزُّرقة في السَّماء، يتَّسعُ لنا، يتَّسع لِكَثرتنا، يتَّسعُ في الدعاءِ لأمته.

وتَمتدُّ يداهُ غُصنين مِن الدُّعاء، فَتُثمر لنا مِن الله عَفوًا! كانتْ يده، يدًا تَمتدُّ إلى السَّماء، فَتهزِمُ القَلق، تهزمُ الحُزن، تهزمُ الأذَى. علَّم الصحابة أنه: (أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا الدعاء). هذه الصَلاة، التي لا نَفقدُ بعدَها ما نُحبُّ! قلوب صفت فاقتربت، وإن لون المَاء مِن لونِ الإناء، فيا الله، طَهِّر آنِيَتنا، حتَى تَليق بتَجلِّي القُرب فيها! واقف في تبتله وخلفه الصحب، يتحرَّك الدَّمعُ في المَآقي، ويهتَزُّ الوَجدُ ويسقون من كأس الحب سلسبيلًا.

أما في قيامه فاسمع ما قال حذيفةُ بن اليمان رضي الله عنه:

صَليتُ مَع النَّبي ﷺ ذاتَ ليلةٍ، فافتتَح البَقرة، فقلت: يركعُ عند المَائة، ثُم مَضى، فقلت: يُصلِّي بها في رَكعة، فَمضى، فَقلتُ: يركعُ بها، ثمَّ افتتَح النِّساء فقَرأها، ثمَّ افتتَح آلَ عِمران فقَرأها، يقرأُ مُترسِّلًا، إذا مَرَّ بآيةٍ فيها تَسبيح سبَّح، وإذا مَرَّ بسُؤالٍ سَأل، وإذا مَرَّ بِتَعوُّذٍ تَعوَّذ، ثمَّ ركَع، فجعلَ يقول: "سُبحان ربيَ العَظيم"، فكان رُكوعه نَحوًا مِن قيامه، ثمَّ قال: "سَمِع الله لِمَن حَمِده"، ثمَّ قامَ طويلًا قريبًا مِمَّا ركَع، ثمَّ سجَد فقال: "سُبحان ربِّي الأعلى"، فكانَ سُجوده قريبًا مِن قيامه.

لماذا نَعجزُ عن ذلك؟ لأنَّ وَزنَ الخَطيئة الجاثِم على ظُهورنا، يُثقلنا كثيرًا!

كان ﷺ في الخَمسين مِن عُمره، يُصلِّي من أوَّل الليل حتَى نُعاس الأعين، فلا يَنتهي إلا وقَد تناولَ الصَّباح.

يَبكي في صَلاته، فتتَّسع حدَقة القَلب، ويَشفُّ ما وراءَ الغَيب، وتَستفيقُ الرُّؤى الصَّادقة.

(إذ الدُّموع، نافِذة المُبصرين إلى السَّماء)!

كانَت صَلاته نورًا على نُور، وأنَّى للبَشَرِ أنْ تطيق ذلك!

لكنَّ البَصيرة التي رأتْ الجنَّة، تَفهم المَعنى، وما يَعقِلُ المَعنى، إلا مَن ذاق!

تَذْكُر عائِشة عليها السلام أنَّ نَبيَّ الله ﷺ كانَ يَقُومُ مِنَ اللَّيْلِ حتَّى تَتَفطَّرَ قَدَمَاهُ، فَقالَتْ عَائِشَةُ: "لِمَ تَصْنَعُ هذا يا رَسولَ اللَّهِ، وقدْ غَفَرَ اللَّهُ لكَ ما تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وما تَأَخَّرَ؟"، قالَ: "أفلا أُحِبُّ أنْ أكُونَ عَبْدًا شَكُورًا"!

أيقنتُ يا الله، أنَّك إذا توَلَّيت قلبًا، ملأته بالشَّوق، ملأته بالحُبِّ.

تَتوهُ المُفردات في الشَّوق له، ووَحده الدَّمع يُكني عن شدَّة الحَنين لِزمانه!

(أفلا أُحِبُّ أنْ أكُونَ عَبْدًا شَكُورًا!)، ذاكَ جوابٌ، فيه أَلقٌ يَشُدُّكَ نحو السَّماء.

أَلقٌ، تَوَقَّدَ مِن وَلهِ عابِدٍ، ومِن شَوقِ ساجِد، لا يُشبعه إلا رُؤية الوَجه الكَريم!

كان النبي يعلِّم الأمة أن الصَّلاة رسالةٌ نُقدِّمها لله، نُصلِّي، كيْ تُصبح الطُّرق المِعْوَجَّة مُستقيمة، فإذا اعْوَجَّتْ الصَّلاة، فما للعُمر مِن صَلاح!

صلى النبي فعلَّم الصحابة الصَّلاةَ، صلاة مَن مسَّته وحَشةُ الغِياب.

صَلاة مَن مَسَّته وَحشةُ الذُّنوب، صَلاة مَن مَسَّته وَحشةُ الانطفاء!

وعلى هدي النبي ارفَع قلبكَ إذا رَفعْتَ التَّكبيرة، وقُل: (يا مَولاي، ارفَع مِن قَلبي كلَّ هَذا الخَراب)!

علِّم نفسك كيفَ نضعُ الخَطو على الخَطو، وكيفَ يَتْبعُ القلبُ القَلب.

وإذا أرَدت أنْ تَدخل مَقام الوُدِّ، فَزِد على ما فرض اللهُ مِن جِنس ما فرض الله..

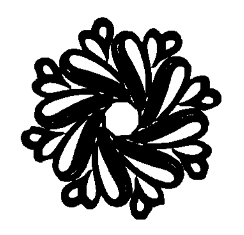
وابْتَغِ في صَلاتك بينَ الوَصل والحُبِّ سَبيلًا.

ودَليلُ الحُبِّ هو الاتِّباع، ألَم يَقُل الله: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِى﴾ [سورة آل عمران: 31].

اليوم بَيننا وَبينك يا رَسول الله، فقرُ القَلب، وَيُتْمُ الصَّحائف مِن هَديك، وفَراغُ السِّجلات مِن زمَانِ الوَصل!

وكُلما أفلتَتْ خطوةٌ مِن الهَدْيِ النبوي، وقَفْنا على حَوافِّ البُعد! وَقَفْنا على حَوافِّ العَطَش!

(نعوذ بكَ يا ربِّ مِن عُمرٍ لا اتِّباعَ فيه، ونعوذُ بكَ مِن صَلاةٍ تَملؤها الثُّقوب، ونعوذُ بكَ مِن عَينٍ لا دَمع فيها).




16
المسجد مكان
مُدارسة القُرآن،
مكان فهم النص،
مكان فكّ قيود
الأرض!

بنى النبي المسجد وبدأ يزرع نخيل الأمة، ويبنيهم بالقرآن للفتح والحضارة وخلود الفردوس الأعلى، ينشِّئهم بالقرآن آية آية، وكان هو معنى كل آية! و(كان خُلُقُه القُرآن).

ها هي تلتئم الصفوف في المسجد بِتَراتيلِ الصلوات وقيام الأَسحار، ويتذوقون نعمة الله عليهم ﴿إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [سورة آل عمران: 164].

يقرأ النبي فيهم الآيات فتَسمعُ فيها انكِسار الصَوت بالوَجَل، إذا تَلا النَّبي ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [سورة فاطر: 15].

يَمُدُّها بتوجعٍ، فَيرجعُ الصَّدى فقيرًا، كأنَّه يقولُ، حَقيقٌ عَلينا إليكَ الإياب، حَقيقٌ عَلينا إليكَ الإياب!

يَتلو، فإذا المَخارج قويَّة، كأنَّ الحُروف تنبعثُ مِن صهيلِ الثَّبات.

فإذا تَلا، حبسَ القلوبَ على صوته كأنَّهم ألفاتٌ على سُطورٍ قيام.

فإذا صَمت، جَهدت النُّفوس أن تعودَ لحالها!

والقلوبُ من دون هدية، مَفتونةٌ مُعجَبة بشأنها، وما في حُلوقهم إلا ترجيع الغِناء!

كانَت تَمضي المدينة خِفافًا لِمَدارج القُرب، تلوذُ بالتَّسبيح، ويُؤدي الدَّمع في أنحائِها صلاةَ الشَّوق.

فالخَلوة الصَّادقة، لا تَخلو من العَبرة!

كان يَنصت النَّبي ﷺ لِحَفيف أجنِحة جِبريل، تُرَفرف حولَ الصلوات، يَلهجُ بالشَّوق، فالمسجد مكان مُدارسة القُرآن، مكان فهم النص، مكان فكِّ قيود الحَياة!

تطيرُ أسرابُ المَلائكة في المدينةِ، وتَهبِط في ولَهٍ على ضِفاف المسجد.

فهنا ليلٌ مُمتلئ بنيات، تَفوحُ بنورٍ أبديٍّ.
واللهُ وحده على العَرش من يسمعُ هَرولة الخَفقات!
واللهُ وحده..
مَن يسمعُ تَعويذة القَلب المُحَمَّدي مِن ليلٍ يَدوم!
واللهُ وحده..
كانَ يسمعُ قلب نبيِّه، ينَبض بِهَمسٍ خَفيٍّ:
أتَينا إلى اللهِ بالله، فلقَد كان اللهُ وحده في صَلاته!
كان صَوته في سَمْعِ الملأ الأعلى يَرِفُّ.
وعلى حصير مسجده يتَوسَّد النَّبي ﷺ البياض سِجادة لقَلبه ويُصَلِّي!
تَنثني المَفاصل في شَوقٍ والِهٍ، يتَساقطُ التَّسبيح من شفَتيه، وَردًا، وتصيرُ بقعته رَوضة مِن فَرحٍ سَخيٍّ!
تَهبطُ الملائكة بِخُشوع، يَطفو حولها حُبٌّ مُحمَّدي.
تَنغمرُ الصحابة في الاقتراب مِن النَّبي ﷺ، مثل جَداول تَلتقي بالمَصَبِّ!
تَموجُ المدينة بِبشَاشةِ اليَقين، ويَصمت قلبه عن الدُّنيا، إذ الجنَّة هي كلُّ ما يَرى.
(كان له ﷺ حزب يقرؤه، ولا يخل به، وكانت قراءته ترتيلًا لا هذا ولا عجلة، بل قراءة مفسَّرة حرفًا حرفًا، وكان يُقطِّع قراءته آية آية، وكان يمد عند حروف المد، فيمد (الرحمن) ويمد (الرحيم).
تَذوبُ أفئدةُ الصحابة إذا تَلا النَّبي ﷺ وردَّد: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾! [سورة المائدة: 64].
يَسمعها مهاجر إلى المدينة قدْ ضَجَّت مُقلتاه مِن التَّعب.
يُرَدِّد الآية ثُمَّ يقول: ربٌّ هذه يَداه، كيفَ إذن للنَّبع أنْ ينْضَب!
ويَمضي، كأنَّه امتلَك دليلَ الرِّحلة إلى الأُمنيات!
وحولَ النَّبي ﷺ، تنهمرُ الصحابة في الحَنين، تفرُّ إلى صوتِ النَّبي ﷺ، وتَشتهي لو تَنغمسُ في التَّرتيل.
فصَوتُ النَّبي بعضُ النَّعيم!

أوَّاهٌ في الحُبِّ، وتكادُ السَماوات تَميلُ إذْ يَميل، يَمُدُّ الآيات مَدًّا، كأنَّها حبالُ الشَّوق إلى الله.

يتلو الرَّحمن، فينهالُ الصَوت نُورًا، وتَنتشي الجنَّة، ينفتحُ له المَدى سُلَّمًا، (كان ﷺ يتغنى بالقرآن ويرجع صوته فيه أحيانًا).

تنصت الصحابة وتُهَرول أطياف المَلائك، وتُعانق "الياءَ" المَمدودة بالحُزن في صَوته، إذْ يُرتِّل (نِداءً خَفيًّا).

ويُصبح الليل غَيثًا خَفِيًّا!

(كان إذا قام بالليل يصلِّي يُكْثر القراءة، ويترسَّل في الآيات، ويدعُو عند آيات الرحمة والعذاب منها، ويُنزِّه ربَّه عند آيات التسبيح) ويعلم الصحابة كيف يتشربون القرآن.

يَهَبُ نَسيم العَطايا على الكَفِّ الخالية مِن الهَوى.

وتَمتلئ أزمانُ الجنَّة بالدَّهشة، ويفورُ الكوثرُ من شِدَّة الشَوق لمُحَمَّد!

يَرتدي النَّبي ﷺ الأدب في صَلاته، وَيظَلُّ في غيوبِ التِّلاوة سابِحًا.

تَطرُق الآيات قَلبه، مثل أنامِل المَطر، فتَنسَكِب دُموعه، ولا تَدري كيفَ يصيرُ الدَّمع منه مُزنًا!

يا للهِ، لقَد كانَت ابتهالاته تشفي جِراح الرُّوح مِنَّا!

يَتلو: ﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ﴾ **[سورة لقمان: 16].**

فَيهتز ويظَلُّ يَبتهل، كأنَّ الخِطاب له وَحده، لقد كانَ يتَّقد بالتَّوسل للمَغفرة، يكادُ الشُّحوب يُصيب قلوب الصحابة، إذْ تراهُ يَرتجفُ في سُؤاله، يَئِنُّ خَوفه وهو يَتلو: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ﴾ [سورة الرحمن].

ويَهرع قلبهُ فيقول، ولا بشيءٍ من آلاءِ ربِّنا نُكَذِّب!

ويعلِّمهم: "لقدْ قرأْتُها (يعني سورةَ الرحمنِ) علَى الجنِّ ليلَةَ الجنِّ، فكانوا أحسَنَ مردودًا منكُمْ، كنتُ كلما أتيتُ على قوله فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ قالوا: ولَا بشيءٍ مِّنْ نعَمِكَ ربَّنا نُكَذِّبُ فلَكَ الحمْدُ".

ويظَلُّ في سورةِ الرَحمن، فإذا أطلَّ فجره، كانَ مَرْويًّا بالرَّحمة!

يقرأُ في الصَلاة ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ [سورة الطارق: 9]، فتبدأُ حُروف الآية من قَلبه..

ويَرقى الدَّمع إلى رُوحه.

ويَغيبُ في يومٍ، تصيرُ السَّريرة فيه علَانية، يوم تكونُ الألوان كلها فيه، بلونِ الضَّمير لذا كانت تَرتجفُ روحُ النَّبي ﷺ، فقدْ ضجَّ قلبه باليَقين!

وكانت الصحابة تراقبه وتستلهم منه معنى: ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾ [سورة المزمل: 4].

ذاك جِذع تعلَّق بصوت النَّبي، وابتل بالقرآن.

نبيٌّ، ترتيله مُناجاة، يَسْمعه الجِذع، فيشتكي الشوق ويحنُّ!

يئنُّ بصوته، والصوت رُوح، لا تَخون!

يئنُّ، حتى كأَنَّ الحزن في أوتاره..

(كانَ يخطبُ إلى جِذعٍ، فلمَّا اتَّخذَ المنبرَ حنَّ الجِذعُ فاحتضنَهُ فسَكَنَ، فقالَ: "لو لم أحتَضِنْهُ، لحنَّ إلى يومِ القيامةِ").

يرفُّ خياله ﷺ في الروضة، يتهَاوى الوَجع على أثره، ويفيءُ الحبُّ للحبيب.

ويبتدي القلبُ إلى قلب النَّبي ﷺ عروجه!

عالِقٌ شذى صوت النَّبي ﷺ بالجِذع، فاجعل لك بالقرآن صوتًا، تشتاق له السَّماوات والأرض!

طلب النبي -عليه الصلاة والسلام- من ابن مسعود ﷺ قال: "اقرَأْ عليَّ النِّساءَ". قال: قلتُ: "أقرأُ عليك وعليك أُنزِل؟"، قال: "إنِّي أحبُّ أن أسمعَه من غيري". قال فقرأتُ عليه حتَّى إذا انتهيْتُ إلى قولِه فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا الآيِة، فرفعتُ رأسي فإذا عيناه تَهمِلان وقال: "حسبك الآن".

رباه، كيفَ يبلغُ العبد هذا المقَام؟

الذين غادروا الشهوات اقتَربوا، وهذا طعمُ الخَبر، فكيفَ طعم النَّظر!

وقد قالها يحيى بن مُعاذ إذْ قال: "لستُ آمُركم بِتَرك الدُّنيا، بل آمُركم بِتَرك الذُّنوب، تَرْكُ الدُّنيا فَضيلة، وتَرْكُ الذُّنوب فَريضة، وأنتُم إلى إقامةِ الفَريضة أحوجُ مِنكم إلى الحَسنات والفَضائل".

إنَّ الشَّهوة زِمام الشَّيطان، ومَن غابَ فيها، ماتَ في الحَجْب.

وما يزالُ دينكَ مُتمَزِّقًا، ما دامَ قلبكَ بِحُبِّ الشَّهوات مُتَعلِّقًا.

لذا، حوِّل عين القَلب مِن الأشياء، إلى رَبِّ الأشياء.

تَعلَّم على خطى نبيك كيفَ تُعلِّق قلبكَ بالقرآن.

لو تَعَلَّق، ما زادكَ الوِرْدُ عليه، إلا ارتـواء، ما زادك الوِرْدُ عليـه، إلا شَوقًا.

القُرآن نعيمُ العارِفين، فقلْ أدْرِكنا به يا مَولاي، يا رب، بَعْثَرتُ ذاتي فاجمَعني بالقُرآن!

تعَلَّم المُدارسة على هدي النبي ﷺ، ودَعْ عنكَ ظاهِر القِراءة.

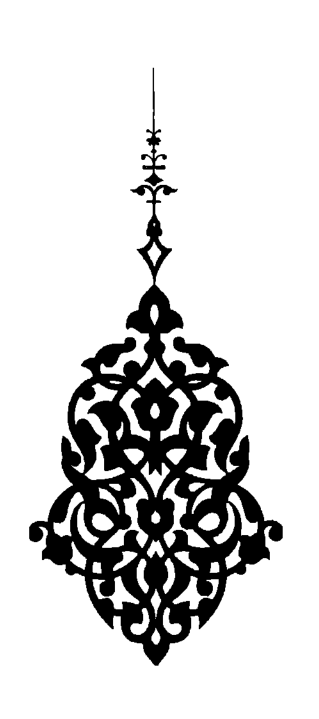
القِراءة الظَّاهرة، إغفاءَة الوعي، والمدارسة للقَرآن، يقَظة.

اليوم يتردَّد القرآن في أسماعنا، من آل عمران إلى الأنعام..

أعوام وأعوام، ما تعلَّمنا سوى الإخفاء والإدغام!

اليوم تقرأُ أُمَّة النَّبي ﷺ القُرآن، لكن الهَاوية لا تزالُ تَمشي إلى أقدَامها، لمَاذا؟

لأنَّ الأُمَّة تتلو القُرآن بالشِّفاه، وبينَ القُلوب وبينَ معاني التَّغيير في القُرآن، صَوتٌ كأنه يقولُ كل عامٍ {لا مِساس}.




17
﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ
نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ
رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾
[سورة الإسراء: 79]

ما تنتقيه العين للقلب في جنح الظلام يبقى في الروح طويلًا، وقد كان النبي يقتاتُ الدَّمع من حَنين الروح في صَوته المرفول بالسَّبع المثاني، كان يحيلُ الصَّخر ندى، فتخضرُّ الصَّحاري!

نبيٌّ امتلك لغة (يَرشفُ النَّحل من أعماقها العَسل)، ذاك صوتٌ، امتلأ بالبَوح.

وإنما الحب اتباع فليكن قيامك ومُناجاتك بالقرآن على هَديه ﷺ، وإياكَ من تلاوة حافية الرُّوح!

لا يكن بَرقك بَرقًا خاليًا.

إنَّ خير البرق، ما الغيثُ معه، فأغثْ تلاوتك بالمُناجاة!

واسمع عبد الله بن مسعود: "صَلَّيْتُ مع رَسولِ اللهِ ﷺ فأطَالَ حتَّى هَمَمْتُ بأَمْرِ سَوْءٍ، قالَ: قيلَ: "وَما هَمَمْتَ بِهِ؟" قالَ: "هَمَمْتُ أَنْ أَجْلِسَ وَأَدَعَهُ".

قمْ بهَدي النَّبي ﷺ في مناجاة التلاوة، عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا.

(قُمِ اللَّيْلَ) على هدي نبيك، واقْرأ سورة الأنفال، يَصهل الخيل، ويُصبح المَقاس للأُمنيات المدى.

وقُل: اللهم لحاقًا ببدر، وعَوذًا بك من انكفاءةِ الخذلان في الأمّة!

(قُمِ اللَّيْلَ) على هَديِ نبيك، واقرأ البَقرة، فترى يدَ قابيل في تناسُل بني إسرائيل، وتَنكشف لك الرُّؤى!

تفضحُ التوبة لون المُتربِّصين بالحلم المنتَظر!

(قُمِ اللَّيْلَ) بالضُّحى، يبسُط القلب جناحيه، إذا تلا: ﴿وَلَسَوْفَ يُعطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾ [سورة الضحى: 5]. فردد، أعطنا حتى ترضينا!

قف بقلبك عند عَتبة الآية: ﴿أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوز﴾ [سورة هود: 72]، أرجع القول مرتين، وتهجَّى الحلم من وسط الحُطام، وانظر كيف صيغ من مطَر! هُنا البدايات التي لا تنتهي!

(قُمِ اللَّيْلَ) على هَديِ نبيك، واتل: ﴿رَبِّ اغفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا﴾ [سورة ص: 35]، ذاك نبيٌّ يغتسل بالعَفو، فيَطوي له الملك طيًّا!

هُنا، تُسلِّمك الآية مفاتيح التمكين فتنبَّه!

وتأمَّل: ﴿وَاسْتَبَقَا البَابَ﴾ [سورة يوسف: 25]. كانت الخطوات تعدو، نَحو الانفلات من الفتنة، يفور زَبد الشهوات!

{واستَبقا}.. إذ الوقوف في المُنتصف، ضياع، وكانَ ذلك في الميزان عند الله صدى ثقيلًا!

(قُمِ اللَّيْلَ) على هَديِ نبيك، واجثُ على ركبتيك، وقُل: أعوذُ بك من ملء الروح حُزنًا..

وملء العَين دمعًا، إذا كل السِّباق وكان ليس إليك!

فإذا بلَغْت: ﴿إِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيهِنَّ﴾ [سورة يوسف: 33].

قل يا ممسك الدَّهر في فضيلة الفَقر والاعتراف..

وقُل عندها: يا رب، أنتَ من بَثثتَ الروح في الغَريزة، فالطُف إذْ صارت الفتنة قابَ قطفة من يدي!

أعوذ بك من وعَثاء الفتن، ووَحشة الزَّلل، أعوذُ بك من قناع الفضائل، وأنت تَعلم ما تحته.

اللهم لا تمتحنْ قلوبنا بما لا تملكه!

وافْهم قوله ﴿رَضَوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الخَوَالِفِ﴾ [سورة التوبة: 87]، إذ هرموا في العَجز، حتى صاروا في خَريف القوافل!

جفَّت لهم الطُّرقات، فصاروا خوالف!

وقُل: رباه، لا تجعل عُمري مسمارًا في النعش، لا تجعل حياتي بالبُعد عنك جنازة!



وإذا تلوتَ: ﴿وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾ [سورة طه: 85]. اسألْ نفسك: هلْ تخضرُّ حدائق الغفلة؟

حدائق حَصادها كحصاد العِجل، ووعدها، لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا.

كرر الآية وقُل: يا رب، أعوذ بك من تقلُّب القلب، ومن إمام يقودني للتِّيه.

ومن سبات أمام عِجل، يَلتمع!

(قُمِ اللَّيْلَ) على هَدي نبيك، واتلُ ﴿قُلِ اللهُ يُنجّيكُم مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ﴾ [سورة الأنعام: 64].

ردِّدها، وقُل: أعوذ بالله من بُكاء الجراح التي لا تُشفى!

اقرأ ﴿وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَىءٍ قَدِيرٌ﴾ [سورة آل عمران: 189].

هنا، تَتزاحم الأماني إذا علا صوت قلبك بالآية، ويتَمكَّن اليقين تمَكُّنًا!

عن الله، لا تلتفتْ، فما زال في الخزائن متَّسع!

وإذا تلوتَ ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللهِ﴾ [سورة يوسف: 86].

فاعلَم أنَّه، في الأوجاع الخفيَّة لا ملائكة تكتب الأنَّات المكتومة، وحده الله، يبلُغه الصدى!

فإذا بلغت ﴿سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي﴾ [سورة مريم: 47].

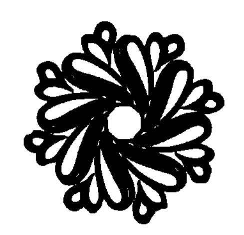
تلذذ بها، فما أجمل المُناجاة بها، إذا صادفت توقيت السَّلام!

وإذا بلَغت سورة الهُمزة، فقل: أعوذ بالله من كلمٍ، ظاهره التذكير، وباطنه اللمز!

يُنادي النبي علينا (إنَّ في الجَنَّةِ غُرفًا يُرى ظاهرُها من باطنِها، وباطنُها من ظاهرِها، أعدَّها اللهُ تعالى لِمَن أَطعَمَ الطَّعام، وأَلانَ الكلام، وتابَع الصِّيام، وأفْشَى السَّلام، وصَلَّى باللَّيلِ والناسُ نِيام).

(قُمِ اللَّيْلَ) على هَديِ نبيك، كانوا يتعلَّمون صلاته وقيامه وتلاوته بل وسكتاته، يتأملون سَعة ابتسامته، إيماءةَ عينه، وربيع دُعائه، يحاولون إعادة الخطوات، ويُرتِّبون فوضى الحياة بِسنته!

مُحمَّدٌ ﷺ، هو الزمان الذي طالَت سنَابله، فتَعوَّذْ بالله، من صوارِف الهمَّة عن السُّنَّة!





18

معركة بدر وأسباب المدد

كانت بدر هي المسافة بين المحراب وبين الحراب! يهيئ النبي صحبه في المدينة والتوقيت في تاريخِ السماءِ!

وسُيوفُ الملائكةِ تُؤوي أحلامَ الصَّحابةِ العاملين، وتتهيأ ليومٍ صبيحتُهُ معركةُ بدرٍ.

كانَ الوعدُ من اللهِ في نفوسِ الصحابةِ إيمانًا، لكنَّ الوعدَ يتنزَّلُ بسلاسلِ الأسبابِ!

تَميلُ الشَّمسُ إلى جهتِكَ، تُنبِتُ لك زَرعَك، أو تَزاوَرُ عنك حتَّى لا تحْرِقَكَ، أو ربَّما تتوقَّفُ ساعةً تحسِمُ لك المعركةَ، مثلَ يوشَع، تفعلُ لكَ ذلك، إنْ كنتَ بدريًّا في اكتمالٍ!

لقد كانتْ معركةُ بدرٍ، معركةَ إقرارِ الحَقائقِ!

إذ كشَفتْ علانيةً، عن أسبابِ المدَدِ الإلهيِّ.

وكيفَ تُقطَفُ الأحلامُ، ويُحَصْحِصُ بين يديكَ الفَجرُ!

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾

[سورة آل عمران: 123-126].

لقد كشفتْ معركةُ بَدرٍ أنَّ طاقةَ المؤمنِ، مثل زِنادٍ يبلغُ المُستحيلَ، إذْ يقولُ اللهُ ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾ **[سورة الأنفال: 65].**

فالمُؤمنُ في طاقةِ إنتاجِه، يَفوقُ عشرًا، وهذا بعضُ معنى الحديثِ (وَكُنْتُ يده الَّتي يَبْطِشُ بِها)!

فإنْ تدَنَّى العبدُ، كان الواحِدُ باثنين، ﴿فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾ [سورة الأنفال: 66].

ولا أقلَّ من ذلك!

في بدر (خرج من المسلمين ثلاثمائة وبضعة عشر رجلًا، منهم من الأنصار بضعة وأربعون ومائتان، ولم يكن معهم إلا فرسان، كان رسول الله ﷺ في الخمسين من عمره وقطع على رأس أول جيش في الإسلام 165 كم، ما بين المدينة المنورة وبدر، ولم يكن معهم سوى سبعين بعيرًا يتعاقبونها، وروى عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: كنا يوم بدر كل ثلاثة على بعير وكان أبو لبابة وعلي بن أبي طالب مع رسول الله ﷺ. قال: فكانت عقبة رسول الله ﷺ فقالا له: نحن نمشي عنك -ليظل راكبًا- فقال: «ما أنتما بأقوى مني، ولا أنا بأغنى عن الأجر منكما“).

لقد كشَفتْ معركةُ بَدرٍ.. أنَّ التَّوحدَ بينَ الروحِ البشريةِ والروحِ المَلائكيةِ، يُشْرِعُ الأبوابَ للتنزُّلِ العلويِّ، ويَمنَحُ الأيدي المُقاتلةَ سُيوفًا سماويَّةً. فحينَ تجاورَتْ أرواحُ أهلِ بدرٍ مع أرواحِ الملأ الأعلى، استَحقوا اختلاطَ الأنفاسِ في القتالِ! كشَفَتْ معركةُ بَدرٍ.. أنَّ ترسانةً تعكِفُ على صناعتِها بكلِّ ما تملِكُ، يُمدها اللهُ بما يُحيلُها حديدًا، ولو كانتْ ضُلوعك التي بين جَنبيكَ! لذا أطلق صهيلَك حتى يبلُغَ المدى، عندها، تَتنادى لك الملائكُ بالأثرِ!

قال المقداد بن عمرو في بدء الأمر: «يَا رَسُولَ اللَّهِ، امْضِ لِمَا أَرَاكَ اللَّهُ فَنَحْنُ مَعَكَ، وَاللَّهِ لا نَقُولُ لَكَ كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى: اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلاَ إِنَّا هَا هُنَا قَاعِدُونَ، وَلَكِنِ اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلاَ إِنَّا مَعَكُمَا مُقَاتِلُونَ، فَوَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَو سِرْتَ بِنَا إِلَى بَرْكِ الْغِمَادِ لَجَالَدْنَا مَعَكَ مِنْ دُونِهِ حَتَّى تَبْلُغَهُ». ثم قام سعد بن معاذ رضي الله عنه وقال: «لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ فَوالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ، لَو اسْتَعْرَضْتَ بِنَا هَذَا الْبَحْرَ فَخُضْتَهُ لَخُضْنَاهُ مَعَكَ، مَا تَخَلَّفَ مِنَّا رَجُلٌ وَاحِدٌ فَسِرْ عَلَى بَرَكَةِ اللَّهِ»، وعندئذٍ قام ﷺ مبشِّرًا أصحابه.



صَلِّ باشتعالِك، وهرولْ إلى اللهِ بثَوْرةِ الإيمانِ، صَلِّ صلاةَ تائبٍ عن خيانةِ الجهادِ!

فالجهادُ، أن تبذلَ وُسْعك.

وسورةُ الأنفالِ، تُخبرُك أنَّك قادرٌ أن تمتدَّ على كلِّ أطرافِ السَّواحلِ بسَعيكَ، فأنتَ بروحِ عشر مُقاتلين!

لرَكعةٌ في جِهادِ الوُسْعِ، تَنْصِبُ لك أمواجًا من الأجرِ، أحبُّ إلى اللهِ من رَكعةِ جَسدٍ، كان قادرًا أن يصنعَ الفُلْكَ، لكنَّه تركَ الطُّوفانَ يَغْمُرُ المآذِنَ!

لا تخشَ الحَربَ، فالسَّيفُ لا يَسلِبُ الرُّوحَ، إنَّما يَسلِبُ الرُّوحَ، الوَهنُ!

الوَهنُ، يضعُ لك فواصِلَ في وثيقةِ العبورِ إلى الفِردوسِ الأعلى، ويَظلُّ بكَ حتَّى تصيرَ في هامِشِ الشَّرفِ!

لما خشي المسلمون قلة عددهم قال لهم رسول الله: "سيروا على بركةِ اللهِ وأبشروا، فإنَّ اللهَ قد وعدني إحدَى الطَّائفتين، واللهِ لكأنِّي الآنَ أنظرُ إلى مصارعِ القومِ".

لقد كشَفَتْ معركةُ بدرٍ..

عن بصيرةِ المؤمنين، فرأوا الملائكةَ على خيلٍ بِيضٍ، كلُّ حبَّةِ رملٍ، تنتفضُ في أيديهم قهرًا على الظَّالمين.

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ **[سورة الأنفال: 9]..**

كانتِ الكائناتُ تصلّي لأجلِ بَدر، وترتِّلُ الملائكةُ سُورةَ الأنفالِ. ﴿سيُهزمُ الجَمْعُ ويُولّونَ الدُّبُرَ﴾ [سورة القمر: 45].

يومَها كشفتْ معركةُ بدرٍ.

عن الإيمانِ الثائرِ، أنَّه وحده منْ يمتَصُّ لُهاثَ العَجزِ فينا!

ترى كمْ مِن الإيمانِ نحتاجُ كي نكونَ مثلَ بَدريٍّ؟

مثلَ شلَّالِ سنابل، خطوتُهُ في الأرضِ، تُكتَبُ بخَطوةِ عِشرين مُجاهدًا!

(أَعدُّوا)، هكذا كانَ الأمرُ فأَعَدُّوا كلَّ الوُسْعِ.

(علم الحبَّاب بن المنذر من رسول الله أنَّ المَنزل الذي نزله الجيش هو من باب الحرب، وليس أمرًا من الله لا يُمكن تجاوزه، فأشار عليه بخُطَّة مُحكَمة مَفادها أن ينزل الجيش بأدنى ماء من المشركين، ويُبنى عليه حوض يُملأ بالماء ليشرب المسلمون منه دون المشركين، فأخذ رسول الله بمشورته).

(ثم سوَّى النبي الصفوف صفوفًا، فجعل الصفوف الأمامية تُقاتل بالرماح، لمواجهة فرسان العدو، أمَّا بقيَّة الصفوف فقد كانت ترمي العدو بالنِّبال، مع رباط الصفوف جميعها في مواقعها حتى يَفقِد المشركون الزخم في عددهم، فتتقدَّم الصفوف كلها مُهاجمةً العدو، وبذلك يكون رسول الله قد اتَّبع أسلوبًا جديدًا في القتال يَصلح للدفاع والهجوم في آنٍ واحد، الأمر الذي مكَّنه من إدارة قوَّة جيشه، وتأمين قوَّة احتياطية للطوارئ، على خِلاف أسلوب الكَرِّ والفَرِّ).

ثمَّ قَـلَّ العددُ، فاستحقوا المَدَدَ!

كانتِ السَّماواتُ مَلأى بالوُعودِ، وعلى الأرضِ، علاماتُ مَصارعِ القومِ.

كلُّ الجهاتِ كانتْ حُبْلى بغيمِ النَّصرِ، "لكنَّ الأبوابَ لا تُفتَحُ دونَ طارِقٍ"!

لذا ظلَّ النَّبيُّ جاثيًا على رُكبتيه، في ليلةٍ، كانتْ تَصْهَلُ خيلُ الملائكةِ فيها في عرْضِ السَّماواتِ كلِّها، وتنتظرُ دعوةَ النَّبيِّ كيْ تَدنو وتتجلَّى، مثلَ بَرْقٍ خاطِفٍ، يقلِبُ الموازينَ لصالحِ مَن أعدُّوا!

وعن عليٍّ رضي الله عنه قال: "ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد، ولقد رأيتُنا وما فينا إلا نائم، إلا رسول الله تحت شجرة يصلي ويبكي حتى أصبح"!

نظر إلى المشركينَ فإذا هُمْ ألفٌ وزيادةٌ فاستقبَلَ النبيُّ -صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِه وسلَّمَ- القِبلَةَ، ثم مَدَّ يديْهِ وعليه رِداؤُهُ وإزارُهُ، ثم "اللَّهمَّ أينَ ما وَعَدْتَني؟ اللَّهمَّ أَنْجِزْ لي ما وَعَدْتَني، اللَّهمَّ إنَّكَ إنْ تُهلِكْ هذهِ العِصابةَ مِن أهلِ الإسلامِ، فلا تُعْبَدُ في الأرضِ أبدًا"، قال: فما زال يَستَغيثُ ربَّهُ -عزَّ وجلَّ- ويَدْعوه حتى سَقَطَ رِداؤُهُ، فأتاهُ أبو بكرٍ ﷺ فأخذ رِداءَهُ فرَدَّاهُ، ثم الْتَزَمَهُ مِن وَرائِهِ، ثم قال: "يا نَبيَّ اللهِ، كَفاكَ مُناشَدَتُكَ ربَّكَ، فإنَّهُ سيُنْجِزُ لكَ ما وَعَدَكَ".

لصالحِ من سَقطتْ عَباءَته مِن شدَّةِ الدُّعاءِ عن المَناكبِ!

بالإعدادِ، والدُّعاءِ، اكتملَ الترتيلُ، فاستحقوا التَّنزيلَ!

الإيمانُ الواعي، تِلكَ هي قصَّةُ بَدرٍ.

لا، الإيمانُ الباكي!

كان النبي في يقينه يدرك أن المدد فوق الأعداد والإعداد لمن استعدوا.

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُواْ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَى إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [سورة آل عمران: 123-125].

يحشد المدد من حيث تبدأ معادلة الصبر على صناعة النصر والتقوى في ترك أسباب الهزيمة.

ثمَّ انظرْ إلى هذا المعنى في نبيِّك، وهو يُؤوي أسرى بَدْرٍ، يَمنحُهُم لحظَةَ الإنسانيةِ المَفقودةِ، إذْ يجلسون إلى أطفالِ المسلمين، يُعلِّمُ كلُّ أسيرٍ عشرةَ أطفالٍ القراءةَ والكتابةَ، ثمَّ يتحررُ!

كان يومَها، يخلِقُ وظِيفةً جديدةً للأسيرِ، لا تعرفُها البشريَّةُ، يَعتِقُ بها أبناءَنا من الجهلِ، ويعتقُ أولئك الأسرى من وَحشيةِ نفوسِهم!

كان يترُك المقاتلين مع الأطفالِ، ليتعلَّموا فِطرةَ الحَياةِ، وبراءَةَ المشهدِ الأصِيلِ.

ويصنع لهم مَهمَّةً جميلةً، بديلةً عن السَّيفِ والدَّمِ!

كمْ مرةٍ ضَحكوا مع الصِّغارِ، وهم يكتشفون القراءةَ والخُطوطَ، ويتلَعثمونَ، ويَنجحونَ، ويصفِّقون فرحًا بما فعلُوا!

وكيف غادَرَ المُقاتلون مدينةَ النَّبي، وقد تَركوا بِضعةً لهم فيها، وذِكرياتٍ صَاخبةً حَميمةً!

كيف كانَ يخلُقُ الحياةَ، ويُعيدُ بناءَ الإنسانِ، ويَمنحُ الحياةَ مذاقًا جديدًا!

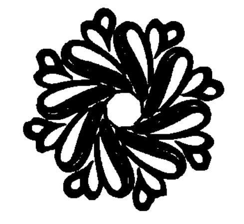
مَنْ سِواكَ يا رسُولَ اللهِ، يصنعُ مِن السَّيفِ قلمًا!

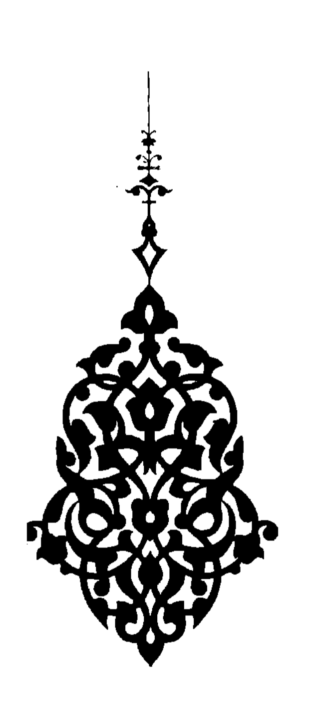
مَن سِواكَ، يَخلُقُ مِن المُقاتلِ مُعلِّمًا!

وتنبَّهْ، أنَّه عُوتِبَ في توقيتِ الفِعْـلِ، ولم يُعاتَب في الفعلِ!

بدْرٌ هي بدرُ الحقيقةِ، أنَّ النّصرَ ربانيُّ السِّماتِ والشَّمائلِ.

فإنْ فهمْتَ معركةَ بدر فقد فهمت أسباب هزيمتِنا فلا تُجادلْ.







يكتب النبي ﷺ بالدعاء، نص الميراث للأمة، وكان سجوده مثقلا بالوصايا

انتصر المسلمون في غزوة بدر وعلَّم النبي الأمة عظمة الدعاء.

إنَّ الذين يَئِسوا من الأُمنيات، لمْ يجرِّبوا سُجود النَّبي ﷺ.

كانت أثقالُ أمةٍ في نَزف صوته.

يرفُّ الدعاء في سمَع الملأ الأعلى، وترفُّ رحمَة الله، إذ يتوقَّد في بُكائه على سجادة البَوح!

ويكأنَّ صوته، صوت مِئذنةٍ يبلُغ بالدُّعاء مقاليد العَرش.

تتوقَّد (آمين) في فَم الملائكة الكرام.

يَرقى صوته في المَعارج، يَلمُّ السَّلام لنا.

الأرض حوله، مثل باحة من يَباب، ومُحمد ﷺ، يكتُب بالدعاء، نص الميراث للأمة.

كان سُجوده مُثقَلًا بالوصايا، مُثقلًا بالأُمنيات العِظام!

تقرأ الملائكة بالمَهابة صوته.

تتوضَّأ النَسمات من طُهر فجره، ويذوبُ الغَيم في بياضِ قلبه!

لا كهولة في يقينِ مُحمَّد، لا كُهولة في الأمنيات!

تَنفسح الرُّؤى من دعائه.

ولولا تَوسُّله، لهوَتْ أرواحنا في مَتاهات الجَزع.

أنَّ النبيَّ ﷺ تَلا قَوْلَ اللهِ -عزَّ وجلَّ- في إبْراهِيمَ: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فإنَّه مِنِّي﴾ [سورة إبراهيم: 36]، وقالَ عِيسَى عليه السلام: ﴿إنْ تُعَذِّبْهُمْ فإنَّهُمْ عِبادُكَ وإنْ تَغْفِرْ لهمْ فإنَّكَ أنْتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾ [سورة المائدة: 118]، فَرَفَعَ يَدَيْهِ وقالَ: اللَّهُمَّ أُمَّتي أُمَّتِي، وبَكَى، فقالَ اللَّهُ -عزَّ وجلَّ- :

"يا جِبْرِيلُ اذْهَبْ إلى مُحَمَّدٍ، ورَبُّكَ أعْلَمُ، فَسَلْهُ ما يُبْكِيكَ؟"، فأتاهُ جِبْرِيلُ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- فَسَأَلَهُ فأخبره رَسولُ اللهِ ﷺ بما قالَ، وهو أعْلَمُ، فقالَ اللَّهُ: "يا جِبْرِيلُ، اذْهَبْ إلى مُحَمَّدٍ، فَقُلْ: إنَّا سَنُرْضِيكَ في أُمَّتِكَ، ولا نَسُوؤُكَ".

يلمح القَبول، فيصيرُ قلبه حَرمًا إذا عانقَتْهُ الإجابة!

نَبيٌّ، له سَندٌ في السُّجود مُتَّصل.

وإذا دعا في السجود، كان قلبًا على القلوب مُقسِمًا، ليله، سِراج متَّقد!

فكن على الهدي، فإنَّ زيت النُبوة لا يَنطفئ.

تعلَّم سجوده: يطيلُ السجود، حتى يظنَّ الصحابة أن أمرًا قد حدث!

قال الناسُ: "يا رسولَ اللهِ، إنَّكَ سجَدْتَ بينَ ظَهْرَانَيْ صلاتِكَ سجدةً أطَلْتَها".

السُّجود مِعراج الصِدِّيقين، ورُبَّ سجدة، تُشعل لك مِشكاة الخلود نعيمًا!

يسجُد طويلًا، وهو في الستين من عمره! يحرس لنا الدنيا والآخرة!

قال النبي: "لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجابَةٌ، فَتَعَجَّلَ كُلُّ نَبِيٍّ دَعْوَتَهُ، وإنِّي اخْتَبَأْتُ دَعْوَتي شَفاعَةً لِأُمَّتي يَومَ القِيامَةِ، فَهي نائِلَةٌ إنْ شاءَ اللَّهُ مَن ماتَ مِن أُمَّتي لا يُشْرِكُ باللَّهِ شيئًا".

تأَمَّل نَبيك مُحمَّدًا ﷺ.

لا شَيء يُشبهُ مُحمَّدًا ﷺ في دُعائه، لا شَيء يُشبه النَّبي.

كانَ خَفيًّا في نَجواه، ولكنْ دَمعه في الدُّعاء كان يُضيء صَمته!

يُمَجِّد الله إذا بدأ الدُّعاء، فَترتدي الحَياة صُبحها، وتُورِق المدينة!

صَوته في الدُعاء كانَ يُميط الأذى عن طُرقات الأُمَّة، وينثُر لنا فيه الخَير كله!

يشيخ النبي ﷺ ويظَل دُعاؤه فَتيًّا لا يَشيخ.

تتَخايل له الفِتنة الآتية، ويَشفُّ له الغَيب، يرى المَحجوبَ عَنَّا.

فيُخبِّئ ببصيرته المَرئيَّ، ولا ييأس، ويُطيل السُّجود بالدُّعاء: أُمَّتي أُمَّتي!



يُصَلصِل الوَحي في مسمعه، ويَحشِد جبريل أجنحتَه حوله، فقد اهتَزَّت السَماوات لِوَجع مُحمد ﷺ، ويقولُ له الله: "إِنَّا سَنُرْضِيكَ فِي أُمَّتِكَ وَلَا نَسُوؤكَ!".

على أطرافِ صَوته في الدُّعاء، تَمتدُّ خارطة الفَتح.

يشْتدُّ صَهيل الخَيل، وتَنهمرُ كتائبُ المَلائكة في بَدر، يسقطُ رداؤه عن ظهره، ويداه تمتدُ نحو السَّماء!

كان دُعاؤه يُدافع الأقدار عنًّا، فرُبَّ دعوة، جَلَبَتْ نِعْمَةً.

ورُبَّ دعوة، سَلَبَتْ نِقْمَةً!

و.. الإجابة إنَّما تكون بعد الاستجابة، الدُّعاء مِنك، والإجابة مِنه.

الاجتهاد مِنك، والتَّوفيق منه.

التَّركُ منكَ، والحِمية منه، التَّركُ مِنك، والحِمية عن ذهاب الدعاء سدى منه.

فأقِم انهيارَ الرُّوح، واشْدُد على الثَّبات وُقوفك!

يَدعو النبي ﷺ لدينه ويستجيب الله، فتَرى من أثر دعاء النبي قائِدًا مُسْلمًا قد نذَر أنْ لا ينيخ المَطايا إلا على أسوارِ الصِّين.

يشرَب الخيلُ من نهر الصِّين، وعلى النَّواصي، جَدائل النسوة اللاتي أرسَلن أكفانَ أولادهنَّ في الجَيش!

يدعو النبي ﷺ، حتى كأنَّ الله سَكب في عَينه أُفُقًا غايَته المُنتهى.

فقد كان الدُّعاء مَدرسة مُحمَّد ﷺ.

كان في الطَّلب إمامًا، والإمام للعَوائق لا يَلتفت!

ثقْ أنه لا شيء يَحُدُّ الأحلام، إذا كان الله المُنتهى.

فانْخَلِع مِن حَولك وقُوتك، واستَطرِح بين يدي الحَقِّ -عزَّ وَجل- بلا حَول ولا قُوة، يُجِبْ صَوتك!

يرتسمُ الفَتح على شَفَتَي النَّبي ﷺ، إذا دَعا.

ويتَعلقُ اليَقينُ بأستارِ الآيات، وَتنفتح البَصيرة على أسوارِ القُسْطَنطِينية، ويُبَشِّر أُمَّته بعَواصم بَعيدة!

وقد قيل، مَن عكَف على البابِ، دخَل الرِّحاب.

ومَن كان في حياته لله طالبًا، صارَ بالخير مَطلوبًا.

وكُلٌّ يطيرُ بِجَناحِ هِمَّته، وإذا امتَلأ صَوتك بالله، صارَ يَهدي!

في الخَمسين مِن عُمره ويُطيلُ السُّجود بالدُّعاء، حتى يَظنَّ الصَّحب أنَّه قَضى.

ذاكَ دُعاءُ أُولي العَزْم وربي!

وبالدُّعاء، كان النَّبي ﷺ يُبدد التَّعب، حتى تَتنفَّس الأحلامُ كأنَّها الرُّؤى في مِحرابه!

هلْ تَعلم..

أنَّ فتح الله -عزَّ وجَل- لا يأتي، إلا لقلبٍ خالٍ ممَّا سواه؟

ومَن عرف الله، كَلَّ لسانه في الطَّلب عن سواه!

اليوم نحن ندعو، ولكنَّا لا نذوق ذلك! لأن إطراق طَرْفِ العَينِ لَيسَ بنافعٍ، إذا كانَ طَرْفُ القلبِ ليسَ بمطرِقٍ، اسأل نفسك ماذا في قلبك، وماذا في لسانك؟!

تنبه أنه ما دامَ لسانك يذوقُ الحَرام، فلا تَطمع أنْ تذوقَ شَيئًا مِن حَلاوة الدُّعاء!

الحَلال، هو المَسافة نحو طَوق النجاة! وقد كان نبيك يخشى من لقمة فيها رائحة الشبهة!

كان النَّبي ﷺ في صَوته دومًا، شوقٌ لِنُصرة الإسلام.

يطلُّ مِن شَفةِ المُناجاة الدعاء، فيَتَّقد الحُلم.

تَقتربُ المَلائكة مِن وَهْجِ النُّور، يَنتشي الوُجود، يدعو النبي فيجمع شتات الحلم لنا.

ويا قُرب الرُّوح مِن أحلامها، إذْ يدعو لنا!

كانت همةُ النبي ﷺ في الدعاءِ عالية، وقدْ قيل (حيثما وقف قلبُك تكون منزِلتُك).

على قَدر هِمَّتك، تُعطى، أمَا علمتَ، أنَّ اللسان غلامُ القَلب! وأنَّ هَمَّكَ، ما أهَمَّك!

تبلُغ ذلك بالصدق، الصِّدق يُقدِّمك عند الله، ويُوقِظك، والكَذب في عمقك يَردُّك عَن المقامات.

نحن كُلَّما ابتعَدنا عن هَدي النَّبَي ﷺ، تَشعَّبْنا في الرَّماد!

يدعو النبي ﷺ للإسلام، فَتُحمل أعمدةَ الرُّومان على ظُهور الجِمال من الشَّام، لِيَبني عُقبة بن نافع مسجدًا في تُونس، وتُرفع المَنابر، وتُخْلي الغَابات للصَّحابة وحوشها، وتُدني لهم عَناقيدها الدَّعواتُ!

كانَ دُعاؤه من صدقِه، مثل دعوة قالت عَليها الملائكةُ: آمِينا!

إذا صحَّتْ خَلوتك مع الله -عزَّ وجَل- أدهَش الله سِرَّك وصَفى لك دَربك!

وإذا تولَّى اللهُ قَلبًا بالقبول، أقْبَل.

فلا يزالُ أبدًا مُستيقظًا صافيًا، لأنَّه قد صَفت آنية قَلبه.

يُرى مِن ظَاهرها باطِنها، حتى يقال: عبدٌ قدْ وَرِث عن نَبيه ﷺ، اليقَظة في المُناجاة!

يَجري الدُّعاء على لسانِ النَّبي ﷺ، بلَهفة، وَيُهرول قلبه نحو أبديةِ النَّعيم.

وعلى حوافِّ الضوء الذي يُشبه وُجوه الصَّافِّين أقدامهم لصَلاة الفَجر، تَلمح المآذن تبلُغ أطرافَ العالم.

كانَ النَّبي ﷺ يشرق في الدُّعاء، وكأنَّ الكونَ كلهُ صار مَسجدًا، فيا لثقةِ القَلب بِرَبِّه!

كانَ النَّبي ﷺ بلاغة الرُّوح في اكتمال، تَجوبُ التأوُّهات في عُمقه، وبنبرةٍ مُنكسرة، يردُّ على الأُمنيات صَحْوها!

إذ لا دمعةَ عند الله مُهمَلة، لذا، لا تَدْعُ بلسانِك، وَقلبك مُعترض، فذاكَ مِن سوء الأدَب!

والله ما فتحَ اللهُ جَلَّ جَلَالُهُ على أحدٍ بابَ مسألةٍ، فَخزَن عنه بابَ الإجابة!

وعِنْدَ تَنَاهِي الشِّدَّةِ، تَكُونُ الْفَرْجَةُ، وعِنْدَ تَضَايُقِ حَلَقِ الْبَلَاءِ، يَكُونُ الرَّخَاءُ!

يا ربِّ، أطلِق لساني، وعلِّمني كيفَ تُورقُ الأَحلام في الدُّعاء!

مُسافرون إليكَ يا الله على هدي نبيك وبالدُّعاء يا مولاي، لا ظَمأ ولا عَطش!

أنَّى يطيق ذلك!

ما كانت القُوى خائرة، لو كان القلب توَّاقًا، وإنما تعجزُ الروح، إذا كانت هشَّة!

إنا نسألك يا الله، ألَّا نشهد موت الروح قبل الأجَل..

إذ الموتُ، أن تحيا مُبدَّدًا، والرُّوح فيك مُتلَفة!

يطيل السجود ويعلمنا أن السجود يخيطُ لك أزرار حزنك المُمزَّق!

(أنَّ رسولَ اللَّهِ ﷺ كانَ إذا كربَهُ أمرٌ يقول: "يا حيُّ يا قيُّومُ برحمتِكَ أستغيثُ").

تكادُ تَطحننا، حوافر النِّهايات اليائسة، وهو يعلمنا أنه: لا يسلُب صوتك، إلا جفَاف اليأس، نحن لنا لَهفة التَّمنِّي، ولله سِرُّ الإجابة، وسِرُّ التَّوقيت، وسِرُّ الدَّهشة!

وما يمنعنا عن اتباع الأثر إلا الذنوب..

حبال الذَّنب مِن مَسد، تشدُّك، ثمَّ تُفلتك في هاوية من حَطب..

وإذا استَحوذ المَقت على قلبٍ، صرَف صاحبه عن أوقات الفَضل!

وَيلٌ للمحجوبين الذين لا يعلمون أنَّهم مَحجوبون!

ورب محمد، إنَّ التهافت على التَّوافه، أكلَ عزيمتنا.

لنْ تَرى الخلق سِراعًا إلى الطاعة وأنت تعجز، إلا ولك ثُلْمة ذَنب!

إن شئت وقعِ القلب على قلب نبيك، أخلِص لله من العوائِق، تخلُص.

أَصدق في السَير، ترَ القلوب تُوصَل، سَلِّم سَعيك من الذنوب، تَسلم..

وافِق نبيَّك، تُوَفَّق.

ارضَ حينها، يُرضَ عنك، أسرِع إذ تمَّم الله عليك!

فحينئذٍ، إذا غَفل العبد، لم يُترَك، وإذا نَسيَ، ذُكِّر، وإذا نام، نُبِّه، وإذا غَفِل، أُوقِظ!

من كان على الهدي نال من معنى (فإنك بأعيننا) نصيبًا.

عليكَ بالخلوة عن النَّفْس، ثمَّ بالخلوة عن الخَلق.

وأحرِق أُمنياتك، واجعل الرياح تذْروها ذَروًا، إن لم يكن فيها لله نَصيبًا!

تسَامَ في سُجودك، واعْلَم، أنَّ موتنا في غيابنا عن خارطة الشُّهود، وأنَّ مقامك عند الله، على قدر هَمِّك!

أعوذُ بالله من هَذر العُمر، وهَذر الأوقات، وأنْ أكون في الناس من السَّاقة!

اللهم اجعلنا للإسلام رَواحل، ولا تجعلنا في القَطيع الغافل!

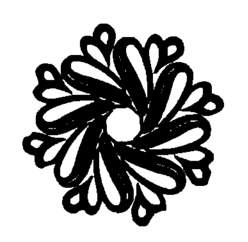
أفرِغ ضياءً في بصائِرنا، وحقَائق الأشياء عَلِّمنا، وارزُقنا اتباع الأَثر!

يا رَسول الله..

يا مُرسلًا عبَق النَّجوى في لَيله، يا صاحِب الشَّوق الصَّاهل في جَنبات الكَون..

أينَ أنت اليوم في دُعائنا! ومَن الذي جَعل غِيابك اليوم فينا وفيرًا!

من دون هَديك، صِرنا ألوانًا مُتلاشية، صِرنا كَومةَ مُتناقضات.




20
وكلما قارب العبد
الصفاء، قارب
المعية

كيفَ بِكُم لو كُنْتُمْ في مَسجد النَّبي ﷺ، وخَرج عليكم بِبردته الشَّريفة من أبوابِ الحُجرات؟

تِلك لَحظةٌ، تَهيم في سُبُحات النَّعيم، لحظةٌ، شَطرها أَلقُ النُّبوة، وشَطر باقيها، أنفاسُ جِبريل.

يراه الصحابة فيتوَضَّؤون بدَمع شوقهم!

فقد أحبوه حبًّا عظيمًا، الحُبُّ هو جسر الوصل، فالحُبُّ، يُورِثُ السَّخاء في الرُّوح.

والمَرء يَصبو إلى مَن يُجانَس، وللقلبِ على القلبِ دَليلٌ حينَ يَلقاه.

يُطلُّ النَّبي ﷺ على أصحَابه في بُردته، راسِخًا في النُّور لا تَشوبه ظُلمة الظَنِّ!

كانَ كُلُّه صَفاءً غيرَ ذِي كَدَر، امتلَأ قَلبه بالصَّفاء، حتَى اشتَعل نَجمًا دَليلًا.

والنور لا يَنهمرُ إلا في قلبٍ تسامى عَن وسواسِه.

كان للنبي ﷺ قلب محى في نَبضه من صَدأ النَّاس، ثمَّ يَمَّمَ شَطر الملأ الأَعلى.

يَمرُّ في خَطايا الناس، فيتَسامى عَن أذاهم، ويَلُمُّ الشَّظايا من الطريق عسى لا يعثر بها قلب عابر.

جلس إلى أصحابه يربيهم إذ (قيل لرسولِ اللهِ ﷺ أيُّ الناسِ أفضلُ قال: "كلُّ مخمومِ القلبِ صدوقِ اللسانِ"، قالوا صدوقُ اللسانِ نعرفُه فما مخمومُ القلبِ؟ قال: "هو التقيُّ النقيُّ لا إثمَ فيه ولا بغيَ ولا غِلَّ ولا حسدَ").

قال اللهُ له: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [سورة الطور: 48]. فخلَع على بابِها كُلَّ الهُموم، وصارَ عُمْره لأُمَّته ظِلًّا ظَليلًا!

وكلما قارب العبد الصفاء، قارب المعية..

لا شَيء كانَ قادرًا أنْ يتَسوَّر قَلبه، لا شَيء، إلا الصَّفح والسَّلام.

كانَ يقولُ: "لا يَبلِّغني أحَد من أصحابي عَن أحدٍ شَيئًا، فإنِّي أُحبُّ أنْ أخرُج إليكم وأنا سليم الصَّدر".

وقدْ قيل، ما استقصى كريمٌ قَطْ، وكان النبي ﷺ كريمًا.

وإنَّما يَقتفي مس الشَّيطان في الناسِ الفارِغين.

ومَن لا طَلب له إلا عَثرات مَن عثَروا، يظَلُّ أسيرَ التتبع، فلا يرقى ولا عينه تبلغ النجما!

كانَ النَّبي ﷺ يَعْبُر بكلِّ عَفو، خطوةً إلى المَلكوت، كانَ وحده في العُبور، وكانَ كَثيرًا!

أدَّبه ربه، ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّـهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَو كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّـهِ إِنَّ اللَّـهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [سورة آل عمران: 159].

ظل يعلِّمهم: "لا تَباغَضُوا، ولا تَحاسَدُوا، ولا تَدابَرُوا، وكُونُوا عِبادَ اللَّهِ إخْوانًا، ولا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أنْ يَهْجُرَ أخاهُ فَوْقَ ثَلاثَةِ أيَّامٍ".

يحدِّثهم: "إنَّ الشَّيْطانَ قدْ أيِسَ أنْ يعبده المُصَلُّونَ في جَزِيرَةِ العَرَبِ، ولَكِنْ في التَّحْرِيشِ بيْنَهُمْ".

فإن شئت هديه، غادِر نفْسَك الباحثة عن الزلل، تَصِل.

غادِر ثَارَاتك، غادِر ما تُقاتل النَاس عليه مِن فُتات.

وقدْ قال الجُنَيد: "مَن فتحَ على نفسه بابَ نِيَّةٍ طَيِّبة، فتَح اللهُ له سَبعين بابًا من أبوابِ التَوفيق".

لمْ يَكُن السلام في حَياة النَّبي ﷺ ومضةَ روحٍ عابِرة، بل كانَ قَرار الحَياة (اللهمَّ اغفِر لِقَومي، فإنَّهم لا يَعْلَمون)!

وقفَ مِن علٍ يُلَقِّن الناسَ النُّور، ويَغسلهم بالكَلِم الأَبيض، (اذهَبوا فأنتُم الطُّلقاء)!

يُحَرِّرهم بلا مَنٍّ، إذْ الكُرهُ قَيدٌ، والعَفو حُرية القَلب، ومُحمَّد ﷺ لا يَغْلهُ الأَمس!

يكادُ يَرى في الغَيب له مُتَّكًا، فَيُهَوِّن على فاطِمة، إذْ يُبكيها ظُلم قُريش، ما مَسَّني الضُّر، ما مَسَّني الأذى!

نَبيٌّ، ما طَرقت الأُمَّة أبوابَ قَلبه، إلا أَلِفَتها مَفتوحة.

إذْ كان قَلبه حَرمًا، لا يَسكنه إلا طاهِرُ الحَمام مِن الأَفكارِ والنِّيات والقِيَم!

ما أَشَق أن يَستَعبِد المَرء ماضِيه، أنْ يَستَعْبده أذَى القَطيعة، فيظَلُّ في قِيعان الذَّات!

فلا تَكن في اتباعك له ناقصَ المَعنى.

واعْلَم، أنَّ مَن يَضيقُ عن السَّلام، ضَريرُ البَصيرةِ، مَطموس الرُّوح، لا يُضيء!

انظر إلى وصْف أصحابِ النَّبي ﷺ الذين ساروا على هديه، يقولُ إياسُ بن مُعاوية في ذلك: "كانَ أفضَلهم، أسْلَمهم صَدرًا، وأقلَّهم غِيبَة".

إنَّ العَفو، تَرنيمة العائِدين إلى مَقام المُحسنين، العَفو، صوتُ النُّفوس التي تسَامت عَن رَجفةِ الانتقام!

العفو صفة المؤمنين، ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [سورة الحشر: 10].

وعلى الهدي أصحابه، فقد قال سُفيان بن دينار لأبي بِشر أحد السَّلف الصالحين: "أخْبرني عن أعمال مَن كان قبْلنا"، قال: "كانوا يَعملون يَسيرًا، ويُؤجَرون كثيرًا".

قال سُفيان: "ولِمَ ذاك؟"، قال أبو بِشر: "لِسلامة صُدورهم".

الصَّفح سِرٌّ دافِئ، لا يَبوح بِثَوابه إلا هُناك!

ما الظَن، ما الريبة، ما الوساوس، لا يُهَرول، مَن يحمِل في قَلبه حَطب جهَنم!

أولئكَ المُثقَلون، مِن أينَ لهم أنْ يُدركوا نعيمَ الظُّهور الخِفاف!

واعلَم أنَّ القُبور كالصُّدور، منها المُضيء، ومِنها المُعتِم.

وتَعبٌ، أن نُضيءَ ما لا يُضاء!

وتلك نِهاياتٌ، كانَت لها بدايات!

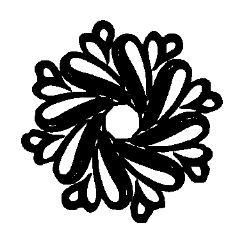
هل تدري ما المسافة؟ المَسافة بيننا وبين النبي، المسافة جراح القلوب..

وتِلك والله سَفر طويل! فإنْ أرهَقك البُعد عنه، فَقُل:

اللهم عَليك بالمَسافات، فإنَّها لا تُعجزك، اللهم اطوِ البعد عنه.

اللهم لا هَزيمة أمامَ قُلوبنا، نعوذُ بك مِن خَلَلِ الخُطى. ونَسألك سلامة الصدر!

صلى عليك الله، ولِيت في عَينيَّ عَبرة نَبيٍّ، وفي صَدري عَفْو مُحَمَّديّ!




21
وحدّثنا أصحابه،
رووا عنه حتى
ارتوينا

يَــا رِحلة المعنى مِن أقصاهُ إلى مُنتهاه، يَـــا دَهشة الخَيال.

تُراودك الدنيا على ألفِ رغبةٍ، فلا تُفارق صبرك الوضَّاء، وتُــسمِعها وصفَك في سورة الأحزاب، ﴿وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ **[سورة الأحزاب: 46]**.

رآه الصحابة في كل أحاينه وشهدوا له: "لم يكن ﷺ فاحشًا ولا متفحشًا، ولا صخابًا في الأسواق، ولا يَجزي بالسيئة السيئة"، وقال جابِر رضي الله عنه: "ما سُئل ﷺ شيئًا فقال، لا".

وقال ابنُ عباس رضي الله عنه: "كان ﷺ أجوَد النَّاس بالخير".

وقال لهم (تصدَّقوا)، ظلَّ يُردِّدها، فقلبه يَعلم أنَّ الله لا يَستقرض، إنَّما يبلو خِيار عباده!

انتعَل المُواساة طريقًا، فَكَفِل السَّائل، وأكثَر للنَّائل، ولسانُ حاله يقول: أقرَضَ اللَّــهُ مَن أقرض!

يتصدَّق بنفسه، ومالِه، ويعلِّمنا بهديه، لا خيرَ في خيرٍ لا يَعُمُّ!

يَــا مَن جعلك اللَّــهُ للمعروف سَبِيلًا، وللخيرِ دليلًا!

روى لنا هند بن أبي هالة: (كانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مُتَوَاصِلَ الْأَحْزَانِ، طويل الْفِكْرِةِ، لَيْسَ لَهُ رَاحَةٌ لَا يَتَكَلَّمُ فِي غَيْرِ حَاجَةٍ، طَوِيلَ السُّكُوتِ، يُفْتَحْ كَلَامَهَ وَيَخْتِمُهُ بِأَشْدَاقِهِ يَتَكَلَّمُ بِجَوَامِعِ الْكَلِمِ، فَضْلٌ لَا فُضُولَ وَلَا تَقْصِيرَ، دَمْثٌ لَيْسَ بِالْجَافِي وَلَا الْمُهِينِ يُعَظِّمُ النِّعْمَةَ، وَإِنْ دَقَّتْ، لَا يَذُمُّ مِنْهَا شَيْئًا لَا يَذُمُّ ذَوَاقًا وَلَا يَمْدَحُهُ وَلَا تُغْضِبُهُ الدُّنْيَا، وَمَا كَانَ لَهَا وَإِذَا تَعَوْطَي الْحَقُّ، لَمْ يَعْرِفْهُ أَحَدٌ وَلَمْ يَقُمْ لِغَضَبِهِ شَيْءٌ حَتَّى يَنْتَصِرَ لَهُ، وَلَا يَغْضَبُ لِنَفْسِهِ وَلَا يَنْتَصِرُ لَهَا، إِذَا أَشَارَ أَشَارَ بِكَفِّهِ كُلِّهَا، وَإِذَا تَعَجَّبَ قَلَبَهَا، وَإِذَا تَحَدَّثَ اتَّصَلَ بِهَا فضَرِبَ بِرَاحَتِهِ الْيُمْنَى بَاطِنِ إِبْهَامِهِ الْيُسْرَى، وَإِذَا غَضِبَ أَعْرَضَ وَأَشَاحَ، وَإِذَا فَرِحَ غَضَّ طَرَفَهُ

جَلُّ ضَحِكِهِ التَّبَسُّمُ، وَيَفْتَرُ عَنْ مِثْلِ حَبِّ الْغَمَامِ. وكَانَ إِذَا أَوَى إِلَى مَنْزِلِهِ جَزَّأَ دُخُولَهُ ثَلَاثَةَ أَجْزَاءٍ: جُزْءًا لِلَّهِ وَجُزْءًا لِأَهْلِهِ وَجُزْءًا لِنَفْسِهِ، ثُمَّ جَزَّأَ جزأه بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ).

تقسم وأنت الصادق: "والذي نفسِي بيده، لو كانت فاطمةُ بنت مُحَمَّد سرقَت، لقطعتُ يَدها".

عدَلتَ، فانقادت لكَ الطرق!

اليوم، تبكي الخَرائط مِن حرَّاس خَزائن السُّحت، مَن زرعوا في كلِّ أرضٍ جَدبها، نَهبوا سَنابلنا، وقَضوا بتقطيع أيدي غير مَن سَرقوا.

فتَقوا، وما رتَقوا، ونَسجوا مِن خيطٍ ظلماء تيها، كلُّه غَسَق!

تَلا: ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ﴾ [سورة المطففين: 1]، فخافَ اللَّهَ في كلِّ شَيء!

تكلَّم في المَشرق، فأصغَى إليه المَغرب، وكان ذلك بعض معنى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [سورة الشرح: 4].

قَالَ هند بن أبي هالة: "كَانَ سُكُوتُ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَلَى أَرْبَع، الْحُلُمِ وَالْحَذَرِ وَالتَّقْدِيرِ وَالتَّفكرِ، فَأَمَّا تقديره فَفِي تَسْوِيَتِهِ النَّظَرَ وَالاسْتِمَاعِ منَ النَّاسِ، وَأَمَّا تفكيره فَفِيمَا يَبْقَى وَيَفْنَى وَجُمِعَ لَهُ الْحلْمُ وَالصَّبْرُ، فَكَانَ لَا يُغْضِبُهُ شَيْءٌ وَلَا يستفزه، وَجُمِعَ لَهُ الْحَذَرُ فِي أَرْبَعٍ: أخذه بِالْحُسْنَى لِيُقْتَدَى بِهِ، وَتَرْكِهِ الْقَبِيحَ لِيُنْتَهَى عَنْهُ وَاجتهاده فِي الرَّأْيِ فِيمَا هُو أَصْلَحُ لِأُمَّتِهِ، وَالْقِيَامِ لَهُمْ فِيمَا جَمَعَ لَهُم أَمْرَ الدُّنيا وَالآخِرَةَ".

تتابعت سُنون شِداد، فترى أصحابه في شدة فقرٍ، وترادُف ضُـرٍّ، وما عنده ما يَسعهم ويَصرف عنهم بؤسهم، إلا الدُّعاء بتعجيلِ الوعد، والدُّعـاء إحدى الصَّدقتين!

وينفثُ فيهم: أنَّ مَن وُعِـدَ، قَضى!

وفي البأساء الشديدة يقول: "روِّحوا القلوبَ ساعةً بعد ساعة، فَإِنَّ القلوبَ إذا كلَّت عُمِيَتْ"!

شهد له الله من فوق عرشه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [سورة القلم: 4].



فإن شئتَ أن تحاكيه، فحاوِل أن تُجاريه، وبعض الأماني سِحر بيان القلب، وقد كان مِن أماني «ابن حَزم» ما رواها هو يقول: "وقرأتُ «كان رسول الله يصلِّي وهو حاملٌ (حَفيدته) أُمامَة بنت زينب".

فيقول ابن حزم: "أقول -واللهِ يعلمُ صِدْقَ نيَّتي- ليتَ لي تلك الصَّلاة، أو حضورها بجميعِ صلواتي كلِّها، وَاللَّـهُ يعلم سُويداء القلب".

لَيتك بيننا، فقد ملَّت خُطانا مِن فوضى الطريق!

قَالَ هند بن أبي هالة: "كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لَا يَجْلِسُ وَلَا يَقُومُ إِلَّا عَلَى ذِكْرٍ وَلَا يُوَطِّنُ الْأَمَاكِنَ وَيَنْهَى عَنْ إِيطَانِهَا، وَإِذَا انْتَهَى إِلَى قَوْمٍ جَلَسَ حَيْثُ يَنْتَهِي بِهِ الْمَجْلِسُ وَيَأْمُرُ بِذَلِكَ وَيُعْطِي كُلَّ جُلَسَائِهِ بنَصِيبه ولَا يَحْسَبُ جَلِيسُهُ أَنَّ أَحَدًا أَكْرَمُ عَلَيْهِ مِنْهُ مَنْ جَالَسَهُ أَو قَاوَمَهُ فِي حَاجَةٍ صابره حَتَّى يَكُونَ هُو الْمُنْصَرَفَ، ومَنْ سَأَلَهُ حَاجَةً لَمْ يرده إِلَّا بِهَا أَو بِمَيْسُورٍ مِنَ الْقَوْلِ، قَدْ وَسِعَ النَّاسَ مِنْه بَسْطُهُ وَخُلُقُهُ فَصَارَ لَهُمْ أبا وَصَارُوا عنده فِي الْحَقِّ سَوَاءً، مَجْلِسُهُ مَجْلِسُ حِلْمٍ وَحَيَاءٍ وَصَبْرٍ وَأَمَانَةٍ لَا تُرْفَعُ فِيهِ الْأَصْوَاتُ، وَلَا تُؤْبَنُ فِيهِ الْحُرَمُ، وَلَا تُنْثَى فَلَتَاتُهُ مُتَعَادِلِينَ، يتَفَاضِلونَ فِيهِ بِالتَّقْوَى مُتَوَاضِعِينَ يُوَقِّرُونَ فِيهِ الْكَبِيرَ وَيَرْحَمُونَ فِيهِ الصَّغِيرَ، وَيُؤْثِرُونَ ذَا الْحَاجَةِ وَيَحُوطُونَ -أو قَالَ: يَحْفَظُونَ- فِيهِ الْغَرِيبَ، قَالَ: قُلْتُ: كَيْفَ كَانَتْ سِيرَتُهُ فِي جلَسَاتِهِ؟ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ دَائِمَ الْبِشْرِ، سَهْلَ الْخُلُقِ، لَيِّنَ الْجَانِبِ، لَيْسَ بِفَظٍّ وَلَا غَلِيظٍ وَلَا سَخَّابٍ وَلَا فَحَّاشٍ وَلَا عَيَّابٍ وَلَا مَدَّاحٍ، يَتَغَافَلُ عَمَّا لَا يَشْتَهِي وَلَا يُوئِسُ مِنْهُ وَلَا يُخَيِّبُ فِيهِ،

قَدْ تَرَكَ نَفْسَهُ مِنْ ثَلَاثٍ: المراء، والإكثار، وما لا يعينه، وترك الناس من ثلاث، كَانَ لَا يذمُّ أَحَدًا وَلَا يعيره وَلَا يَطْلُبُ عَوْرَتَهُ وَلَا يَتَكَلَّمُ إِلَّا فيمَا رَجَا ثَوَابَهُ".

لَيتك بيننا، تَخلع عَن عواصمنا السَّواد!

نَحنُ هنا، وهناك أنَّى التفتَّ، رأيتَنا..

سِواك المنافي، وأنتَ الوطن.

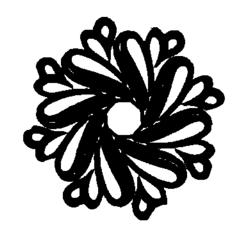
جئناكَ مِن وَهن الخِيام، مِن حزننا المَنثور في طوابيرِ اللجوء، في طوابيرِ الرَّغيف، وفي السُّفن التي أرهقَتْها الجُثث!

اليوم نعلم أن الامتحان في اتِّباعه، فآجِر اللَّه اتِّباعَنا مِن غَيرِ أن تَبتلينا!

صلّى عليكَ اللَّهُ صلاةً، تظلُّ بها الصُّحف مَنشورة، والأقلام جارية، والثَّواب لا يَنقطع!

اللهم ربنا صلِّ على نبيِّك، وشَفِّعه فينا، صلِّ على عبدِك، وهَبنا بركَة نبيِّك.

اللهم لطالما بسطتُ يديَّ، فكفَيتني، فارحَم اغترابي، وَاجْعَل اتِّباع نبيِّك في الآخرة جَوابي!




22
بيت النبوة
وصناعة القدوة

إلى أينَ سَيُفضي بكَ التأمُّل في هذه الآيَات تحديدًا! وإلى أينَ سيَنتهي بكَ التَّساؤل!

هلْ هذه الآية الخاصَّة بنساءِ النَّبي ﷺ، هي مَنطق الأمن، وهي سِر البياض؟!

لماذا تُرَتِّل آيةً إلى قيام السَّاعة، هي في حُكمٍ مُخْتصٌ بنِساء النَّبي ﷺ؟!

يُبقي القُرآنُ هذا الحُكم على سُطور المُصحف، مثل مِئذنة عالية ترشدكَ، فتَنأى بكَ عن مُنحدَر!

حيث ترى هنًا، نصًّا لا تأويل له، إلا وُضوح الحَقيقة!

في هذه الآيات، يكتبُ لك القُرآن عَناوين العُروج، يَكتبُها لنا جميعًا بحبرٍ، تَفوح منه معاني البَصيرة!

فما هي البَصيرة؟

البَصيرةُ، أن ترى ما وراءَ الكلمة!

فما الذي وراءَ كلِّ هذه الأحكام الخاصَّة بنِساء النَّبي ﷺ؟

تعال معي بَعيدًا عن ضَجيج التَّأويلات لنتساءل ما المَعنى الذي يَقفُ وراءَ هذه الأحكام الخاصَّة بنساءِ النَّبي ﷺ؟

تُرى، هل هذه هي طَريقة القُرآن في صُنع النَموذج؟

هل هذه طريقة القرآن في إيقاظ الأسوة فينا؟

هل هذه طريقة القرآن في إيقاف الحيرة بجواب القُدوة؟!

وهل كان هذا هو المَشهد البكر للنُور، قبل أن نراوغ، وقبل أن تفور فينا الهَواجس؟!

قبل أن تُغمر نون النسوة بقيم العولمة، وتصبح المسافة بيننا وبين آية الأحزاب، خطوة تشيخُ الرُّوح ولا تبلُغها!

هل كان القرآن بهذه الصورة النَّقية، يهزُّ واقعنا المرهق، ويهز فوضى القيم فينا عبر بيت النبوة؟!

﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِى فِى قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ﴾ [سورة الأحزاب: 32-33].

أكان ذلك كلُّه هو خطاب القرآن لصوت الحكمة والأسوة؟ أن يظلَّ أبيض لا فتنةَ فيه!

وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ، وماذا أيضًا، وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ، لماذا؟ لتعليم الأمة.

(كانَ أَزْوَاجُ النَّبِيِّ ﷺ يَحْفَظْنَ مِنْ حَدِيثِ النَّبِيِّ ﷺ كَثِيرًا، وَلَا مِثْلًا لِعَائِشَةَ وَأُمِّ سَلَمَةَ، وَكَانَتْ عَائِشَةُ تُفْتِي فِي عَهْدِ عُمَرَ وَعُثْمَانَ إِلَى أَنْ مَاتَتْ -يَرْحَمُهَا اللَّهُ- وَكَانَ الْأَكَابِرُ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عُمَرُ وَعُثْمَانُ بعده يُرْسِلَانِ إِلَيْهَا فَيَسْأَلَانِهَا عَنِ السُّنَنِ).

يقول هشام بن عروة: "مَا رَأَيْتُ أَحَدًا أَعْلَمَ بِسُنَنِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَلَا أَفْقَهَ فِي رَأْيٍ إِنِ احْتِيجَ إِلَى رَأْيِهِ، وَلَا أَعْلَمَ بِآيَةٍ فِيمَا نَزَلَتْ، وَلَا فَرِيضَةٍ مِنْ عَائِشَةَ"

وعن أبي موسى الأشعري قال: «ما أشكل علينا -أصحابَ محمد ﷺ- حديثٌ قط فسألنا عائشة إلا وجدنا عندها منه علمًا». وقد أكثرت من رواية الأحكام الفقهية حتى قال الحاكم النيسابوري «حُمل عنها رُبع الشريعة».

﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾ [سورة الأحزاب: 34] خطاب عالٍ.

يَحكي لك عن رائحة الغاية الأصيلة من المرأة، معانٍ تحملكُ إلى المقامات البَعيدة!

خطاب عالٍ، يسقي عطَش العائدين إلى رجْع التَراتيل الأولى.

خطاب عالٍ يسقي المشتاقين إلى الرُّؤى الصَّافية!

هل كان القرآن في هذه الآيات يقول لنا، إنَّ لبيت النُّبوة كمال النَّموذج، وكمال الاقتداء، ومن ثم كمال الهداية؟ بيت النُبوة هو عَبق الطَّهارة يُتمتم فينا!

في بيت النبوة، ينسابُ السِّتر في كلِّ هَمسة تسري، ينسابُ السِّتر في كل صوت!

ينساب السِّتر في تَواري اللؤلؤ المكنون في صُدَف المحَار!

وفي هذه الآيات تحديدًا، ينحت لنا القرآن نموذجًا نتبعهُ، مثلما يتبعُ الجذر بحدسه صوت الماء الذي ينجيك من الموت في الصحراء!

هنا يكشف لك القرآن، كيف تَعلو قوانين الرُّوح في يقين السُنبلات، في علو النَّجمات، في طَهارة أمهات المؤمنين!

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾

[سورة الأحزاب: 33].

لذا حين يَرتمي التُّراب على أعيننا، ويَغشانا الغُبار، وتضل منَّا ناصية المَعاني، حتى كأنَّنا طينُ الأبد، تأتيك سُورة الأحزاب بآية، وتُومِئ لك:

لماذا تَكاثرت علينا الأحزاب كأنَّه ليس في مدائننا مدينة مُنوَّرة وليس في سلوكنا بيت النبوة!

يخبرك القرآن كيف عبثَت الفوضى في قيمنا، واختبأَت في رحالنا ضَلالات الفكر.

وصار سُلوكنا في الحديث، والحجاب، والبُيوت، مبتورًا عن بيت النَّبي ﷺ!

كيف ارتدَّت التلاوة لآية الأحزاب في حُلوقنا، صوتًا بلا أثَر!

بيتُ النُّبوة، يُعلن لك أننا فَقدنا النَّموذج!

وأننا أقربُ إلى الهشَاشة في أخلاقنا، والكثير من تفاصيلنا!

وإن عدوك يبدأ في اقتلاع الأسوة حتى تظل بلا بوصلة!

ترى، كم هي المَسافة، بين آية الأحزاب، وبين كل صُور التَّلوث فينا؟!

كمْ هي المسافة، بين أصواتنا اليوم، وقول الله للنَجمات: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ [سورة الأحزاب: 32].

كمْ هي المَسافة، بين زهو اللِّباس على أجسادنا، وبين قوله ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾ [سورة الأحزاب: 33].

نحن نَرتحل بعيدًا عن بيت النُّبوة، فيلتَهمنا غسَق العَولمة، فلا شعاع لنا ولا ألَق!

هُنا، بيت النُّبوة!

وهُنا، بؤرة الضَّوء، حيث يَتبدى لكَ النموذج المَرضي عند الله جليًّا، كأنَّه حبلٌ يشدُّك للنُّجوم، وكلما تأرجحت بنا عَتمة الأقوال، قال لكَ: من هنا يبدأ الصُّعود!

نحن اليوم ننحازُ إلى اللاشيء، إلى جَفاف الموارد، إلى مُكابدة الوَهم، راحلة خطَانا على طُرق المرارة!

فقد أقفلنا أبواب بيت النبوة!

مراكبنا حيرى، ثق أنَّ المراكبَ الحَيرى، لا تعبُر الآفاق، ولنْ تعبر الآفاق!

فيا بيت النُّبوة، رد علينا لونًا من جمال الستر أضعناه!

ردَّ علينا عُمق الحكمة! ومعنى ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ [سورة الأحزاب: 34].

كَانَ الْإِمَامُ الزُّهْرِيُّ مِنْ أَفْقَهِ التَّابِعِينَ، وَأَكْثَرِهِمْ رِوَايَةً لِلْحَدِيثِ، وَقَدْ رَوَى: "لَو جُمِعَ عِلْمُ نِسَاءِ هذه الْأُمَّةِ -فِيهِنَّ أَزْوَاجُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- كَانَ عَلِمُ عَائِشَةَ أَكْثَرَ مِنْ عِلْمِهِنَّ".

كان لأمهات المؤمنين صوت الحكمة، وَكَانَ الإمامُ التابعي الشَّعْبِيُّ يذْكُرُهَا، فَيَتَعَجَّبُ مِنْ فِقْهِهَا وَعِلْمِهَا، فقد رَوَتْ لِلَبِيدِ اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفَ بَيْتٍ. ثُمَّ يَقُولُ: مَا ظَنُّكُمْ بِأَدَبِ النُّبُوَةِ.

يا الله ردَّ علينا صوابًا ليس فيه شُبهة المَيل، ولا نصف الخَطيئة!

ردَّ علينا صوتًا، لا يخضعُ بالقَول، ﴿فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾.

ردَّ علينا: يا رب، حياة من حياة بيت النبوة!



23

النبي زوجًا، ومعه صارت البيوت كأنها محراب

كانَت الحُجرات مَأوى النَّبي ﷺ، يَنفي عنها رَيب الجاهِلية الأُولى، وفيها أسرارُ خُطى إبراهيم، إذ المَعارج مُستمرة، وكانَ النَّبي ﷺ في الحُجرات، إنسانَ المَعنى، ومعه صَارت البُيوت كأنَّها مِحراب.

ترى الحُجرات طَهُرت، حتَّى تدرَّج جبريلُ في نَواحيها.

نَبيٌّ أقبلَ على الله، حتَى اتَّسع في خُلقه ورُوحه!

ومَن اتَّصل بالواسِع، اتَّسع..

وعلى قَدر القُرب، كانَ حاله في الأدَب.

فظَلَّ يقولُ: "خَيرُكم خَيرُكم لأهلِه، وأنا خَيرُكم لأهلي"، تلك كَلمات وربي، مَنسوجة مِن خُيوط المَطر!

تَراه في أهل بيته، قدْ طَوى حقَّ نفسه لأجل رَبه.

كانَ يعلَمُ أنَّ الحُبَّ يَخفقُ مُتعبًا، إذا لمْ يفتح صَدره لأهله أُفُقًا!

زَوجٌ، وليس في يَده مِلح العِتاب يَنثره.

زوجٌ، إذا عبَست الحياة، رأيتَه يَلُمُّ عن الطُّرقات عَثراتها.

تكسِر عائشة صَحنًا مِن الغِيرة، فَيضحكُ لها، فقدْ كان زَوجًا، يُتقن كيف يَرسم الحَياة في خِضَمِ مَماتها..

(كانَ النَّبيُّ ﷺ عِنْدَ بَعْضِ نِسَائِهِ، فأرْسَلَتْ إحْدَى أُمَّهَاتِ المُؤْمِنِينَ بصَحْفَةٍ فِيهَا طَعَامٌ، فَضَرَبَتِ التي النَّبيُّ ﷺ في بَيْتِهَا يَدَ الخَادِمِ، فَسَقَطَتِ الصَّحْفَةُ فَانْفَلَقَتْ، فجَمَع النَّبيُّ ﷺ فِلَقَ الصَّحْفَةِ، ثُمَّ جَعَلَ يَجْمَعُ فِيهَا الطَّعَامَ الذي كانَ في الصَّحْفَةِ، ويقولُ: "غَارَتْ أُمُّكُمْ". ثُمَّ حَبَسَ الخَادِمَ حتَّى أُتِيَ بصَحْفَةٍ مِن

عِندِ الَّتي هو في بَيْتِهَا، فَدَفَعَ الصَّحْفَةَ الصَّحِيحَةَ إلى الَّتي كُسِرَتْ صَحْفَتُهَا، وأَمْسَكَ المَكْسُورَةَ في بَيْتِ الَّتي كَسَرَتْ).

لا رُعب في لَفتاته، مُتسامِيًا إذا زلَّ السُّلوك، قالت عائشة ﵂: "مَا ضَرَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بيده امْرَأَةً لَهُ قَطُّ".

وظَلَّ يقولُ: "واسْتَوْصُوا بالنِّساءِ خَيْرًا، فإنَّهُنَّ خُلِقْنَ مِن ضِلعٍ، وإنَّ أعْوَجَ شَيءٍ في الضِّلعِ أعْلاهُ، فإنْ ذَهَبْتَ تُقِيمُهُ كَسَرْتَهُ، وإنْ تَرَكْتَهُ لَمْ يَزَلْ أعْوَجَ، فاسْتَوْصُوا بالنِّساءِ خَيْرًا".

فإنَّ في المَحشر أسئلةً، لا يُطفئها النِّسيان، فأَعِد تَرتيب مَن مَرُّوا عَليك!

كانت الحُجرات، مثل خَيمة في صَحاري العَتمة، تَهدي الأُمَّة سَكينتها..

تَذوب الرَّحمة في كَلماته، حتى تَرى القُلوب على وده أُغلِقَت.

وبِضَوء الكَلمة، كان يوقِظ في زوجاته صَباحًا كلُّه خَير.

كانَ إذا تكلَّم، رؤِيَ كالنُّور يخرُج من ثَناياه، وحينَ لا يَمرُّ، يتوقَّف النَّهار على عَتبة اليوم..

فلا يولَد إلا بِوجهه.

يطلُّ على الحُجرات، يُطلُّ، فتراهُ العينُ في الآفاق، كأنَّ الكون له مَرايا.

تَبدو الشُّموس في مُقلتيه، إذا دنا، ويُصبح الزَّمان في الحجرات كله نَهارًا!

كانَ بينَ أهله، أرق مِن الجفنِ على العَين، يَنسَدل حَنانه مأوى وسِترًا.

وتَنغمر عائشةُ في قَلبه، وتُصبح الحُجرات قَصرًا!

قالت عائشة: "كان رسول الله ﷺ يعطيني العظم فأتعرَّقه (أي: آكل ما بقي فيه من اللحم وأمصه) ثم يأخذه فيديره حتى يضع فاه على موضع فمي".

لقد علمنا أن البيوت تَستغرقُ في صَلواتها، إذا ظَلَّ الوُدُّ مَزروعًا في شُرفاتها!

إذ الأهلُ فِتنة، لكن العارِفين بالله، على قَناطر الفِتن جاوَزوها إلى خَزائن المِنن!

البيوتُ تاريخُ امتحانٌ مُكتَمِل، فَتخفَّفوا من أوزارها، فبعضُ المَواجع لا تُرى، ولكنَّها عند الله جَليَّة!

يوصي أمته بالنساء: "أَلَا واستَوْصوا بالنِّساءِ خَيرًا، فإنَّهُنَّ عَوَانٍ عندَكم، ليس تَملِكونَ منهُنَّ شيئًا غيرَ ذلكَ، إلَّا أنْ يأتينَ بفاحشةٍ مُبَيِّنةٍ، فإنْ فعلْنَ فاهجُروهُنَّ في المَضاجعِ، واضرِبوهُنَّ ضربًا غيرَ مُبَرِّحٍ، فإنْ أَطَعْنَكم فلا تَبْغُوا عليهِنَّ سبيلًا، ألَا إنَّ لكم على نسائِكم حقًّا، ولهُنَّ عليكم حقًّا، فأمَّا حقُّكم على نسائِكم فلا يُوطِئْنَ فُرُشَكم مَن تَكرَهونَ، ولا يَأْذَنَّ في بُيوتِكم لمَن تَكرَهونَ، ألَا وإنَّ حقَّهُنَّ عليكم أنْ تُحسِنوا إليهِنَّ في كِسْوَتِهِنَّ وطعامِهِنَّ".

كان النَّبي ﷺ تُشمُّ فاكهة الجنَّة إذا تحدَّث في عَذب كَلماته..

وتُورِق الحُجرات بمراعي الحُبِّ، وتُرسلُ الأرضُ أفرَاحها!

كانَ في نَفَسِه متَّسعًا، وإذا خلا بِنسائه، كانَ أليَنَ الناس، وأكرم الناس، ضَحَّاكًا بسَّامًا!

يَكُونُ فِي خِدْمَةَ أَهْلِهِ، فَإِذَا حَضَرَت الصَّلَاةُ خَرَجَ إِلَى الصَّلَاةِ!

سئلت عائشة رضي الله عنها: "ما كان النبي ﷺ يصنع في بيته؟"، قالت: "كان في مهنة أهله (أي: في خدمتهم) فإذا حضرت الصلاة خرج إلى الصلاة".

وقالت: "كان بشرًا من البشر، يَفْلي ثوبه، ويحلب شاته، ويخدم نفسه". وفي رواية أخرى: "كان يخيط ثوبه، ويخصف نعله، ويعمل ما يعمل الرجال في بيوتهم".

وإذ كان الطَّريق لله، كانَ كلُّه امتِدادًا، والكَيِّسُ مِن عمَّال الله، يَنشغلُ بتقويم الفَرائض..

والجاهِل، يَعني بطَلَب الفَضائل!

مَرُّوا خِفَافًا على الصِّراط، مَن أدْرَكوا مَعنى الفَريضة!

علمنا بهديه أنَّ الودَّ مَكسو بالسُّلوك، وإذا تنفَّس الحُبُّ في البيت تَسامُحًا، حينها يفوحُ الأَمان!

لذا، إذا رأيتَ في البيوت السَّكينة، فاعْلَم أنَّ ذاكَ صمتُ السَّنابل في الحُقولِ المَليئة!

قدْ أَعتَق النَّبي ﷺ كل ما أحَبَّ لله.

يقول لعائشة: "يا عَائِشَةُ، ذَرِينِي أَتَعَبَّدُ لِرَبِّي"، قَالَتْ: "وَاللَّهِ إِنِّي لأُحِبُّ قُرْبَكَ وَأُحِبُّ مَا يَسُرُّكَ".

وإذا كان القُرب في الرُّوح، فلا قيمةَ للمَسافات.

لا يَظمأُ مَن جاوره، فقد كان يَسقي حُبًّا مِزاجه مِن حَنان.

يُهَروِل المِسكُ في جنَباته، إذْ يعلِّمنا، أنَّ للأنفاسِ حَقًّا علَينا!

وضَع رُكبته، لتَضع عليها زَوجه صَفيَّة رضي الله عنها رِجلها حتَّى تَركَب على بعيره!

أيها الأتباع، الحُبُّ ليس خطوة في مَهبِّ الرِّيح، الحُبُّ أنْ تَحمل لِمَن تُحب عِبء السِّنين!

كان يلمِس سِره سِرَّ زَوجته، فإذا هَوِيَت عائشة شَيئًا، تابعَها عليه.

وكانت إذا شَرِبت مِن الإناء، أخَذه فوَضع فَمه في مَوضعِ فَمِها وَشرِب، كأنَّه يَرشفُ مِن جِرار الخُلد رَشفة!

وكانَ يتَّكئُ في حجْرِها، ويَقرأُ القُرآن، ورَأسه في حجْرِها، فيتكَاثَرُ الغَيم، ويَهْبِطُ الوَحي في بيت عائِشة!

أيُّ سِرٍّ مَهيب، جعلَ زوجاتَه يَحْمِلنه حُبًّا حيًّا ومَيتًا؟ زوج تَتُوقُ له القُلوب، فما كان عُمره إلا بَياضًا!

أتدري لماذا؟ لقد كان عَبدًا قد صَفا في باطِنه، حتى كأنَّ الخافِية فيه عَلانية!

لو يَدري القوم أنَّ المرايا الحَقيقية تَختبئ في أعين الزَّوجات!

اليومَ..

تُبلى دَواخلنا، وظَاهِرنا، يَلتَمعُ في أعينِ النَّاس!

نُحادِثُ رُوحك يا رسول الله، ونَروي غِيابك عَن البُيوت، غياب هديك وسنتك..

نَرى العلاقات، كأنَّها مَتاهات بَعضُها فوقَ بعض، وأكبرُ الجِراح واللهِ، في التَّعامي عن الجراح!

يا رَسُول الله..

يَبدو الطَّريق اليوم إليكَ طويلًا، حينَ نَنفَصِل، ولكنه يبدو قصيرًا إليك حين نتصلُ!


24
كيف حال
العُقدة!

كانت عائشةُ صغيرة، وكان النَّبِيُّ ﷺ كبيرًا في معانيه، وكان عَباءتها التي تنبضُ بدفءٍ لا تعرفه البشرية!

يحرِّرها بالحُب من سُجون كثيرة..

فقد كان الحُب، إفلاتًا لطاقاتها، وما كان عبودية الإمساك!

ومِن غيمة إلى غَيمة، كانت عائشة تُمطر بك..

كُنتَ غيثها، وَكُنتَ رَبيعها، وكان المكانُ ممتلئًا بك..

وكانت العُقدة، كافية لتُمسك بها رغم الاعتذارات المتعثِّرة، والرَّغبات المُتعِبة، والاحتمالات المُبهَمة.

وكان هو فوقَ كلِّ ظنٍّ، وأكبر مِن خيال التوقُّعات!

(غارَت أمُّكم) ويَضحك، فتتعافَى الطُّرق مِن زلَّاتها.

يُلملم الصَّحن بيده الشَّريفة، فيأخذها إليه، ويَلمُّ الوجع من قلبها!

يا لَها مِن مَهمَّة شاقَّـة: حُسن الاقتداء!

تَرمقه عائشة بقلبها، فإذا المَطر في عينيه، قد كانت عَيناه دومًا دليلها إليه، وكانت العُقدة تشبه الجنَّة!

قد فاحَت روحك فيها..

وفي صَدرها، كان النَّبض مَعقودًا!

حدَّثتنا عائشة عن كلِّ شيء، ثمَّ رحلت، وفي النَّبض ما لا تتَّسع له اللغة!

كيفَ ماتَ النَّبِيُّ ﷺ عن تِسع نسوة، جِرارهنَّ ملأى حتى منتهى الحُب!

يا للحُـب ما أوسَعه، إذا كانت تَضاريسه قلب مُحَمَّد!

من دون الحُب، نحنُ فارغون مِن كلِّ شيء، والقلوب الفارغة، فقيرةٌ في كَلِّ شيء!

أيتسع خيالك لهذا الجمال؟ (كان النبي ﷺ إذا كان بالليل سار مع أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها يتحدث)، يسير معها ليلًا، ولخيالك بقية ما يفيض به النص.

يبتلُّ الفجر بالضَّوء، وتُلون الحنَّاء روحها، وتبتسمُ لِلنَّبِيِّ ﷺ!

تقترب منه، فإذا نَبضه سره، وسره كان، (أمَّا بعد، فإنَّما هو الله، وأمَّا قبل، فقد كان اللَّــه)، وما بين قبلُ وبعد، كان النَّبِيُّ ﷺ مسكونًا بِاللَّــه!

يَا عائِشُ، ("يا عائِشَ هذا جِبْرِيلُ يُقْرِئُكِ السَّلامَ" قُلتُ: "وعليه السَّلامُ ورَحْمَةُ اللَّهِ"، قالَتْ: "وهو يَرَى ما لا نَرَى").

يَــا عائِـــشُ، هنيئًا لك دلال الحب وسلام سيد الملائكة.

علمها أن كُـــلَّ حُـــبٍّ لِلّهِ باقٍ..

وكلَّ العاديات من دونِ الله، خيلٌ ما لها سِباق!

وعلى ضِيق الحُجرات، كانت الطُّمأنينة تهرُب إليها.

وعلى قارِعة العَتبات، كان نصًّا من الأمان لا ينطوي.

قال رسول الله: "إنِّي لَأَعْلَمُ إذا كُنْتِ عَنِّي راضِيَةً، وإذا كُنْتِ عَلَيَّ غَضْبَى"، قالَتْ: "فَقُلتُ مِن أيْنَ تَعْرِفُ ذلكَ؟"، فقالَ: "أمَّا إذا كُنْتِ عَنِّي راضِيَةً، فإنَّكِ تَقُولِينَ: لا ورَبِّ مُحَمَّدٍ، وإذا كُنْتِ عَلَيَّ غَضْبَى، قُلْتِ: لا ورَبِّ إبْراهِيمَ"، قالَتْ: "قُلتُ أجَلْ، واللَّهِ يا رَسولَ اللَّهِ ما أهْجُرُ إلَّا اسْمَكَ".

وفي عِجاف السَّنوات، كانت أفراحُ الآخرة لا تَنتهي!

لا يَخرج الشوقُ مِن قلبٍ به جرحٌ!

كان حُــب النَّبِيِّ ﷺ، مواقف تُنطَق.

وهل يملك العِطر صمتًا، لو كَتمناهُ؟

لِــذا، كانَ النَّبِيُّ ﷺ صامِتًا، وكان مِسكه يَفوح معنى..

وفقطْ، العاري مِن المعنى، هو من يتدثَّر بالثرثرة.

كانت تفاصيل صَغيرة، لكن لا أحدَ يمتلكها إلا عائشة، وكانت العُقدة بها تَكبُــر!



لم يكن في كلماته «لَـو»، فقد كان يُبقيها في العَفو، الذي يَحميها مِن رهَق النَّدم!

لم يكن في كلماته «لِم لَم تفعَل، ولِماذا، ولَــو»، وحِصار الأسئلة المُضنِية..

فقد كان يُتقِن، كيف يشيحُ بقلبه عمَّا يَخدش الودَّ!

لم يَقبض يومًا على الوَجع، وميلاد الاعتذار، أنْ تعرف الخطأ، وقول الكلمات التي لم يفت أوانها!

وكان هذا يَكفي!

ماتَ عن تِسع نسوَة، ليس في قلبِ إحداهنَّ تنهيدة عالقة، ولا صوت يئنُّ.

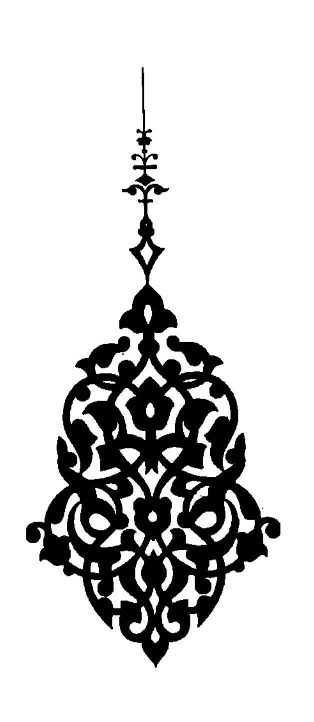
كان في عِوج الأيام، سطرًا تستقيم به الحياة، تظلُّ الكلمات أسيرةً، حتى ترى النَّبي ﷺ!

تحنُّ كلُّ واحدةٍ، إلى اللحظة التي قَبلها، والتي بَعدها، وليتَ لحظةَ عبورك إلى الحُجرة أبد مُمتد!

كلُّ لحظةٍ، مُحمَّلة بذكرى تفيضُ بالأمان، ورائحته لا تغيب.

وفي الصحيح عن عائشة: "سألتُ رسولَ اللهِ ﷺ عن الآيةِ ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾، قال: "يا ربِّ مسألةُ عائشةَ"، فهبطَ جبريلُ فقال: "اللهُ يُقرئُكَ السَّلامَ هذا عبدي الصَّالحُ بالنِّيَّةِ الصَّادقةِ وقلبُهُ نقيٌّ يقولُ يا ربِّ فأقولُ لبَّيكَ فأقضي حاجتَهُ". كل لحظة ملأى بك يا حبيب الله.

وظلَّ غيابه فَجيعة لا تَنتهي!




25
نبيٌّ تزدحم
حواشيه بالفقر لله

تَزدحمُ الفَضائل في بُردة النَّبي ﷺ وتَزدحمُ حواسُّه بالفَقر لله.

ينامُ بلا وِسادة، ويَلتحفُ الأملَ في الصَّباح.

مُتَزمِّل بالقَول الثَّقيل، وليسَ بين الضُّلوع، إلا ابتهالات الفَقر للجَليل!

ومَغلولُ الرُّؤية عَن فَقره، مُمتلئٌ بالوَهم، ولا يحسُّ بالكِبر، إذْ بَعض الكِبر يَسهُل حَمله!

يقولُ أنَس رضي الله عنه: "إنْ كانَت الأَمَة مِن إماءِ المَدينة، لتَأخُذ بِيَد رسول الله فَتنطلقُ به حيثُ شاءَتْ، وكانَ يأكُل على الأرضِ".

يرتبكُ كل مَن يراهُ في علو ضِياه، فَيهوِّن عليه بقوله: "إنما أنا ابنُ امرأةٍ من قريشٍ كانت تأكلُ الْقَدِيدَ".

إن الرانيات عُيونهم للهِ، يَغيبون عنْ رُؤية الذَّات.

يقول لأصحابه: "آكُلُ كَمَا يَأْكُلُ العَبْدُ"، تِلك كلماتٌ وربي، تَفُكُّ عنَّا عُرى الكِبر!

ترى، مَن يَقتفي اليوم قَبَس الضَّوء فِيك؟ عاجزةٌ يا رسول الله العَربية عَن وَصفِك، تُحاول الكَلمات أن تَتسلَّق إليكَ، تُحاول، لكنَّها تُعلنُ في كلِّ مَرَّة، أنَّ الرُّؤية هي المَذاق.

طِباعٌ فيكَ تُعلَن، أنَّ ما خُفي كان أَبهى!

تَحفُّه المَلائكة، وتشمُّ زَعفران الجنَّة في خطوه، يَنبجسُ الماء مِن يده، فقدْ كان نَقيًّا!

وعَينه تذرفُ من الجَوف خَشية، فلا يزيدُ على قوله: "إنَّ اللهَ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ: تَوَاضَعُوا"!

(كان ﷺ يزور الأنصار، ويسلِّم على صبيانهم، ويمسح رؤوسهم).

تنقدحُ له السَّماواتُ في المِعراج نورًا، تطوفُ حوله مَعاني القُرب، دانية له أصواتُ كَتبَةَ الوَحي.

فإذا عَظَّمه أحدٌ، تَعكَّرَ لون قَلبه وقال: "لَا تُطْرُونِي كما أَطْرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ، فإنَّما أَنَا عبده، فَقُولوا: عبدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ".

ذاكَ قلبٌ يَنبِضُ بأدبٍ، يَكفي لباقاتِ العُطور كيْ تَفوح!

وكلُّ مَن غُيِّبَ عَن مُلاحظة نفْسِه، تمكَّن مِنه الإخلاص.

وقدْ قال رسول الله ﷺ: "وما تَواضَعَ أَحَدٌ للَّهِ إلَّا رَفَعَهُ اللَّهُ".

وما تَواضع للهِ أحدٌ فأبقاهُ على سَطرِ (قدْ كانَ وانقَضى)!

دخَل مكَّة مَنصورًا مُؤزَّرًا، دخلَها وقد طَأطَأَ رأسَه، تَواضعًا لله تعالى، حتَى إنَّ رأسه لِيَمس رَحله مِن شِدَّة تَواضعه لِرَبِّه!

إذْ كانَ يعلمُ أنَّ كلَّ مُنتصب في أنفاسِه، مَهزوم.

وأنَّ الله يُضيء الأكف المُتعَبة في السَّعي، التي لا تُحَدِّق أعيُنها نحو شيء مِن الاستحقاق.

(وفي الصحيح كان رسولُ اللهِ ﷺ يَجْلِسُ بينَ ظهرَيْ أصحابِه، فيجيءُ الغريبُ، فلا يدري أيُّهم هو، حتى يسألَ).

لقد كان النَّبي ﷺ سِترًا رَقيقًا يَشفُّ عن الجَنَّة، تَقتربُ مِن سنَّته، مِن هَيئته، مِن فِعله، فَتلامس الجنَّة!

إن سلوكَ الجَسد، يكشِف دَعوى الرُّوح، فيا لله كمْ في القلوبِ الفَقيرة لله مِن عافية!

والاتباع له أن رَدِّدْ في باطِنك:

مَهزومةٌ أشواقي، إنْ لم تَكُن أقدامي خَلفكَ على الطَّريق!

مهزومةٌ دعواي، إنْ لمَ تَكن أقدامي خلفكَ على الطَّريق!

تأمله وهو يقولُ ﷺ: "لو أُهديَ إليَّ ذِراع أو كِراع، لقَبلتُ".

هذا والله منَ رقي روحه، وإنَّ بَهو الرُّوح إذا اتَّسَع، حَظيَ بالحِكمة.

إن شئت اتباعه، تُجاوِز ذَاتك تصل.

إنَّ أولَ الأمرِ يكونُ في إفاقةِ الباطن من رَقدة الغَفَلات عن خفي الداءِ!

انظر إليه ﷺ كيف كانَ لا يأنَف ولا يَستكبرُ من أنْ يمشي مع الأرملةِ، والمِسكين، والعَبد، حتى يَقضي له حاجته.

ولقدْ قيل، كلُّ مَن رفعَ ظِلَّ رُؤية نفْسِه مِن عَينه، عاشَ النَّاس في ظِلِّه!

وقال رجل للنبي: "يا محمدُ: أيا سيدنا وابنَ سيدنا! وخيرَنا وابنَ خيرِنا!"، فقال رسولُ اللهِ ﷺ: "يا أيها الناسُ عليكم بتقواكم، ولا يستهوينَّكم الشيطانُ، أنا محمد بنُ عبدِ اللهِ، أنا عبدُ اللهِ ورسولِه، ما أحبُّ أن ترفعوني فوقَ منزِلَتي التي أنزلَنيها اللهُ".

قِس البَواطن اليوم على هَدْيِه، واسأَل الله العَون في الاتباع، فإنَّ مَن جاءَ بِحَوله إلى الطَّريقِ، تاهَ مِن أوَّل قَدَم!

ومَن تَعزَّز بشيءٍ غير الله، فقدْ ذلَّ في عزه، وتِلك المَوتة الأُولى، وما دَرى!

اذكُر فضْل ربك، لا كَسْبك، وجوده، لا اجتِهادِك، واصطِناعه، لا استِحقاقك!

وتعَلم الفقر من نبيك..

وكلُّ الشَّعائر من دونِ الفَقر لله، فارِغة، وكلُّ عِلمٍ أَنتَج دَعوى التَّفوق، فثَمرته جَهل.

(تواضعوا)، أمَا بلغَك عَمَّن خدَعتهُ نفْسه أنَّه كَبيرٌ على الفِتن، فَهوى؟

فقد نسي أن من يتكئ على ذاته يقع! تِلك قلوبٌ كانت في بواطنها قُبور اليبَاب.

فارغة رُؤوس مَن لا يَعرفون حَجم السَّماء!

اسألْ نَفسَك:

ما الذي أقصاكَ من دون بلوغِ هديه، إلا كِبرٌ خَفِيٌّ؟!

اسألْ نفْسَك:

حين تَتجذَّر أقدامُ قَلبك في شِرك الهبَاءة، مَن يُنقذك؟!

أنت كُلَّما انتَفَشْتَ، كُنتَ عند الله بينَ الزلال والزَّبَد!

علَّمنا أصحابه أن ذَنبًا أفْتَقِر به إليه، أحَب إليَّ مِن طاعةٍ أفتَخرُ بها عَليه!

الكِبر حِجاب القَبول، فكَم رِداء يَنبغي لرُوحك أن تَنزع!

استغفره من نقص الاتباع وقل: يا ربِّ عَفوك، كُلَّما قُلتُ ها أنَا، ضَاع سَعْيِي!

يا ربِّ عَفوكَ، كلَّما قلتُ ها أنا، ضَلَّ رَأيي!

يا ربِّ عَفوك، كُلَّما قُلتُ ها أَنا، زَلَّ خَطوي!

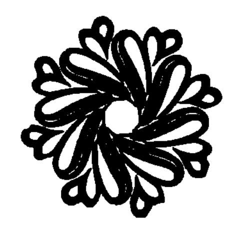
يا مُؤنِسي في زَحمةِ الهَوى، وإيحاشِ السَّفر، اعْفُ عمَّا اقْتَرف القلبُ، مِن سُوء الكِبر!

رسول الله، مشتاق لك القلب..

والله إن طَيفه يَهلُّ بقلبي.

تَمنيتُ لو يَبدو لِعَيني، تمنيتُ لو صوتٌ بِأذُني.

هنيئًا للعُيون إذ تَتأمله، هَنيئًا لها، إذْ تَرى الجنَّة!




26
أحُد، وصناعة
شجاعة الاعتراف

نَزل الرُّماة عَن الجَبَل، ثمَّة ارتياب في الخَطوة الأولى، وثمَّة وضوحٍ فيما آلت إليه!

نَــزلَ الرُّمَـــاة! وكُشِف ظهر النبي والإسلام.

(كانت غزوة أحد في شهر شوال سنة ثلاث من الهجرة، حيث وصل جيش الكفر وعداده ثلاثة آلاف مقاتل بينهم خمس عشرة امرأة ومعهم ثلاثة آلاف بعير ومائتا فرس وسبعمائة درع، وسلموا القيادة العامة لأبي سفيان وقيادة الفرسان لخالد بن الوليد يعاونه عكرمة بن أبي جهل).

... نزل الرماة، ونزل حماة النبي! وبقي ظهره مكشوفًا للسِّهام..

وعندما يختفي مَعنى النَّبِيِّ ﷺ في صُدورنا، تُدركنا السِّهام، تَرتخي أصابعنا، نَعجز عن شدِّ الوثاق.

ومن دون ضجَّة، تَسكننا الخسارات! إذ نسينا: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّـهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [سورة آل عمران: 133].

في بدء الغزوة كان النبي قد جعل خمسين من الرماة على جبل الرُّماة من الجهة الغربية، لتحمي ظهورهم من خيول المشركين. وقال لهم رسول الله ﷺ: "لا تبرحوا، إن رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا، وإن رأيتموهم ظهروا علينا فلا تعينونا".

لكن، نزل الرماة، إذ تبدو الغنائم نجَاة، وكان ذاكَ أوَّل الوَهم!

كانت أعينهم مُكبَّلة بالمتاع..

وكانت الآيات تردُّهم إلى ما غاب عن بصيرتهم، إلى عُمق الصَّخب في الخَفاء!

هكذا بكلٍّ وضوح، القُرآن يسطِّر أحرف النَّجاة: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ [سورة آل عمران: 152].

نزل الرماة، وبقيت ميمنة خالد بن الوليد وميسرة عكرمة بن أبي جهل ثابتة من دون حراك، وفي هجمة سريعة أطبقت الأجنحة على وسط المسلمين وتمكنت مجموعة من جيش مكة من الوصول إلى موقع الرسول ﷺ.

كيف ولماذا؟ لأن ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ﴾، إن الذي يمتلك نبضَه، يمتلك القَرار!

كان النبي قد رأى رؤيا: "ورأَيْتُ في رؤياي هذه أنِّي هزَزْتُ سيفًا فانقطَع فإذا هو ما أُصيبَ مِن المُؤمِنينَ يومَ أُحُدٍ"، لكنه نزل على قرار الشورى للمؤمنين. قال لأصحابه يوم أحد حين قدم أبو سفيان والمشركون: "إنا في جنة حصينة (يعني بذلك المدينة) فدعوا القوم يدخلوا علينا نقاتلهم"، فقال له أناس من الأنصار: "إنا نكره أن نقتل في طرق المدينة"، وأرادوه على الخروج فخرج، ووضع النبي ﷺ ثلاثة ألوية: لواء مع أسيد بن حضير. لواء للمهاجرين، وكان لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه لواء للخزرج، وكان للحباب بن المنذر رضي الله عنه.

ثم حدث ما حدث، ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ﴾، [سورة آل عمران: 165]. كُلُّ الكلمات تحدِّق بقوة في حرائق عميقة، وعلى بُعد نبضِك، تأتي الآيات، ﴿ومِنْكُم مَن يُرِيدُ الدُّنْيَا ومِنْكُمْ مَن يُرِيدُ الْأخِرَةِ﴾ [سورة آل عمران: 152].

والنَّجَاة دومًا، هي محاولةُ إنصاتٍ لدبيبِ ما فينا!

فمَن الذي هَزمَته نيَّته؟

مَن الذي انطفأ في عُمقه؟

مَن الذي يخبِّئ كلَّ هذا المتاع في قَلبه؟

وفي حِلكة الكتمان، تُعرِّي الآيات كلَّ شيء، حتى رَعشة الرغبات!



وبين ارتباك الخطوات والنيَّات، بين الخُطى، كانت الخَطايا!

تَحملهم الآيات إلى العَراء، وتمنحهم اليَقظة!

نحن ننهارُ بالتوالي، إذا أكمَلنا ونحن مُثخَنون بالجِراح.

لا بأسَ إنْ كان مَجموع عمرك أربع خَسارات، وبِضعة انتصارات، وشَيئًا مِن الخَوف والجُوع ونقصًا مِن الأموال والأنفُس والثَّمرات، لا بأس!

لا بأسَ، ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ﴾ [سورة آل عمران: 140].

لا بأسَ، ﴿إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ﴾ [سورة النساء: 104]، لا بأس!

وقد خرج حنظلة بن أبي عامر يخرج حديث عهد بعرس ويستشهد وسمي بغسيل الملائكة. وأما سعد بن الربيع فقد قال رسول الله ﷺ: "من رجل ينظر لي ما فعل سعد بن الربيع؟ أفي الأحياء هو أم في الأموات؟"، فقال رجل من الأنصار: "أنا". فنظر، فوجده جريحًا في القتلى وبه رمق. فقال له: "إن رسول الله ﷺ أمرني أن أنظر، أفي الأحياء أنت أم في الأموات"، فقال: "أنا في الأموات، فأبلغ رسول الله ﷺ سلامي، وقل له إن سعد بن الربيع يقول لك جزاك الله عنا خير ما جزى نبيًّا عن أمته! وأبلغ قومك عني السلام وقل لهم إن سعد بن الربيع يقول لكم إنه لا عذر لكم عند الله إن خُلِص إلى نبيكم وفيكم عين تطرف".

لا بأسَ في تراكم الجراح، إنَّ البأس كلَّه، أن تبقى في وقت المَغيب، أنْ تظلَّ في ارتجافِ الخطوة، أنْ تترك إيَّاك لغيرك، فيَسير بك حيث يشاء ولا تشاء، أنْ تقرَّ بالهزيمة، ثمَّ لا تُحاول الانتصار.

وبعدَها، ما أكثر ما تقطعه إذا لم يُوصلك!

لم تتشابه المَعارك مُطلقًا، ففي أحُـد حدث الفِرار، ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلاَ تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِّكَيْلاَ تَحْزَنُواْ عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [سورة آل عمران: 153].

(وفي الصحيح أنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ أُفْرِدَ يَومَ أُحُدٍ في سَبْعَةٍ مِنَ الأنْصَارِ وَرَجُلَيْنِ مِن قُرَيْشٍ، قالَ: "مَن يَرُدُّهُمْ عَنَّا وَلَهُ الجَنَّةُ؟ (أَو هو رَفِيقِي في الجَنَّةِ؟)"، فَتَقَدَّمَ رَجُلٌ مِنَ الأنْصَارِ، فَقَاتَلَ حتَّى قُتِلَ، ثُمَّ رَهِقُوهُ أَيْضًا، فَقالَ: "مَن يَرُدُّهُمْ عَنَّا وَلَهُ الجَنَّةُ؟ (أَو هو رَفِيقِي في الجَنَّةِ؟"، فَتَقَدَّمَ رَجُلٌ مِنَ الأنْصَارِ، فَقَاتَلَ حتَّى قُتِلَ، فَلَمْ يَزَلْ كَذلكَ حتَّى قُتِلَ السَّبْعَةُ).

لماذا؟ ثَمَّ لماذا يحدُث كلُّ ذلك؟ كيف امتلَكتْنا رعشةَ النِّسيان؟

وما هي المسافة بين المُواجهة والاعتراف؟ المسافة قَيظ الحقيقة.

هُنا بعض السقاية لِأُمَّةٍ قَدَرها أن تمتدَّ طويلًا، وانتصاف السَّير، لا يبلُغ بها تُخوم الأمنيات!

نحنُ بالمُكاشفة والدَّمعة، وأنين الجُرح والقلم، والسَّيف واعتراف المُذنبين، والكثير مِن وجع الهزيمة، نجتازُ أنفسنا وحُظوظها، وفخَّ الشعور بأنَّنا دومًا في تسامٍ عن الزلل، والشجاعة كل الشجاعة في الاعتراف.

إذْ مع وَهم الكَمال، انتَظِر النِّـهايـــــة!

﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [سورة آل عمران: 154].

كانت أحُـــد، وكان القُرآن يعلِّمهم مواجهة كلِّ الجِراح الغائرة في عُمقٍ لا تراه العين، ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [سورة آل عمران: 155].

(إذ تفرق عنه أصحابه وأصبح وحده ينادي: "إليَّ يا فلان، إليَّ يا فلان، أنا رسول الله". واستطاع عتبة بن أبي وقاص أن يصل إلى الرسول ويكسر خوذة الرسول فوق رأسه الشريف، وتمكن عبد الله بن شهاب من أن يحدِث قطعًا في جبهة الرسول، وتمكن عبد الله بن قمئة من كسر أنفه، ومر أنس بن النضر بقوم من المسلمين ألقوا أيديهم وانكسرت نفوسهم فقال: "ما تنتظرون": قالوا: "قُتل رسول الله ﷺ"، فقال: "وما تصنعون بالحياة بعده؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه"، ثم استقبل المشركين فما زال يقاتلهم حتى قُتل).

وبلغ عدد شُهداء المُسلمين في غزوة أُحد سبعين شهيدًا، ستة من المُهاجرين، وهم حمْزَةُ بنُ عَبْدِ المُطَّلِبِ، وَعَبْدُ اللَّهِ بنُ جَحْشٍ، وَمُصْعَبُ بنُ عُمَيْرٍ، وعُثمان بن عُثمان، ويُلقَّب بشمَّاس بن عُثمان، وَسَعْدُ بن خَوْلي مَوْلَى حَاطِبِ بنِ أَبِي بَلْتَعَةَ، وَعَمْرو الأَسْلَمِيُّ، وأمَّا الأنصار فبلغ عددهم أربعةً وستين، وورد ذلك في صحيح البُخاريِّ، لقوله: (قَالَ قَتَادَةُ: "وحَدَّثَنَا أَنَسُ بنُ مَالِكٍ أَنَّه قُتِلَ منهمْ يَومَ أُحُدٍ سَبْعُونَ")!

ووقف النبيُّ ﷺ يدفنهم في لحظة كلها ألم، (كانَ النبيُّ ﷺ يَجْمَعُ بيْنَ الرَّجُلَيْنِ مِن قَتْلَى أُحُدٍ في ثَوْبٍ واحِدٍ، ثُمَّ يقولُ: "أيُّهُمْ أكْثَرُ أخْذًا لِلْقُرْآنِ"، فَإِذَا أُشِيرَ له إلى أحَدِهِما قَدَّمَهُ في اللَّحْدِ، وقَالَ: "أنَا شَهِيدٌ علَى هَؤُلَاءِ يَومَ القِيَامَةِ"، وأَمَرَ بدَفْنِهِمْ في دِمَائِهِمْ، ولَمْ يُغَسَّلُوا، ولَمْ يُصَلَّ عليهم).

يا لله كيفَ نحاكي اللحظة ذاتها؟ كيف نتوبُ عن ذنبِ الوَهم؟

عن مَعصية السُّقوط من الداخل؟ عن خَلل البدايات؟

عن التَّنازل عن الأنا واليقين بـــ ﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ﴾ [سورة آل عمران: 160].

هل نُطيق أن نضعَ أنفسنا في إطار المَشهد؟

هُنا نحن، وهنا الأوراق المنسيَّة من الحكايـــــة!

إنَّ أثمَن ما نملك هو الذاكِــــرة، وإلى هناك نحتاج الرَّحيل، إلى هُناك، وهناك يبدأ الإصلاح.

ومن دون اعتراف، ستبقى خُطانا ملأى بالضَّجيج!

ها هم يولَدون في غزوة أُحد، مِن جِراحهم.

مِن بَصيرة ﴿قُلْ هو مِن عِندِ أنفُسِكم﴾ [سورة آل عمران: 165].

يصنَع لهم القرآن وعيًا ربَّانيًّا، أنْ نقِّبوا في تضاريس أنفُسكم، في كلِّ شَرخ..

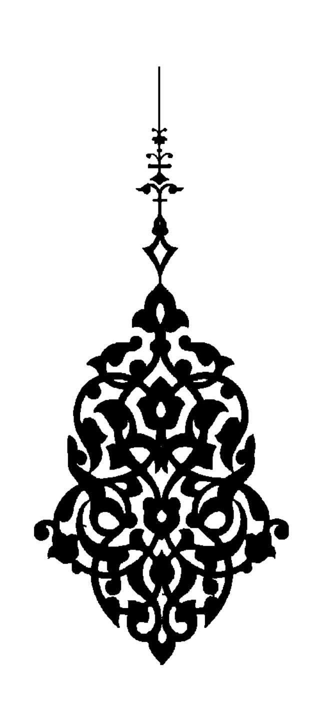
لا تعلِّقوا معاذيركم على جُذوع الآخرين!

لِـذا، كَـانَ درسُ أُحُـد!

كُل آية، كانت مِرآة، والمَرايا المكسورة ما بعدَها إلا الغياب، الغِياب عن الشُّروق!

وبعد أحد ظل القرآن يعلمنا: ﴿وَأَطيعُوا اللَّـهَ وَرَسولَهُ وَلا تَنازَعوا فَتَفشَلوا وَتَذهَبَ ريحُكُم وَاصبِروا إِنَّ اللَّـهَ مَعَ الصّابِرينَ﴾ [سورة الأنفال: 46]، ﴿يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنوا أَطيعُوا اللَّـهَ وَرَسولَهُ وَلا تَوَلَّوا عَنهُ وَأَنتُم تَسمَعونَ﴾ [سورة الأنفال: 20].

بقيت أحُد في ذاكرة الأمة كلها، وبقيت تُتلى، وقد صَلَّى رَسولُ اللَّهِ ﷺ علَى قَتْلَى أُحُدٍ بَعْدَ ثَمَانِي سِنِينَ، كَالْمُوَدِّعِ لِلْأَحْيَاءِ والأمْوَاتِ، ثُمَّ طَلَعَ المِنْبَرَ فَقالَ: "إنِّي بيْنَ أيْدِيكُمْ فَرَطٌ، وأَنَا علَيْكُم شَهِيدٌ، وإنَّ مَوْعِدَكُمُ الحَوْضُ، وإنِّي لَأَنْظُرُ إلَيْهِ مِن مَقَامِي هذا، وإنِّي لَسْتُ أَخْشَى علَيْكُم أنْ تُشْرِكُوا، ولَكِنِّي أَخْشَى عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا أنْ تَنَافَسُوهَا"، قالَ: فَكَانَتْ آخِرَ نَظْرَةٍ نَظَرْتُهَا إلى رَسولِ اللَّهِ ﷺ.




27
كانت أنفاسه
أعمارا، والدعوة
إلى الله تبارك
الأعمار

بِحساب الأنفاسِ، كانت أنفاسه أعمارًا.

ثلاثة وعُشرون حَولًا في الدَّعوة تُضيء، حتى تَجاوزَت الشمُوس!

يضجُّ في عَينيه التَّعب، ولا شَكوى.

نَبيٌّ نَجا مِن الموت في عَمله، وارتَدى الخُلود في سَعيه!

إن الذين امتَلكوا اليَقظة، عُمرهم فاتِحة الكتاب، عُمرهم يا ﴿مَالِكِ يَوۡمِ الدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ **[سورة الفاتحة: 4-5]**.

بِحساب الأنفاس، كانت أنفَاسه أعمارًا، حتى إنَّ العُمر لمْ يَكُن فيه مُتَّسع لِهنيهة من غفلة..

حتى إنَّ العُمر لمْ يَكُن فيه مُتَّسع للنسيان!

بِحِساب الأنفاس، كانت أنفاسه أعمارًا، وكان عمره كله دعوة لله.

كان نبيًّا إذا وضَع كفَّه في كفِّ بائِسٍ، ضَمَّد لها رُوحها، فبعضُ ما في النَّعيم، يَسْكنُ بَعضه!

يَمدُّ يَده إلى رُوحٍ تَسكن الهاوية، يرى حِيرتها، ولا يرى عَورتها.

يرى ظُلمَتها، فيزرعُ فيها نُجومًا.

يَرى طَريحًا فوق ذَنبه، فَيستُره، ثُمَّ يَسقيه الهُدى زُلالًا ما تكَدَّرا.

يأتيه شابٌ، قائلًا:

"يا رسول الله، ائْذَن لي في الزِّنا"، فَيُقبل القومُ عليه مَهْ، مَهْ، فقال النَّبي ﷺ: "ادْنُه"، فدَنا منه قريبًا، فقال: "أتُحبه لأُمِّك؟"، قال: "لا واللهِ، جَعلني الله فِداك"، قال: "ولا النَّاس يُحبونه لأُمَّهاتهم".

ويظلُّ به حتى يؤويه إليه!

يشربُ الخاطِئون صَوته، فلا يمَسُّهم الجفَاف، كأنَّ فَمه حَقلُ سَنابل، يتناثرُ القَمح منه بذارًا!

إذا تكلَّم، تطيرُ روحٌ قد ضلَّت إلى صَوته، وتَستوطنُ الإيمان.

وفي فَمه الكَلمات زاهية، مثل يوم ربيعيٍّ، والتَّنهيدة بعضُ الرُّوح.

يكتَنفُ العُصاةَ بصفاءٍ يَشعُّ في عَينيه، و(لا يحملُ الحقد مَن تعلو به الرُّتَب)!

كان للفِعل في خَلقه، صوت أقوى من هالةِ الصَّمت.

إذا نظرَ إلى نفسٍ، كأنَّه يقول لها: كيف روحها!

وقد قيلَ، لا يضحكُ في وجه الفاسقِ إلا العارف الصَّادق!

يحلُم بالإسلام على حوافِّ الكون، يحلمُ به وهو يغادرُ حافَّة سَريره، ليَعبُر الجُموع المُحتشدة على الباب لقَتله!

كانت المَسافة مستحيلة، لكنَّ النَّبي ﷺ كان يَطوي الطُّرقات من عينه.

كان يتجاوزُ أسوار اللحظة..

كان يسكُن في صوت المظلومين، يلمِس حُطامهم، فتُزهر المَدائن!

ظلَّ يتلو الوعد: ﴿واللهُ مُتِمُّ نُورِهِ﴾ [سورة الصف: 8]، وكأنَّ الوعد قادم، وكأنَّه انتباهة عين!

كانت أنفَاسه أعمارًا.

وبعضُ النَّاس أعمارها سَفَرٌ مِن المَألوف، بعضُ النَّاس عُمر عابر، وحَياتهم مَعركة خاسِرة..

نِصف العُمر، هُموم، وباقي العُمر، بِضعُ مُنى!

بعضُ القوم، عُمره يذوبُ، وما عنده خَبر، يَنسى أنَّ الدُّنيا إلى أمَد، والآخرة إلى أبَد!

كانت أنفَاسه أعمارًا، أنَّى لنا ذلك؟ ذاكَ مَدَدٌ من الله!

والمَدَدُ مَوصول، لكنَّنا نُهزَم مِن قَطيعتنا.

كلُّ مَن اتَّصل بالله، اختفت هَزائمه، أَما بلغَك عمَّن لله انقَطع، ثُمَّ اتَّصل، ثُمَّ وصَل!

إذْ خَدَمْت الله، خُدِمت، الدُّنيا تَخدِم مَن هو واقفٌ في بابِ الحَقِّ جَلَّ وعَلا، وتهينُ مَن هو واقفٌ ببابها!





والصَّوت إذا امتلأ بالله، هُدي.

وفي الأرواحِ أسرار القَبول، أو المَنع، وبِقَدر ما يتَفرَّغ القلبُ من العلائِق، تُشرق عليه أنوارُ الحَقائق!

وكان قلب النبي مسكونًا بإخراج الناس من الظلمات إلى النور، فإن شئت الاتباع، فما كان لله، فانتهزه، وما كان لِغيره، فانْتَهِ عنه، غَيِّر، حتى يُغير اللهُ لكَ!

ورثَةُ الأنبياءِ هم مَن يَرون الدموع التي تَسقط في الدَّاخل، وبِرفقٍ يَنْهمرون عَليها، رحمةً وعَونًا.

نَجدُ رسالتنا، في اللحظة التي نَشدُّ فيها على يدٍ أفلَتت مِن الهدى!

والدعوة تُبارك الأعمار، ولا يُفْقد اسْمك مَعها مِن ذاكرة السَّماء!

تَبحثُ الخطى عن راحلٍ ما! فتَتبَّعه إن شئت أن يَكتمل لكَ النِّصاب.

وقد قالَها السَّلف:

"مَن صحَّت تَبعيته للرسول ﷺ، ألبَسه مِن أدَبه وشَمائله وأخلاقه، وخُلع عليه مِن خِلَعِه، ثُمَّ يجعلهُ نائبًا له في أُمَّته، وداعيًا لهم إلى بابِ الحَقِّ عزَّ وجَل، وَهُم آحادُ أفراد، مِن كلِّ ألفِ ألفٍ إلى انقِطاع النَّفس واحدٌ".

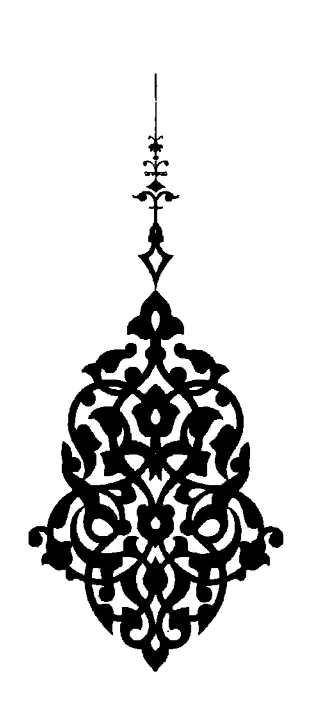
فتفَرَّد في اتِّباعكَ له، ولا تَكُن في الكَثرة الهائِمة!

لا تجعل هديَه في عمرك، سِواك وسنة.

اجعله في أنفاسك، وتعلم كيف يتبع عمرك عمره..

لَيته بَيننا، لهانَت أعباءُ الطَّريق!

يا رسُول الله، أُغالبُ فيكَ الشَوق، والشوقُ أغلَب، مَوقعي عندكَ لا أعلَمه، آهٍ لو تَعلم عِندي مَوقعك!




28
والشهوة إذا
امتلكت الأمة
كسرت فيها
الرمح وحرمتها
سورة الفتح

كانت الحُرية من قَيد الشَّهوة! بعضُ صِناعة النَّبي ﷺ في أُمَّته!

وكان ذلك بالتَّقوى، التَّقوى، هي ضَبط حواسِّك ومُراعاة أنفاسك.

وتذكَّر، لرَجفةٌ من خوفِ القَطيعة، خيرٌ لك من ألفِ عِبادة!

كان النَّبي ﷺ يبكي، حتى يَبُلَّ الثَّرى، ويُسمع لصدره أَزيز مثل أزيز المِرجل من شدَّة الخوف.

نبي، يَخشى وَحشة المُخالفة!

كانت خَشيته من الله، على أحداقه تقَع.

كانت دُموعًا في أسرارها صوتُ التوبة ينهمرُ، كانت صلاته صلاةً ملأها الوَجع!

يصلِّي الكُسوف، فيَسجد ويظلُّ ينفخُ ويبكي ويردِّد: (ونحنُ نَستغفرك)!

تقول عائشة رضي الله عنها: "ما رأيتُ رسولَ اللهِ ﷺ قط مُسْتَجْمِعًا ضاحكًا، حتى أرى منه لَهَوَاتِه، إنما كان يَتَبَسَّمُ! وكان إذا رأى غَيْمًا أو رِيحًا عُرِفَ ذلك في وجهِهِ! فقلتُ: يا رسولَ اللهِ، الناسُ إذا رأَوْا الغَيْمَ فرحوا رجاءَ أن يكونَ فيه المطرُ، وأَراك إذا رأيتَه عُرِفَتْ في وجهِك الكراهيةُ! فقال: يا عائشةُ، ما يُؤْمِنُني أن يكونَ فيه عذابٌ؟ قد عُذِّبَ قومٌ بالريحِ، وقد رأى قومٌ العذابَ قالوا هذا عارض ممطرنا".

وعلى قَدر تعظيمك لله -عزَّ وجلَّ- يعظِّمك خَلقه!

ولقد كان النَّبي ﷺ يتورَّع عن تمرةٍ، خَشية أن يكون فيها شَيء من الحَرام.

وكان يقولُ: "خيرُ دينِكم الوَرع"!

يوصي أبا هريرة رضي الله عنه: "يا أبا هريرة، كن ورعًا، تكن أعبد الناس".

(وصَل إلينا، مَن صبَر علَينا)! ومن اسَتعجلت عليه شَهوته، انقطعت عنه شَواهد التَّوفيق.

خاف على أمته وحذرها: "ليأتين على الناس زمان، لا يبالي المرء بما أخذ المال، أمن حلال أم من حرام".

وعلى قدر تغيُّر الأحوال والنَّوايا، تتَغير العَطايا!

أدَّب ﷺ أصحابه بالقرآن: أيها الناس، إن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [سورة المؤمنون: 51]، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [سورة البقرة: 172] ثم ذكر الرجل، يطيل السفر، أشعث أغبر، يمد يديه إلى السماء، يا رب، يا رب، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذي بالحرام، فأنى يستجاب له؟!

فإذا رأيتَ الشَّهوة مُلتصقة بباطنِ القلب، فاسأل نفْسَك كيف يحبُّ الله هذا القلب؟

الشهوات تبلُّ العُروق، ثمَّ تُحيلها قَيظًا، فاسأل الله راحةَ التَّرك!

إنَّ مَن صَدق في تَرك شَهوة، كُفِي مَؤنتَها، واللهُ أكرم من أنْ يعذِّب قلبًا بِشَهوة، تُرِكَت له!

مَن غلبَ شَهوات الدنيا، فذلك الذي يخافُ الشَّيطان مِن ظلِّه!

تِلك حكاية جيلِ الصَّحابةِ الذي تربي في مدرسة النبوة..

جيلٌ لمْ يأفَل، كانَ جيلًا يولَد خارجَ الضعف، وعند الموت، ينقُش الخُلود أسماءَهم أبدًا.

لا صُدوع في الأرواح، لا حُفَر مرئية في الطُّرقات إلى الجنة!

إنَّما ينهارُ، مَن يرى حِمل التَّقوى ثَقيلًا، أولئك لا يملكون مفاتيح المَدائن!

لنْ يبلغ عبد الجَليل من العطاء: حتى يَخشى الله في الدَّقيق من الأشياء، حتى يؤثِر دينه على شَهوته!

يُسبِّح معك الماء، حتَّى تعبُر عليه الجِياد الصَّافنات إلى الشَّواطئ.

وإذا عَجزتْ يدك أن تقبِض الجمرا، فسَتغدو كلُّ الجِياد في العُمر خِماصًا!



إنَّ الذين يقتَاتون الجَمْر، هُم للأُمَّة طلْق الولادة.

شِد قوسَك في وَقد الظَّهيرة، بالعزيمة، واتلُ على الشَّهوات معنى (الزَّلزَلة).

وليَبقَ نَبضك سورة (الإسْراء)، فَفيها البوصَلة!

واذكُر..

أنَّ كلَّ حرفٍ راوَدك عن التَّقوى، يَجيء مقروءًا يوم القيامة!

كلُّ ما يُراق في الأسماع من فتنة الهوى، يأتي جليًّا يوم القيامة.

زالت العاجلة، وشَقي بالعاقبة!

تَختبئ الزَّلات في الشَّهوات، تأتيك الفِتنة في الشُّهد، فتُذكي لكَ اللهفة، وما هي إلا كَومة سَراب!

تذكر أن لك مَنزلًا في غُربة الغَيب، والمَفاتيح، ترك الهَوى!

واعلم أنه إذا ضعفت الإرادات بالشَّهوات، شابت الهِمَم!

ومَن استحوذ عليه اتباع الشَّهوات، انقطَعت عنه مَوارد التَّوفيق!

الشَّهوة، أول الحِرمان، فلا تكُن رهينَ الديون!

ومَن شقَّ عليه رُكوب الأهوال، لمْ يرتقِ إلى سُمو الأحوال.

إنَّ العبدَ دومًا بين التَّطهير، ثُمَّ التَكفير، ثُمَّ التَّذكير.

فإذا سَكن الخوفُ في القلب، نطَق اللسان بما يُرضي الرَّب!

ثِقْ أنَّ الشَّهوات حكاية مَوتٍ، ليسَ تُختَتَمُ.

قد قالها الدَّاراني: "تَرَكُ شَهوة واحدة، أنفَع للقَلب من صيام سنةٍ وقيامها"، إن الشهواتِ ثقوبُ السِّجلات!

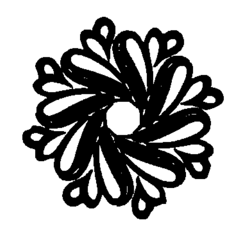
إنَّ عين القلب التي تُنتج البَصيرة، لا خفَايا محمومة لها مع الشَّهوة.

اعْتِق قلبك، إنَّ مَرعى الشَّهوات هَشيم!

تعرَّ مِن الهَوى، والبِس لباسَ التقوى، وبادِر الزِّمام بيدك، فإنَّ الشَّهوة زِمام الشَّيطان!

والشهوة إذا امتلَكت الأُمَّة كَسرت فيها الرُّمح وحَرمَتها سُورة الفَتح، كان النبي يهيِّئ أمته للآتي..

وقد كانت الحُرية من قَيد الشَّهوة! بعضُ صِناعة النَّبي ﷺ في أُمَّته!




29
في رمضان
كان النبي ﷺ يقاتل
وتشتدُ الشقوق
في قدميه فإذا
المسافات إلى النصر
قصيرة!

في رَمَضان، كان جِهاد النَّبي ﷺ كان ذاكَ جهادًا خَلْف غاية تبدو مُستحيلة!
في رَمضان، كان النَّبي ﷺ يقاتِل، كيْ يزيلَ بقايا الرمل عن عَينيك!
يقاتِل وتَشتدُّ الشُّقوق في قدميه، فإذا المسافات إلى النَّصر قَصيرة!
ينتعلُ الجيش معه الآفاق، وتُكتب البدايات عبر الجِراح المَمنوحة.
فلله ما وَهبوا، ولله ما بَذلوا، وعلى سِيماء الجُند، مَسطور أنَّهم هُم القدَر.
تنالُهم الجِراح، فيَغدون حواريَّ النَّبي ﷺ!

(لقد كانت غزوة بدر التي فرَّق الله فيها بين الحقِّ والباطل في السابع عشر من شهر رمضان من السنة الثانية للهجرة، وفتح مكة جرت أحداثه المباركة في العاشر من رمضان من السنة الثامنة للهجرة، وبعض أحداث غزوة تبوك كانت قد وقعت في رمضان من السنة التاسعة للهجرة).

ينزِل جبريل على سِيماء الزُّبير في عمامته يوم بدرٍ، فقد كان: ﴿مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [سورة الأحزاب: 23].

وينزِل في أبي بكرٍ: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [سورة آل عمران: 172].

فيا للهِ..
إذْ تُصبح حكاية عمرك في القرآن آية!

يا لله إذ يكون اسمك هنا: ﴿لَقَدْ تَابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ العُسْرَةِ﴾ [سورة التوبة: 117].

ويا للهِ، إن كنت من هؤلاء: "من جَهَّز جيشَ العُسرة فلَهُ الجنَّةُ".

(يهرع عثمان بن عفان رضي الله عنه إلى بيته ويأتي بألف دينار ويضعها بين يدي رسول الله ﷺ، ثم يمد الجيش النبوي بثلاثمائة بعير بكامل عدتها من أسلحة

وأحلاس، فيجهز ثلث الجيش، ثم جاء أبو بكر الصديق ﵁ بكل ماله من دون أن يبقي لأهله شيئًا، فقال له رسول الله: "ما أبقيت لأهلك؟"، قال: "أبقيت الله ورسوله"، وجاء عمر بنصف ماله).

وفي وقت حار جدًّا وقحط، وضيق شديد في النفقة والظهر والماء يجيء أهل الحاجة والفاقة يستحملون رسول الله ﷺ ليخرجوا إلى قتال الروم، ويشهد الله لقلوبهم أنهم كانوا معنى الآية، ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾ [سورة التوبة: 92].

يطيرُ جعفرُ في الجنَّة، مُضَرَّجة يداهُ بالدماء، ويَكتب في تاريخ الجنة، أنَّنا نُحَلِّق في الجنَّة إذا نزفَ رحيقُ العمر لله!

يُكَلِّم الله جابر كِفاحًا بلا حجاب. (إنَّ اللَّهَ لم يُكلِّم أحدًا من خلقِه قطُّ إلَّا من وراءِ حجابٍ، وإنَّ اللَّهَ أحيا أباكَ فَكلَّمَه كفاحًا وقالَ يا عبدي تمنَّ عليَّ ما شئتَ أعطيكَ).

وينسابُ الجَلال في الجنَّة، ويُصبح الزمان أخضَر.

فذاكَ جزاءُ مَن رَكِب خَيله، رغم سَعيِ الأحزاب لخنق الصَّهيل!

يتكلَّم سعدُ بن معاذ بحكم اللهِ، وينزِل سبعون ألف مَلك لِزفافه، "إن اللهَ أهبط لموتِه سبعين ألفًا من الملائكةِ".

جِراحه لا تتخثَّر، والدَّمُ مِسكٌ وعَنبر، فقد كانَ عبدًا عن الله ما تأخَّر.

عبد في بيعه ما تعثَّر!

في رمضان، كان النَّبي ﷺ يقاتِل..

وعلى وقْع سورة التوبة، كانت تنكشف الوُجوه، إذْ لا سُورة للفتح تتلوها الأُمّة قبل سُورة التوبة!

كانت سُورة التوبة، تكشِف الأقدام الخائِرة..

تكشِف الذين يطارِدون في الأُمّة الصبح!

تتنزَّل سُورة الأحزاب، فَمِن سُورة الأحزاب، ستُولد فاتحة الفَجر.

ومِن أحشاء الدُّجى، ينهضُ الذين نذَروا أعمارَهم لِحراسة الحق من الأَسى!





تترصَّدهم الغِربان، تخذُلهم الأيادي، ويَكاد القحْط يخطفهم.

وكانت تلك ضريبةُ التَّكبيرة الأولى، وذاكَ ابتلاء التكبيرة الأولى.

لقد علمهم النبي في مسجده الرباط على السَّبعِ الطِّوال، فهان عليهم الجهاد في رمضان!

فرابط على السَّبع الطوال، ولا تَجرِ مع السَّيل الغثاء!

رابِط على السَّبع الطوال، وستتقن شد القَوس نحو عُبَّاد الوَثن!

رابِط على السَّبع الطوال، وسِرْ على حَدِّ الشَّمس!

رابِط، وسَيجعل اللهُ لك الذَّاريات تَجري شَرقًا وغَربًا!

إنْ ضاقَتْ، فاقرَأ تَعويذة (الشَّرح)، وتذكَّر: ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [سورة الشرح: 5].

أنت تعتنقُ الحُلم، إذا لمْ تأذَن للموت أن يعبُرك.

لذا اغْتَسِل من صوت الحاضِر، ومِن نَشرة الأخبار الثَّقيلة.

إن الله مَن يملك الأرض، وما سوى ذاكَ، فذاك لَهو الطَّواويس، ولَغو القَواميس، وذاك هو الرَّفَث!

انصتْ في ليلِ الغفلة، إلى (صوتِ المآذن في القُدس تَرفع رايةَ العِصيان).

أنصت، فالقُدس تشتاقُ إسراءً جديدًا، فكُن أنت وَريث أحْمَدا!

هذا الرِّهان عليكَ، فلا تتقهقر ولا تُساوم.

هذا الرِّهان عليكَ، فلا تُقايض سُورة الإسراء، بِمن جعَلوا الشَّباب قُربانًا لإفكِ بَني يهود!

والمُرافقة للمَنهج، تَعني المُوافقة.

والمُرافقة للهَدي، تَعني المُوافقة.

اسْكُب خطاك على درب نبيك، كيْ ينتهي الفَقْدا..

اسْكُب زَيتَك في مصابيح محمد، يَشتعلُ قِنديلًا، وإذا أرادكَ الله لأمرٍ، هيَّأك له!

إنَّ العامل لله تعالى سِندان، يدقُّ عَليه ولا ينْشقُّ.

العامِل لله، رُؤاه على أقاصي الخُلود، ويَصدُّ بِكَفِّه زمنَ خَيْبَر!

سَلِّمْ المُشترى إلى المُشتري، وغَدًا يُعطيك الثَّمن.

واعْلَم أنَّ ثبات الأقدام، على قَدر الاتِّباع لنَبيِّك.

ولقد وُكِّل البلاء، بالولاءِ، فتَنبَّه!

إذا خَرقْتَ العادةَ مِن نَفسِك، خُرِقت لكَ العادة، فتِلك كرامةُ الطَّريق!

لا تَكُن نُقطة الصِّفر، أو رقَمًا في مهرجان المَوت.

لا تَكُن بعض القَطيع، ولا تكُن ذاكَ الجِياد الدَّاكن!

كُنْ أنتَ مَن يكتُب المبتدأ والمنتهى، وثق أن ما حولك ما هو إلا زَبَد الغُبار.

هُمْ بعض عامٍ، لا يَمُتُّ إلى ماضٍ، ولن يَمتدَّ مِن إخصابهم خَلَف، فتَسوَّر خَوفك.

وتُبْ مِن تنَاوُل المُباح بِشَهوة!

الْزَم خوفَ الله وَحده في ليلك ونهارك، يُقال لقلبك وسِرك ﴿لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [سورة طه: 46].

متَى يكونُ زمانٌ تتَدلَّى فيه عناقيدُ الفَرج؟

اصْبِر، فما بقي إلا هُنيهة..

وإنَّ الفُروع، تُبنى على الأُصول..

وكُلُّ مَن تَعزَّز بشَيءٍ غيرَ الله، فَقد ذَلَّ في عزه، ومَن اكتفى بِغَير الكافي، افتَقَر مِن حيثُ استَغنى.

لَكن الأبصار قَوية، والبَصائر ضَعيفة!

يا رب، لا يَمْلك القَلب غَير عَزْم النَّوايا، والعَزْم في غَير زَمنِ العَزائم يا مَولاي، مُعجِزة!


30
نبيٌّ ظلّ قابضًا
على جمرة الصّوم
في كلّ عمره

إذ الجُوعُ هو حُروف الحُرية! كان النبي يصنع أمته من صلاتها وصيامها وقيامها.

يعلِّمهم خُيوطَ اسْتِعباد الأُمَّة تُغزَلُ مِن طَعامِها، مِن مَتاعها، مِن احتفال اللذات!

تُصبح الأُمَّة مُذبذبةً بين الفِتنة وبين سُجون المُتعَة، إذا غَرقت في مُباحها.

يُعتَقل العَقل، إذا استُدرِجت الأُمَّة إلى شَهواتها!

مِحنةُ الأُمَّة اليوم، في غيابِ الفِكرة، في غياب أن الصوم ليسَ جُوعًا.

عبادة الصيام في رمَضان هي حُرية الاستعلاء، لأُمَّةٍ يُراد لها أن تَرقى السَّلالم!

يُصَلي النَّبي ﷺ في حُجرة عائشة، فَيغمز قَدمها، فَتقبضها كيْ يُتاح له السُّجود..

يكادُ ظِلُّها أنْ يكونَ في قَبضة كَفِّه، مِن ضِيق الحُجرة!

فِراشه عَباءة مَثنيَّة، فَيُواسي زَوجاته بقوله: "لو شِئت لأَجرى الله مَعي جبال الذَّهب والفِضة".

نَبيٌّ، راوَدَتْه جبال الذَّهب، فأراها أيما شَمم، وقال: "بلْ أشبَع يومًا وأجوع يومًا".

نبيٌّ، كان يَنتقي سِرَّ القيامة!

ما المَلذات في عَينه، إلا فِطر مُؤجَّل لزمن الآخرة.

وفي الأرض، ظلَّ قابضًا على جَمرة الصَّوم في كلِّ عمره، وفي خفايا الرُّوح، خبَّأ كُلَّ ما نَزَفا!

كان يَحرثُ حقول الآخرة، بصبره.

لمْ يلتفت للنَّقص في مَتاعه، فقد كان مَشغولًا بنسيجِ أثواب الخُلود لنا!
كان نَبيًّا خارجًا من ذاته..
مُتَجردًا، وعند مُحَمد ﷺ، لا تسويف للرُّوح.
لا جِفن للوَقت يَغفو على لَمعة الدُّنيا، عينه على مَرفأ الفِردوس، وفي أهداب هِمَّته، تألَّقت خَريطة الفَتح!
تَجافى عن زَهوة الدنيا..
فما خصَف وَرقًا، ولا انكشفتْ له سَوأة، حتى كأنَّ القلب في عُمقه لمْ تَمسَسه يومًا شَهوة الدنيا!
يشيخُ بقلبه، وفي غَمرة الفضْل، يتَناهى لمنزلة فوقَ كلِّ المنازل!
يبيتُ الليالي طاويًا، لمْ يَشبع من خُبز الشَّعير.
ولمْ يُوقد في بَيته في الشَّهر نار ولا يَبْأس!
سَمَى حتى صارت الأنجُم تَحته، آدابه تدل على مَقامه.
يتوقَّف الحَرف عاجزًا عن إسدال سِتاره على سَعة المعنى في شَخصه.
نَبيٌّ، كان فكره سَمَت الأنبياء جَميعًا!
علم أصحابه معنى، خُلِقت الدُّنيا لِنَجوزها، لا لِنَحوزها، لِنَعبرها، لا بالمَتاع نَعْمرها!
يتَبتَّل الرِّجال في مَدرسة النُّبوة، في عُبودية الفَتح.
ويَستعيذون كلَّ ليلةٍ من قَيد، يَغلُّ النَّواصي عن خارطة المُنى.
إذ الطامِحون للغَايات، ينْتَعلون الدُّنيا ولا تَنتعلهم!
كانوا يَعلمون..
أنَّ الدُّنيا يُشدُّ لحزنها الرِّحال، وفيها يَختفي الأثَر!
كانوا يقولون ما رأينا أحدًا طلَب الدُّنيا، فأدْرَكَ الآخرة!
أولئك أصحابه، طلَبوا الجنة بِغُدوهم وَرواحهم.
صحابةٌ، أقبلَت عليهم الدُّنيا، فهَربوا منها.
وأدبَرت عنَّا، فاتَّبَعناها!
نَتعلَّق اليوم بمتاعها، فتُصبح الأُمَّة سَطرًا أخيرًا في كتابٍ اسمه، مماتُها!





التَّرف، هو الرَّشفة الأخيرة في عُمر الأُمَّة.

هو أول النُّضوب، هو الشيخوخة التي لا تُرى!

يَخلعُ التَّرف أبوابَ الأُمَّة في وَجه الرِّياح..

لذا قالها السلف: "قُل لمن طلَب الدنيا، تهيأ للذُّل".

كان السَّلف إذا رأوا رجلًا يأكل كثيرًا يقولون: "ابنوا له مَعلَفًا"!

إذْ كانوا يرونه أول الهَزيمة!

وكانوا يقولون: "من عَظَّم صاحب مَتاع، فقد أحدث في الإسلام حدَثًا"!

متاعها هو عَتْمتها..

وفَريضة الأُمَّة، أن تكون فاتحتها حُرية، وآمينها اسْتعلاء.

تلك فلسفةُ شعيرة الصِّيام، فلسفة رمضان في صناعة الحرية، لو نُدرك!

مَن خرج من الدُّنيا خميصًا، ورد الآخرة سليمًا.

إنَّ فُضول الدنيا عند الله، رِجز، وقَد قال لك ﴿والرُّجز فَاهْجُرْ﴾ [سورة المدثر: 5].

ومن كانت الدنيا إمامَه، كان في مَقعد الهَزيمة!

الدُّنيا عند الله، لا تساوي نقلَ أقدامك في طَلبها.

وقد قيل لأحد الصالحين:

"لمَ تخَليتَ عن الدُّنيا؟"، قال: "خَوفًا من أن تتَخلى عني الآخرة"!

المُكتفي بكفايةِ الكافي، اكتَفى، فاشتفى!

إنَّ الأرض لله، فاخْتَر فَوقها إرثًا، فأنتَ لا مُهلكَ نَسلًا ولا حَرثًا!

يمدُّ رمضان كفَّه، ليرفعك، فلا تجعل من جراح الدُّنيا مَصرعك!

لا تكن في حُضورك، بقيةَ ذِكرى، ولا تَكن أضغاثَ الفَشل.

لا تكن ما يَنسدل على الحُلم!

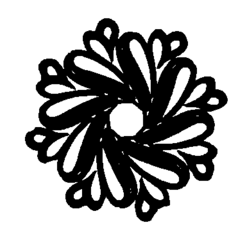
يتَجلَّى الحُبُّ في الخطوات.

أنتَ تَطئُ عَقبه، إذا وَضَعْت رِحالك على رَحله، وكلُّ مَن سَلك الطَّريق من دونه، ضلَّ في أول قَدم!

يتَسامى، حتى تَصْفو له الآخرة، ذاكَ هَدْيه، فتَعَلَّم!

وثِقْ أنَّه ما رجَع مَن رجَع، إلا من الطَّريق..

ولو وصَلوا إلى مَقامه، ما رجَعوا!




31
سلمان منّا آل البيت

هذه قصَّة تكادُ تضيء: (سَلمان مِنَّا آلَ البيت).

هجرةٌ، أدخَلتْ سَلمان في عَباءة آل البيت!

هجرةٌ، كشَفتْ عن أنَ مَن شقَّ الدروب ليقتَفي، استحقَّ الصلاة عليه!

يميلُ ظِلُّ سَلمان إلى ظِلِّ إبراهيم في المهجر، فينبُت بينهم نَسَب..

وتشهدُ الأوائل للأواخر، أنَّ النَّسَب هِجرة!

كل ذرةِ رَملٍ كانت تحت نعليه، تجمعُ له العطاءات طَيًّا، يرتدي سَلمان جراحَه، فيُصطفى..

ويبلُغ النسب الشريف!

كان الطَّريق إلى المدينة سِلسلة من الأحاجي، ظلَّ سَلمان يفكُّ أسرارها حتى بلَغ السَّبعَ المثاني..

بلغَ ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [سورة الفاتحة: 6].

هجرة، من الطرق العمْياء، من ألف مُفترق!

(كان مجوسيًّا، لأنَّ قومه كانوا يعبدون النار، وكان يقوم على تزويدها بالحطب وخدمتها لكيلا تنطفئ، لأنَّ أباه كان من رؤساء القرية، ويُسمَّى عندهم: دِهْقَانَ، كما أنَّه كان أحبَّ أبنائه إليه، وذات يومٍ انشغل أبوه بإقامة جدارٍ له، فطلب منه أن يذهب إلى مزرعتهم ويُحضر له شيئًا، فمرَّ بكنيسةٍ ودخل فيها، وسمع أصوات صلاتهم، فوقعت النصرانيَّة في قلبه، وبقي عندهم إلى غياب الشمس، وسأل عن أصل دينهم، فأخبروه أنه بالشام).

يُهاجر في وَحشة الأسفار، فيُدرك أنَّ الأديان السابقة صَحاري، وأن النَّبي ﷺ، وحده لها زَمْزما.

في سعي سلمان كان معنى (مِنَّا آلَ البيت).

خَاتمة لفاتحة الهِجرة، وكل سَفَر لا ينتهي إلى عتبة النَّبي ﷺ، لن ينتهي.

سيظلُّ شَتات التِّيه يلاحق الخطوات، التي لا تعرف ظِلَّ العرش مأوى!

يمضي حاملًا غربته، فيلتقي بعضه بعضَ النَّبي ﷺ، ويصبح في مقام (سَلمان مِنّا)!

هِجرة، من نار المَجوس إلى ﴿لَعلِّي آتِيكُم مِنْهَا بِقَبَسٍ﴾ [سورة طه: 10].

(لما سمع أبوه بالخبر حبسه وقيَّده، فأرسل سلمان إلى النصارى يُخبرُهم بقصَّته ويسألهم أن يُعلِّموه إذا جاء وفدٌ منهم يريد الشام، ولمَّا حضر الوفد أخبروه، فنزع السلاسل من قدميه وذهب معهم يُريدُ النصارى في الشام، فلمَّا وصل قام على خدمة أحد أساقفتهم، ولكنَّه كان سيِّئًا، حيث كان يأمر النصارى بالصدقة، ثُمَّ يأخُذها لنفسه، فمات وأخبر سلمان الناس بسوء خلقه، فوضعوا مكانه أسقفًا لم يرَ سلمان مثل أخلاقه من قبل، فلما حضرته الوفاة قال له سلمان: "بمن توصيني أن ألحق؟"، فأوصاه بواحد منهم، وبقي يتنقل بين عُلماء النصارى حتى أخبره أحدهم بأنَّه هُناك نبيٌّ سوف يُبعث).

تَهطل حكاية سَلمان فينا، رَذاذًا، لتُخبرك، أنَّ كل رحلة ليست وراء النَّبي ﷺ، لن تزيدك من الله إلا انتباذًا.

وكل اشتياقٍ لا هجرة فيه، لا دَليل عليه! ولن يبلغ بك.

(تنقَّل في خدمة العديد من أساقفتهم وعُلمائهم، وكان آخرهم عالمًا من عُلماء عموريَّة الروم في الشام، فأوصاه عند موته بالذهاب إلى الحرم، حيثُ سيُبعث فيها نبيٌّ، وذكر له علامات نُبوَّته، وهي أنَّ بين كتفيه خاتم النبوة، ويأكل الهدية ولا يأكل الصدقة، وكان سلمان قد اكتسب من العمل عنده غنمًا وبقرات، وأوصاه بالبحث عن النبيِّ الذي سيُبعث في أرض العرب، ووصفها بأنَّها أرضٌ بين حرتين، بينهما نخل، وأخبره أنَّه سيُبعث بدين إبراهيم وهو الحنيفيَّة، وأنَّه سيخرُجَ في أرض العرب، فلما مات الراهب، بقي سلمان بعده في عموريَّة بعض الوقت حتى جاء نفرٌ من تُجار كَلب، وطلب منهم أن يذهب معهم إلى أرض العرب، ويُعطيهم ما معه من غنمٍ وبقر، فوافقوا وأخذوه، وفي الطريق غدروا به وباعوه عبدًا).



لكن الصِّدق مِجداف الوصول إلى المُنى، ووَحشة الطريق وهْم لمن كانت عينه على المنتهى!

يا الله:

يتوسَّل بها سَلمان في الصَّحراء بين القوافل، فتمتدُّ أَلِفُ المَدِّ أَلْف مدى.

ومَن رفع قَدَم الصدق، اهتَدى، وإلى أصدق الطُّرق، انتمى!

(ذَهَبْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُو بِقُبَاءَ، فَدَخَلْتُ عَلَيْهِ فَقُلْتُ لَهُ: "إِنَّهُ قَدْ بَلَغَنِي أَنَّكَ رَجُلٌ صَالِحٌ وَمَعَكَ أَصْحَابٌ لَكَ غُرَبَاءُ ذَوُو حَاجَةٍ، وَهَذَا شَيْءٌ كَانَ عِنْدِي لِلصَّدَقَةِ، فَرَأَيْتُكُمْ أَحَقَّ بِهِ مِنْ غَيْرِكُمْ"، قَالَ فَقَرَّبْتُهُ إِلَيْه، فَقَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ لِأَصْحَابِهِ: "كُلُوا". وَأَمْسَكَ يدَهُ فَلَمْ يَأْكُلْ، قَالَ فَقُلْتُ فِي نَفْسِي هَذِهِ وَاحِدَةٌ، ثُمَّ انْصَرَفْتُ عَنْهُ فَجَمَعْتُ شَيْئًا، وَتَحَوَّلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْمَدِينَةِ، ثُمَّ جِئْتُ بِهِ، فَقُلْتُ: "إِنِّي رَأَيْتُكَ لا تَأْكُلُ الصَّدَقَةَ وَهَذِهِ هَدِيَّةٌ أَكْرَمْتُكَ بِهَا"، قَالَ فَأَكَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْهَا، وَأَمَرَ أَصْحَابَهُ فَأَكَلُوا مَعَهُ، قَالَ فَقُلْتُ فِي نَفْسِي هَاتَانِ اثْنَتَانِ، ثُمَّ جِئْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَهُو بِبَقِيعِ الْغَرْقَدِ، قَالَ: وَقَدْ تَبِعَ جَنَازَةً مِنْ أَصْحَابِهِ عَلَيْهِ شَمْلَتَانِ لَهُ، وَهُو جَالِسٌ فِي أَصْحَابِهِ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ ثُمَّ اسْتَدَرْتُ أَنْظُرُ إِلَى ظَهْرِهِ هَلْ أَرَى الْخَاتَمَ الَّذِي وَصَفَ لِي صَاحِبِي، فَلَمَّا رَآنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ اسْتَدَرْتُهُ عَرَفَ أَنِّي أَسْتَثْبِتُ فِي شَيْءٍ وُصِفَ لِي، قَالَ فَأَلْقَى رِدَاءَهُ عَنْ ظَهْرِهِ، فَنَظَرْتُ إِلَى الْخَاتَمِ فَعَرَفْتُهُ فَانْكَبَبْتُ عَلَيْهِ أُقَبِّلُهُ وَأَبْكِي).

سَلمان، مطْلع قصةٍ لا تموت.

أولئك قومٌ، بايعوا الله بِصدْق النِّيات، وخلوص الطَّويات، مع كثرة المُجاهدات.

ولو صحَّ لعبدٍ هجرة من غير رياء، لأثَّر ذلك بركات عليه إلى آخر الدَّهر!

وقد قيل: "من وَجد ثمرة عَمله عاجلًا، فهو دليلٌ على وجود القَبول آجلًا".

وقد وجدَها سَلمان، وتفرَّد بها مقامًا إلى الأبد!

ويوم القيامة يُقال لك:

اتْلُ هجرتك، والسِّجلات تشهد!

في خاتمة المَشهد نُدرك، أن الصدق لغةُ الصَّالحين، وحرف القَبول في السَّماء!

وقد قيل: الظاهر عنوانُ الباطن.

وما استُودع في غَيب السَّرائر، ظهرَ في شهادة الظَّواهر، وما خامَر القُلوب، فعلى الوجوه يَلوح.

ويُستدل بشاهدِ العبد، على غائبه!

تولد النِّيات في الصدور خَفِيَّة، ثمَّ يجعلها الله في المَوازين، جليَّة.

ومن قبل، يجعلها بركة في الأعمار جليَّة!

في ارتحال الطَّريق، إن ضلَّت الخطوات، فتلك أسرارُ القلوب، فتنبَّه!

وقد قالها السَلف:

"من راقبَ الله في خطُرات قلبه، عصَمه الله في حركات جَوارحه،

ومن جعل همَّه نفسه، ضيَّع طريقه، ونفسه"!

لا تغيبُ عن الأعمال خُدوشها، ولا تنسى السِّجلات يومَ العَرْض جِراحها..

وإن ثُقْب الصِّدق، هو سرُّ أمواج العَنا!

فيا فِتنة الروح، يا فتنة الشَّهوة، ويا ثُقوب السِّجلات.

إذْ تُسلُّ يوم القيامة من الأعمال رُوحها! أمَا بلغكَ قوله: "يا داوود إنِّي مُختارٌ، لِمن اختارني"!

لذا، فرِّغ قلبك من الأغيار، يملؤهُ الله بالنُّور والأسرار، فقدْ قيل: "القبولُ بشيره الإقبال".

فتعلَّم كيف تمنح خَطواتك البَوصلة!


32
وارزقنا اتباع الأثر

إنَّ الذين بلَغوا إنما بلغوا يوم جَعلوا أقدامهم على مُنتهى قَدمه، وكان الامتحان محنة ومنحة، ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [سورة آل عمران: 31].

فاجْعل نيَّتك أن تكون على خُطاه، حتى يصبَّ القُرب عليكَ صبًّا صبًّا.

وقدْ قيل: مَن اقتَدى بنا، سَلِم، ومَن أنابَ إلى الله بنا، غَنِم!

وخَير الهَدي، ما نجَّاك من غبَشِ السَّعي!

تأمل سيرته، نبيٌّ، أَعطى فاستحقَّ، ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الكَوْثَرَ﴾ [سورة الكوثر].

عامَل الله بما يليقُ، فعامَله بما يُدهِش!

كانَ النَّبي ﷺ يذكُر الله ولا يفْتُر، حتى تَدنو الملائكة كيْ تدرك!

(كانَ النبيُّ ﷺ يَذْكُرُ اللَّهَ علَى كُلِّ أحْيَانِهِ)، ويُلهمنا بسيرته، أنَّ مَن سُلِب الذِّكر، فقد عُزِل عن الفَضل!

يسارع في النفقة، مثل الرِّيح، ويُدني المساكين لِعلمه أنَّ: (كُل امْرِئٍ في ظِلِّ صَدَقَتِهِ حَتَّى يُفْصَلَ بَيْنَ النَّاسِ)!

يَتحاشى الشُّبهات، إذ كان يُدرك أنه لا يَجترئ على الشُّبهات إلا مَن تعرَّض للمُحرمات!

قال عليه السلام: "إِنَّ الحَلالَ بَيِّنٌ، وإِنَّ الحَرامَ بَيِّنٌ، وَبَيْنَهما مُشْتَبِهاتٌ لا يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَمَن اتَّقى الشُّبُهاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وعِرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهاتِ وقَعَ في الحَرامِ".

يميزُ بين الخَيط الأبيض، والخَيط الأسود، فلا تلتبسُ عليه ألوان الفِتن!

وإذا وافَق الحقَّ الهوى، فذاك الشَّهد بالزَّبد!

غُبارٌ هوَ الهَوى، ولا شيء مثل مُحمد ﷺ، يمرُّ عليه من دون أن يتَوسخا..

الوجه إلى الدُّنيا مُلتفت، والقلبُ ما التَفتا!

ظلَّ واقفًا على باب الله بالفَقر، حتى تَعلَّم السَّلف أنَّك إن أردتَ وُرود المَواهب عليكَ، صَحِح الفقرَ لديك!

كانَ يبكي حدَّ انطفاء الدُّموع، فيبكي الصَّحبُ من ورَائه بدمعٍ، هدَّه السَّقَم!

عن عبد الله بن الشخير قال: "رأيت رسول الله يصلي وفي صدره أزيز كأزيز الرحى من البكاء"، وفي رواية: "وفي صدره أزيز كأزيز المرجل".

تخبر عائشة ﵂ أنه قام يصلي، قالت: "فلم يزل يبكي حتى بلَّ حجره"، قالت: "وكان جالسًا، فلم يزل يبكي حتى بل لحيته، ثم بكى حتى بل الأرض، فجاء بلال يؤذِنُه بالصلاة، فلما رآه يبكي، قال: يا رسول الله، تبكي وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: "أفلا أكون عبدًا شكورًا؟ لقد نزلت عليَّ الليلة آية، ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها": ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [سورة آل عمران: 190]».

كيفَ يُشرق نور الله في صَدرٍ، مُطفَأ العينين؟!

ومن دون حُبِّ النبي، فإنَّ الوُجهةَ العَراء!

الحُبُّ ليس ارتجال العاطفة، الحُبُّ قرارُ النَّجاة في الآخرة!

وإنْ كنتَ على طريقه، فليس بَينك وبينه مَسافة تطويها!

انْظُر إليه..

يُعَلِّمُ الصَّحب مِن سيرتِه، أنْ تَحقَّق بِضَعفك، يَمُدُّك بِحَوله.

وتَحقَّق بِعَجزك، يَمُدُّكَ بقدرته، وتَحقَّق بذلك، يَمدُّك بعزِّه!

﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ﴾ [سورة التوبة: 60].

قال رسول الله ﷺ لفاطمة ﵂: "ما يمنعك أن تسمعي ما أوصيك به؟! أن تقولي إذا أصبحت وإذا أمسيت: يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث، وأصلح لي شأني كله، ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين أبدًا".

يخشى على أصحابه مِن أن يَرفعوا المَساجد، ويكونوا فيها ظِلًّا، فيلتقطون المعنى أن: (لا تكونوا كالمُنْخل، يُخرِج الدَّقيق الطَّيِّب، ويُمسك لنفسه النخالة)!

يربِّيهم على الوَرع، إذْ أصلُ كلِّ خيرٍ، اللقمة والخُلطة!

فَكُلْ ما شئتَ، فمثله تَفعل، واصْحَب مَن شئْتَ، فأنتَ على دِينه!

يعلِّمهم..

أنَّ دمعةً من عبدٍ، تطفئ غضبَ الرَّب.

قطرةُ شهيدٍ، تمحو الزَّلَل.

نَفَسٌ أسْيَف، ينْسِف ما سَلف.

خطوة في مرضاة الله، تَغسِل الخَطيئات، تَسبيحة، تغرِس لكَ أشجارَ الخُلد!

يعلِّمهم أن العُمر ظِلٌّ، مَدَّ مداهُ، إذا آمَن الشهيد، أنَّ الموتَ حَياة!

قال ﷺ: "ما أَحَدٌ يَدْخُلُ الجَنَّةَ يُحِبُّ أَنْ يَرْجِعَ إلى الدُّنْيا وله ما علَى الأرْضِ مِن شيءٍ إلَّا الشَّهِيدُ، يَتَمَنَّى أَنْ يَرْجِعَ إلى الدُّنْيا، فيُقْتَلَ عَشْرَ مَرَّاتٍ لِما يَرَى مِنَ الكَرامَةِ".

يعلمهم أن الله جعل الملائكة في خِدمتك..

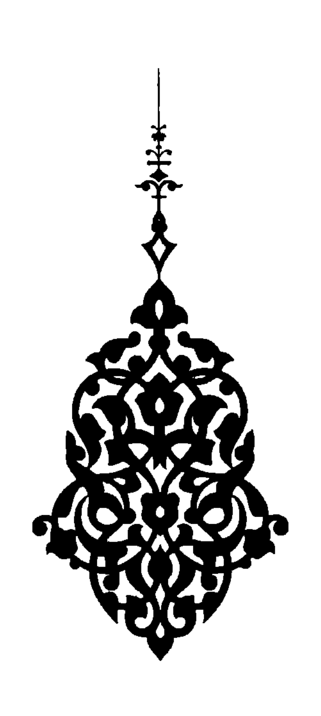
وأبعَد إبليس، إذْ لم يَسجُد لأبيك وأنت في صُلبه!

هذا مَقامك، ففَتِّش عن اتِّباعِك!

اعْلَم أنَّه متى رَزقك الاتِّباع لِنبيه، فقدْ أسبغَ عليك نِعمه ظاهرةً وباطنة!

أتْقن اكتمالك، باتِّباعِ خَليله، ولا تَكُن يوم القيامة في مَوطن النَّقص!

وابدأ بنيتك، فقُوموا إلى نياتِكم يَرحَمكم الله!




33
غزوة الأحزاب
وتوقيت النهاية

بكلِّ المُعلَّقات، كَتبت قريش بقاءَها، لكنَّها لم تكن تَملك بقيَّة الغيب، لِتعرف متى انتهاؤها!

واحتَطبت مِن كلِّ جافٍّ، صَنعت أسماء أصنامها، ونَفخت فيها روح الوَهم وانتظرتْها.

وتجهَّزت قريش وكِنانة وأهل تِهامَة في عشرةِ آلافٍ، قريشٌ وحلَفاؤها، وهُمْ أهلُ مكَّةَ ومَن حولها. وأهلُ نَجْدٍ: تميمُ وأسدُ وغَطفان ومَن دخلَ معَهُمْ. واليهودُ بنو قُرَيظَةَ، كلُّ هؤلاء يُغريهم انتفاشة الرَّقم!

يطرُق سَمع المدينة صدى صيحاتهم، ومِن غربةٍ هائلة، تبدأ حروف نصِّ البقاء للإسلام، وعلى ضَجيج الرُّعب، حاوَل سلمان الفارسي محاصَرة الخوف!

يتقدم سلمان الفارسي في حَشدٍ مِن الفزع، ويقدم فكرة، سُور الحماية، الخَندق، وبين الدَّهشة والخيال، يحفر المسلمون خندق المفاجأة!

قال سلمان: "يا رسول الله، إنَّا كنا بأرض فارس إذا حوصِرنا خندقنا علينا".

وكانت تلك صدمة المعركة، الأيدي المخلِصة، الذكاء في صناعة شيءٍ من لا شيء، اشتعال الجهود على جمرة الحبِّ لله والرسول، عُنفوان صبر وتخطيط، وخَلف الليل، الأحداق ملأها السَّهر، ساعات متواصلة..

وفي 14 يومًا يحفرون ما يزيد على 12 كيلومترًا بعمق خمسة أمتار، وهم القلَّة القليلة، وعدد جيشِ المُسلمين تسعُمائة مُقاتل، كانوا مليئين بالله وكان ما يَجري معنى: (وكنتُ يَده التي يبطِش بها)!

يحفر النَّبِيُّ ﷺ مع الصحابة، ويَحمل ما لا يُحمل، يسجد ويركع بما نعرف، ولكن في القلب ما لا نَعرف.

تُرسل النفوس خيالها، فلا تبلُغ أين بلغ، وتملي الفتن في كتابِ الغيب أخبار ثباته!

(لما أمر رسولُ اللهِ ﷺ بالخندقِ فخُنْدِقَ على المدينةِ، قالوا يا رسولَ اللهِ، إنَّا وجدنا صفاةً لا نستطيعُ حفرها، فقام النبيُّ ﷺ وقمنا معَه، فلما أتاها أخذَ المِعْوَلَ فضرب أخرى، فكبَّرَ فسمعتُ هَدَةً لم أسمَع مثلها قط، فقال، فُتِحَتْ فارسٌ، ثمَّ ضرب أخرى فكبَّر، فسمعتُ هَدَةً لم أسمع مثلها قط، فقال، فُتِحَتِ الرومُ، ثمَّ ضرب أخرى فكبَّرَ فسمعتُ هَدَةً لم أسمع مثلها قط، فقال، جاء اللهُ بحِمْيَرَ أعوانًا وأنصارًا).

يخفون صوت الفزع، وتحت عباءة النَّبِيِّ ﷺ يرتجفون!

يتضاعف الخَوف من كلِّ جانب، تطيرُ بهم الظنون إذا ذَكروا العواقب، مَن يأخذهم مِن وسط الهَلع..

وفي غَسق الليل تعصف الرِّيح، نجومٌ وراء الغيوم، الأوجاع تغزو العِظام، ويشتدُّ الجوع، ويئنُّ القلب من نِياطه إلى نياطه!

يحدِّثنا جابر ﷺ: "لَمَّا حُفِرَ الخَنْدَقُ رَأَيْتُ بالنَّبيِّ ﷺ خَمَصًا شَدِيدًا، فَانْكَفَأْتُ إلى امْرَأَتِي، فَقُلْتُ: هلْ عِنْدَكِ شَيءٌ؟ فإنِّي رَأَيْتُ برَسولِ اللَّهِ ﷺ خَمَصًا شَدِيدًا، فأخْرَجَتْ إلَيَّ جِرَابًا فيه صَاعٌ مِن شَعِيرٍ، ولَنَا بُهَيْمَةٌ دَاجِنٌ فَذَبَحْتُهَا، وطَحَنَتِ الشَّعِيرَ، فَفَرَغَتْ إلى فَرَاغِي، وقَطَّعْتُهَا في بُرْمَتِهَا، ثُمَّ ولَّيْتُ إلى رَسولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَتْ: "لا تَفْضَحْنِي برَسولِ اللَّهِ ﷺ وبِمَن معهُ"، فَجِئْتُهُ فَسَارَرْتُهُ، فَقُلتُ: يا رَسولَ اللَّهِ، ذَبَحْنَا بُهَيْمَةً لَنَا وطَحَنَّا صَاعًا مِن شَعِيرٍ كانَ عِنْدَنَا، فَتَعَالَ أنْتَ ونَفَرٌ معكَ، فَصَاحَ النَّبيُّ ﷺ فَقالَ: "يا أهْلَ الخَنْدَقِ، إنَّ جَابِرًا قدْ صَنَعَ سُورًا، فَحَيَّ أهَلًا بكُمْ"، فَقالَ رَسولُ اللَّهِ ﷺ: "لا تُنْزِلُنَّ بُرْمَتَكُمْ، ولَا تَخْبِزُنَّ عَجِينَكُمْ حتَّى أجِيءَ". فَجِئْتُ وجَاءَ رَسولُ اللَّهِ ﷺ يَقْدُمُ النَّاسَ حتَّى جِئْتُ امْرَأَتِي، فَقالَتْ: "بكَ وبِكَ"، فَقُلتُ: "قدْ فَعَلْتُ الذي قُلْتِ"، فأخْرَجَتْ له عَجِينًا فَبَصَقَ فيه وبَارَكَ، ثُمَّ عَمَدَ إلى بُرْمَتِنَا فَبَصَقَ وبَارَكَ، ثُمَّ قَالَ: "ادْعُ خَابِزَةً فَلْتَخْبِزْ مَعِي، واقْدَحِي مِن بُرْمَتِكُمْ ولَا تُنْزِلُوهَا"، وهُمْ ألْفٌ، فَأُقْسِمُ باللَّهِ لقَدْ أكَلُوا حتَّى تَرَكُوهُ وانْحَرَفُوا، وإنَّ بُرْمَتَنَا لَتَغِطُّ كما هي، وإنَّ عَجِينَنَا لَيُخْبَزُ كما هُو".

كانوا بقيَّة الدِّين في الأرض، وكان الله بهم رحيمًا.

كانت الآتي، يشيب من الحزن.

وكان النَّبِيُّ ﷺ فوق الغيم، يسمع أنين قريش، فقد كان الله سمعه وبصره وَيده التي يبطش بها، وما هناك، لا يراه مَن كان عالقًا فيما ها هنا.

وقد قال حُذَيفةُ: واللهِ لقد رَأيتُنا مع رسولِ اللهِ ﷺ بالخَنْدَقِ، وصلَّى رسولُ اللهِ ﷺ مِن اللَّيلِ هَوِيًّا، ثم التَفَتَ إلينا فقال: "مَن رَجُلٌ يَقومُ فيَنظُرَ لنا ما فَعَلَ القَومُ (يَشرُطُ له رسولُ اللهِ ﷺ أنَّه يَرجِعُ) أدخَلَه اللهُ الجَنَّةَ"، فما قام رَجُلٌ، ثم صلَّى رسولُ اللهِ ﷺ هَوِيًّا مِن اللَّيلِ، ثم التَفَتَ إلينا، فقال: "مَن رَجُلٌ يقوم فيَنظُرَ لنا ما فَعَلَ القَومُ، ثم يَرجِعَ (يَشرُطُ له رسولُ اللهِ ﷺ الرَّجْعَةَ) أسأَلُ اللهَ أنْ يكونَ رَفيقي في الجَنَّةِ"، فما قامَ رَجُلٌ مِن القَومِ مع شِدَّةِ الخَوفِ، وشِدَّةِ الجُوعِ، وشِدَّةِ البَرْدِ، فلمَّا لم يَقُمْ أحَدٌ دَعاني رسولُ اللهِ ﷺ، فلم يكُنْ لي بُدٌّ مِن القيامِ حين دَعاني، فقال: "يا حُذَيفةُ، فاذْهَبْ فادْخُلْ في القَومِ فانْظُرْ ما يَفعَلونَ، ولا تُحدِثَنَّ شَيئًا حتى تَأتِيَنا".

قال: فذَهَبتُ فدَخَلتُ في القَومِ، والرِّيحُ وجُنودُ اللهِ تَفعَلُ ما تَفعَلُ لا تُقِرُّ لهم قِدْرًا، ولا نارًا، ولا بِناءً، فقامَ أبو سُفْيانَ بنُ حَرْبٍ، فقال: "يا مَعشَرَ قُرَيشٍ، لِيَنظُرَ امرُؤٌ مَن جَليسُه"، فقال حُذَيفةُ: فأخَذتُ بيَدِ الرَّجُلِ الذي إلى جَنْبي، فقُلتُ: "مَن أنتَ؟" قال: "أنا فُلانُ بنُ فُلانٍ"، ثم قال أبو سُفْيانَ: "يا مَعشَرَ قُرَيشٍ، إنَّكم واللهِ ما أصبَحْتُم بدارِ مُقامٍ، لقد هَلَكَ الكُراعُ، وأخْلَفَتْنا بَنو قُرَيظةَ، وبَلَغَنا عنهم الذي نكره، ولَقِينا مِن هذه الرِّيحِ ما تَرونَ، واللهِ ما تَطمَئِنُّ لنا

قِدْرٌ، ولا تقومُ لنا نارٌ، ولا يَستَمسِكُ لنا بِناءٌ، فارْتَحِلوا فإنِّي مُرتَحِلٌ"، ثم قامَ إلى جَمَلِه وهو مَعْقولٌ فجَلَسَ عليه، ثم ضَرَبَه فوَثَبَ على ثلاثٍ، فما أَطلَقَ عِقالَه إلَّا وهو قائِمٌ، ولولا عهدُ رسولِ اللهِ ﷺ: لا تُحدِثْ شَيئًا حتى تَأتِيَني، ثم شِئتُ، لَقَتَلتُه بسَهْمٍ.

قال حُذَيفةُ: ثم رَجَعتُ إلى رسولِ اللهِ ﷺ وهو قائِمٌ يُصلِّي في مِرْطٍ لبَعضِ نِسائِه مُرَحَّلٍ، فلمَّا رَآني أَدْخَلَني إلى رَحْلِه، وطَرَحَ علَيَّ طَرَفَ المِرْطِ، ثم رَكَعَ وسَجَدَ وإنَّه لَفيهِ، فلمَّا سَلَّمَ أخبَرتُه الخَبَرَ. وسَمِعَتْ غَطَفانُ بما فَعَلَتْ قُرَيشٌ، فانْشَمَروا إلى بِلادِهم.

﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا﴾ [سورة الأحزاب: 25].

والتقى السراب على السراب، وقضى الله لهم خطوط الرحيل الأخيرة!

مَضت قريش، ولا ماء في الجِرار يغسل دمعها، وسِيق الوَهن على الوهن، وقيل للجاهلية، هذي السِّنون العجاف، ﴿وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ [سورة الأحزاب: 25].

وعلى موقد التغيير، يشعل النَّبِيُّ ﷺ حَطب التهيئة، وتبدأ بصمتٍ حكيم، خُطى مغموسة في السَّهر والتعب!

يعيد الصدى صوته: "لا يُصَلِّيَنَّ أَحَدٌ العصرَ إلَّا في بَنِي قُرَيْظَةَ"!

يا لَهفة الوعي عليك..

لا يُصَلِّيَنَّ أَحَدٌ العصرَ إلَّا في بَنِي قُرَيْظَةَ، إذ بدء الهزيمة في الأحزاب، كانت مِن أسوار بني قريظة!

الخيانة، سَيْلٌ يجرف أحلامنا..

ونزف النزف، أن تظلَّ الفاصلة تزيد في سطورنا، والتَّحايل لا ينبغي معه إلا النقطة!

ينتهي نبضُ الإسلام، إذا بقي نبض النفاق فينا، وكل تَردُّد في استئصال صوت الغدر، إنَّما هو مزيد تعثرنا.

باذخ هذا الفَهم، وخائضه عظيم.

وألف بركان يستعرُّ في جوف المدينة، إن بقي على أرض آمالها من خانوا أقفالها.

فقد أجمعت بنو النَّضيرِ بالغدرِ، فأرسَلوا إلى رسولِ اللَّهِ ﷺ: "اخرُج إلينا في ثلاثينَ رجلًا من أصحابِكَ، وليخرج منَّا ثلاثونَ حَبرًا، حتَّى نلتقيَ بمَكانِ المنصفِ فيسمَعوا منكَ، فإن صدَّقوكَ وآمنوا بِكَ آمنَّا بِكَ"، فقصَّ خبرَهُم، فلمَّا كانَ الغدُ، غَدا عليهم رسولُ اللَّهِ ﷺ بالكتائبِ فحَصرَهُم، فقالَ لَهُم:

"إنَّكم واللَّهِ لا تأمَنونَ عندي إلَّا بعَهْدٍ تعاهدونني عليه"، فأبوا أن يُعطوهُ عَهْدًا، فقاتلَهُم يومَهُم ذلِكَ، ثمَّ غدا الغدُ على بَني قُرَيْظَةَ بالكتائبِ، وترَكَ بَني النَّضيرِ ودعاهم إلى أن يعاهِدوهُ، فعاهدوهُ، فانصَرفَ عنهم، وغدا على بَني النَّضيرِ بالكتائبِ، فقاتلَهُم حتَّى نزلوا على الجَلاءِ، فجلَت بنو النَّضيرِ.

ومنها إلى مَنفى خَيبر، حيث الموعد مع الضَّمائر الفاسدة، يبيعون وَهم الولاء، وينتظرون أنقاض مُحَمَّد ﷺ!

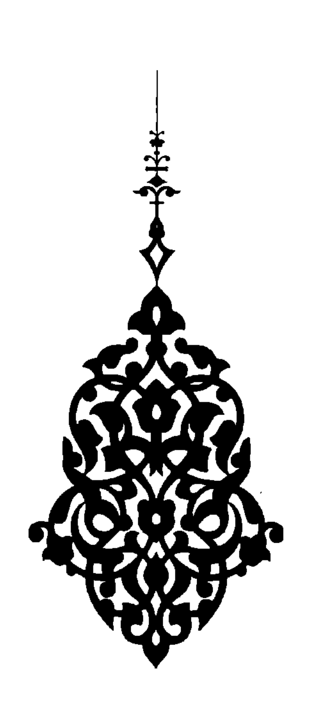
يَزحفون، وبِحذر يبحثون عن فوضى التَّمكين، شيئًا فشيئًا، وببطء، يَنصتون لدويٍّ مُنتَظَر!

كانوا الظلَّ الهائل، لمقبرة تشتهي مَدافن النور، وكان لا يليق بهم إلا التَّطهير!

أرادوا قتلَ النَّبيِّ ﷺ، فلمَّا كشف ﷺ أمرهم، ختَم بهم الصفحة الأخيرة من كتاب التَّهيئة لخارطة فتح طويلة!

(أتَى رَسولَ اللَّهِ ﷺ خَيْبَرَ لَيْلًا، وكانَ إذا أتَى قَوْمًا بلَيْلٍ لَمْ يُغِرْ بهِمْ حتَّى يُصْبِحَ، فَلَمَّا أصْبَحَ خَرَجَتِ اليَهُودُ بمَساحِيهِمْ، ومَكاتِلِهِمْ فَلَمَّا رأوه قالوا: "مُحَمَّدٌ واللَّهِ، مُحَمَّدٌ والخَمِيسُ"، فقالَ النبيُّ ﷺ: "خَرِبَتْ خَيْبَرُ، إنَّا إذا نَزَلْنا بساحَةِ قَوْمٍ ﴿فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ﴾ [سورة الصافات: 177]").

وبتَر النَّبِيُّ ﷺ كل ما يَعوق عن البَدر تَمامه، ثلاثة وعشرون عامًا، منذ أول مَطلع الجُرح حتى تمَّ له الأمر!




34
هدم اللبنة
الأخيرة في بناء
الجاهلية

في مُجتمعٍ ما زال في بعض خفاياه من يرتدي كِبرياء الثِّياب، ويبقي المَرايا كي لا يرى إلاه، كانَ مُحَمَّدٌ ﷺ يقفُ بين زمنين: جاهلية تتنفَّس ذاتها صُبح مساء، ووحيٌ يُنبِت الواحات في الصحراء!

كان مُحَمَّدٌ ﷺ يرى الجاهلية، وهي تحرُس رُفات أفكارٍ أخطأت الحقيقة، وعليه هو أن يمحو غبشَ اللَّيْل، وليس أحدٌ سواه!

وفي نُقطة ضعفٍ مُجتمعية، يأتيه الأمر بالزَّواج مِن طليقةٍ مُتَبنَّاه، وقد كان ذاك أحد المحرَّمات في عُرف الجاهلية!

كان المتبنى زيدًا، إذ (أغارت خيل لبني القين بن جسر في الجاهلية على أبيات بني مِعن، فاحتملوا زيدًا وهو غلام، فأتوا به سوق عكاظ فعرضوه للبيع، فاشتراه حكيم بن حزام لعمته خديجة بأربعمائة درهم، فلما تزوجها رسول الله ﷺ وهبتْه له، ثم تبناه وما كان يُدعى زيد بن حارثة إلا زيدًا بن محمد، وقد أحبه النبي حبًّا شديدًا حتى كان يدعى بالحِب، ويقال لابنه أسامة: الحِب بن الحِب).

(وكان رسول الله ﷺ قد زوَّج زيد بن حارثة رضي الله عنه الذي كان قد تبناه قبل النبوة، بابنة عمته زينب بنت جحش رضي الله عنها وأمها أميمة بنت عبد المطلب عمة النبي ﷺ).

هكذا إذن، اغسُل بمائك لَوثة الأفكار، وكُن بهذا الوجع، فاصلةً بين أوَّل النَّبض في المفاصَلة، وآخر النَّبض في الولاء لمعاني الجاهلية، ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِى أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ ۖ﴾ **[سورة الأحزاب: 37]**.

في لُغة، هي هِجرة مِن الذات إلى الله، {وَتَخْشَى النَّاسَ}، والنَّاس كلُّ النَّاس سَراب!

ربَّما تَدقُّ الجاهلية طُبول الفوضى، وتُحاول أن تَهدمك، فلا تخشَ سواه، أنت قدرُ الله، وهُم زبَد الغبار..

وتلك مُعجزة الكلمة في القرآن، فليس أوَّل الآي، كآخرها.

وليس ما قبل، مثل ما بعد بعدها.

وبعضُ البدايات، تولَد بعد تلويحةٍ أخيرة لزمنٍ عَلِقت فيه طويلًا!

مِن الجُزئيِّ، إلى الكُليِّ، بدا الأمر واضحًا في حجَّة الوداع، في قوله ﷺ: "كلُّ أمر الجاهلية موضوعٌ تحت قدمي".

مِن زوجة المُتبنَّى، حتى الرِّبا.

ومِن أعراف الجاهلية، حتى أصنامها، الكلُّ سواء!

كان القرآن يُعيد ترتيب الأشياء، ويضع كلمة الله في المقدمة، ﴿وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ﴾.

﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾، فقد كان النَّبِيُّ ﷺ واقفًا بين الصمت، وأشياء كثيرة.

ربَّما كان ينتظر احتمالًا، ولو ضئيلًا، ربَّما، لكن الله أراده استثناء عظيمًا!

لا شيء أثقل مِن أن تكون أنت قربان التَّغيير، أن تظلَّ في ميادين التَّعب!

بل لا شيء أشق مِن أن تكون أنت الطريق، أنت المَوقِف إذا قرَّر الجميع الاستسلام للهزيمة!

فإن اصطفاكَ، شاءك الإجابة الكافية لكلِّ أسئلة التِّيه.

(جاء زيد بن حارثة يشكو، فجعل النبي ﷺ يقول: "اتقِ الله وأمسك عليك زوجك"، قال أنس: "لو كان رسول الله ﷺ كاتمًا شيئًا لكتم هذه الآية"، قال: فكانت زينب تفخر على أزواج النبي ﷺ تقول: "زوجكن أهليكن، وزوجني الله تعالى من فوق سبع سماوات").

وقد كان مُحَمَّدٌ ﷺ ينتَشل الْخذلان الذي فينا بنفسه!

لقد تعافينا بك..

ربما سنقولُ لك ذلك يوم القيامة.

وربَّما سنُخبرك: أن كلَّ الذي أوجعك، صنَعنَا!

حُقَّ علينا: أن يكون يمينك، يميننا..

ويسارك، يسارنا..

وأن نفقدك لحظةً تلو لحظة.

ورغم الوفرة الوافرة، ما زلنا نبحثُ عنك كثيرًا!

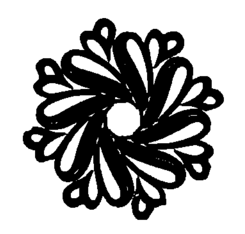
كانت بقايا الجاهلية، تحمل معاولها، لكن سورة الأحزاب تُخبرك أنَّنا ننهار من الداخل، الداخل الصامت الذي لا يعرف ريح الأحزاب، ولا قُدورها، ولا زلزالها!

يتراكم صَقيع الأفكار القاتلة فينا، وبِمعولٍ خارجيٍّ، ننهدم!

﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ [سورة الأحزاب: 37].

وكان مُحَمَّدٌ ﷺ هو كلمة التَّغيير!

شاءك الله لما تبقَّى من زمن البشرية، ولكلِّ ما وراء الغَيب!




35
وخاط النبي للأمة
ثياب الانعتاق

في المدينة كان النبي بالقُرآن يستلُّ مِن عباءَات الصحابة خُيوط الجاهليَّة، وينْسُج لهم ثياب الانعتاق!

كان يُنظِّفهم مِن اعوِجاج الذَّنب، إذْ تَعلو الرَّايات فقطْ، باستقامة الفَاتحين!

وكان النَّبي ﷺ يعْلم، أنهم إذا استقرَّت صُفوف الصَّلاة في عُمقهم، وثاروا على تقْسيم الجاهلية، فإنهم سينتصبون للصلاة صفًّا ﴿كَأَنَّهُم بُنْيانٌ مَرْصُوصٌ﴾ [سورة الصف: 4].

إذْ مِن أول صلاة، كان مُحمَّد يُهيئ جَيش الفَتح لمكَّة!

كانت مدينة مُحمَّد، ليس فيها ليلُ الشَّتات، واضِحة مَعالِم القِبلة فيها، ﴿لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ [سورة النور: 35]. البُوصَلة تؤشِّر على العلوِّ.

المِئذنة تعلن فيهم: الله أكبر. وتلبسهم ثياب {أحسَن تقْويم}!

نَثرتْهُم معارِك الصَّحراء، فعلَّمهم مُحَمَّد ﷺ، أنَّ الرَّايات المُنقسمة هي براكين مَوتنا، هي قُيود الأسرِ المُبكر!

لذا، كانت مُحرَّمة عليهم الخَمر من أجلِ عقولهم..

ومحرَّمة عليهم نِداءات الجاهليَّة، محرَّمة عليهم: يا للأوسِ، ويا للخَزرج، لأجلِ بقائهم!

كلُّ الذين تحدَّوا طَعنات يَهود في المدينة، كانوا قادِرين على كسر هُبل، واللَّات، ومَناة الأولى!

وحدها العُقول الهادرة على حِيل بني قُريظة، والنُّضير، كانت قادرة على كتابة ألحانِ الفتح لمكَّة!

من يفرطون عُقد اليهود، يفرطون عُقد الأصْنام!

وكل سَيف في صَدر أخيك، طَريح قابل للكَسر.

وتنتَفض لك البَيداء فقط، إن صَقلت سَيفك للعدو!

تُصفِّق الهزيمة لنا، إذا تَباعدت جُذورنا، ويبتَعد بعدها فتحُ مكَّة!

تظلُّ جِراحنا تنزِف على الرَّمضاء، إن صَهل الخَيل للعنصريَّة، أو لرايةٍ غربيَّة.

وتكْتمل المعركة، إذ ظلَّت الخيلُ تصهل لقتالٍ منقى من الغنائم!

راجِع سورة الأنفال، فقد كانت تُهيء لفتحٍ نقيٍّ، لفتحٍ غنيمته نصرٌ أو شَهادة!

كان النَّبي ﷺ، يكتُب رُواية الأسطورة، يشدُّ سطورها بخيوط الأخوة، فيَغدو كل صحابيٍّ منارةً في الذُّل على إخوانه، وفي انسياب العَطاء للجَسد الواحد، كانت جِنسيتهم الإسلام والإسلام فَقط!

كان القرآن يتَغلْغل فيهم، فيُخرجهم مِن حظُوظ نفوسهم إلى حظِّ الله.

كيْ يُخرجهم من ضَمير الغائِب، إلى عُنوان التَّاريخ!

ها هم يولَدون في غزوة أُحد، مِن جِراحهم.

مِن بَصيرة ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ [سورة آل عمران: 165].

يصنَع لهم القرآن وعيًا ربَّانيًا، أنْ نقِّبوا في تضاريس أنفُسكم، في كلِّ شَرخ.

لا تعلِّقوا معاذيركم على جُذوع الآخرين!

بعد غزوة أُحد، ضاقت المسافة إلى فتح مكَّة.

يوم ردَّد الصحابة بشجاعةٍ: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: 30].

ثمَّ كانت غزوة الأحزاب درسًا عاصفًا، إذ اشتدت الرِّيح، واشتدَّ الجَمع عليهم، واشتدَّت المَعاول عليهم.

وفهِموا: أنَّ مَن يرِد أن يرسم للإسلام خارطة الكون، فليخرج من خارطة الجُرح من خارطة ضَياعنا.

إذْ أول الجُرح، ألَّا تشدَّ {عَضُدكَ بأخِيك}.



أنْ تنقسم أحزابًا، وتشدَّ خَصرك بالكوفيَّات الملوَّثة!

"لنْ يحمل الفأس في الخندق إلا أَخاك، سيخذِلك اليَهود والمُنافقون"!

لذا، اقبِض على ثوب نبيِّك فقطْ!

وإذا رأيتَ مِعْوَلك يكسِر صخرةً أعاقَتْك في الخَندق، ورأيت مِن بريقها مفاتيح «رُوما» تُهدى إليك..

وإذا رأيت مِعولك في صَقيع الوحدة، يُشعل الشَّرارات لتُضيء لك طُرُقات الفَتح المَوعود.

وإذا رأيت رِيح الأحزاب، تعصف بكَ وتقلِب القُدور مِن حوْلك، وليس لك إلا عَباءة النَّبي، فتدثَّر بها.

ثمَّ تدثَّر، ثم تذكَّر، أنَّ سُورة الأحزاب، هيَّأَت لسورة الفتح، وأسرَجت الخُيول لكلِّ قُصور كِسرى وفارِس!

لقدْ كانت الأحزاب تخْلِق لهم اليَقين أنَّه: ﴿ما يَعْلَم جُنودَ رَبّك إلّا هُو﴾ [سورة المدثر: 31]، إنْ تمَسَّكْت بثيابِ النَّبيِّ فقط!

لا يكْنِس الأسيادَ والأرباب حول الكعبة، إلا مَن تحرَّر مِن السَّبي لغيرِ الله، من عبوديَّة الباطن!

كمال الوَعي، يوم لا نرقص لطَاغية، ولا نهتزُّ لبريقِ المناصب، يوم نتطاول عن مائِدة الدَّراهم، يوم لا تَركع الأعماق إلا لوَحي السَّماء!

عَشرة أعوامٍ...

مِن دأْبِ التَّربية النبوية العَميقة، عزَفت بعدها سُيوف الصَّحابة ألحانَ النَّصر!

عَشرة أعوامٍ...

انقضَّ الجُهد النبويُّ على بناءِ إنسانٍ، كل واحد كان يَنتهي في أمَّة!

عَشرة أعوامٍ...

مِن مواجهة الذَّات، والتَّفتيش عن الصَّغائر والكبائِر في سُورة التَّوبة.

حتى خَشِي عُمَر مِنها، وظنَّ أنَّها ستَفضحه، وتُعلن اسمه في المُنافقين!

عَشرة أعوامٍ...

مِن الاغتسالِ، والأوبةِ، والبِناء المَتين!

كانت مدرسة النبي تحررهم، ألَّا تأذَن لأَحد باحتِلالك.

لا تأذَن لأَحد باحتِلالك، ولا تَجعل مَطالع عُمرك غُروبًا.

غادِر الدُّنيا، وأنتَ في قِمَّة السَّعي.

ولا تَكُن ممَّن ينسدلُ عليهم السِّتار!

اصعَدْ إلى هَامِ السِّماك، واغرِسْ عليهِ رايتَك.

فإذا وصَلْتَ إلى هُناك، كتبَ الكمالُ بدايتَك!

ازرع الفِردوس في كَلماتك، في خَطواتك، في نِيَّاتك، وفي كلِّ جُرحٍ مَثقوب، اغرِس سُنبلة!

(لا مَطَر سَيُخلف وَعده) للمُستعد، والإمداد على قَدر الاستعداد.

وقدْ علَّمَتهم الحياة مع النبي أصلًا في السُّلوك:

لا ثباتَ، إلا بزيادة.

ومَن ذاقَ عرف، ومَن عرفَ اغتَرَف!

الزم الحقَّ، يُنْزلك الحقُّ في مَنازل أهل الحَقِّ، يوم يُقضى بالحقِّ.

وتعلَّم نُصرة الله!

من انتَصر لِنَفسه، تَعِب، ومَن انتَصر بالله، دفع عنه الأقدار بالأقدار!

عَشرة أعوامٍ...

كانت كافية، كيْ يرسُم بها مُحمَّد ﷺ خارِطة الفَتح لِمكَّة!

تشتدُّ أقدام الفَاتحين، يكسرون المَسافات.

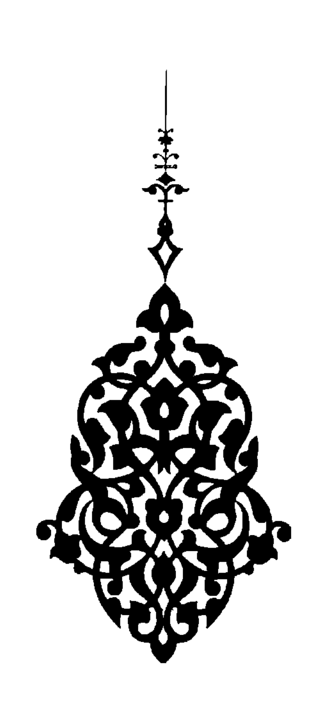
الغيم خَلاخل النِّساء، إذْ علَت المَرأة في الزَّمن النَّبوي، حتَّى لا تُبصرها إلا سَحابًا!

شكَّلَتها سُورة النُّور، وعلَّمَتها: أنَّ العِفَّة تَصنع في ثِيابها أمَّة، تَصنع مِنها علوًّا لا يُدانى!

يشتَدُّ الجَيش وهو ينشُدُ: جاءَ الحقُّ وزَهَق الباطِل!

وفي قَرارةِ كلِّ مُقاتِل، أنَّه لو لمْ يكُن هو الحقُّ، لما زهَق الباطِل!






36
إذا جاء نصر الله
والفتح



ينظرُ أبو سفيان بِهَلعٍ إلى الرايات المتّسعة، على حين قريش قَابعةِ هناك، تُراكم الماضي على أكتافها.

ومُحمَّدٌ ﷺ يقارِب أن يَعلو على رِقابها!

كانوا هُنيهةً مِن الحاضر، وكان النَّبِيُّ ﷺ، هو الأمَد والأبد، وهو معنى ﴿وَاللهُ مُتمُّ نُورَهُ﴾ !

يُعطيه النَّبِيُّ ﷺ أمانه وأمان مَن دخل بيته، بابتسامةٍ يَفهمها القَدر!

كانت الوُجوه حوله، خاليةً من أيِّ إشارة، البريقُ الغامض في عيون الصحابة، والهُدوء الحَذِر، يَشي بما هو خَفي، وكلَّما رتَّل النَّبِيُّ ﷺ آية، كان أبو سُفيان يهتدي إلى فطرته!

كَانَ اللَّيْلُ قابعًا في الفَجوة القاتمة بين {إنَّا وجدَنا آباءَنا}، وبين {يَا قَومنا أجيبوا داعيَ الله}!

بدَت قريش شاحِبة، ووحيدةً وباهتة، كأنَّها لم تُدرك أنَّ الزمن قد تخطَّاها، وأنَّها كانت في وَهم الأمنية المُستحيلة، أنْ لا يَصِل مُحمَّد! هل الصَّدأ هو عقوبةُ الأقفال المُتحجِّرة؟

(فَلَمَّا سَارَ قالَ لِلْعَبَّاسِ: احْبِسْ أَبَا سُفْيَانَ عِنْدَ حَطْمِ الخَيْلِ، حتَّى يَنْظُرَ إلى المُسْلِمِينَ. فَحَبَسَهُ العَبَّاسُ، فَجَعَلَتِ القَبَائِلُ تَمُرُّ مع النَّبِيِّ ﷺ تَمُرُّ كَتِيبَةً كَتِيبَةً علَى أَبِي سُفْيَانَ، فَمَرَّتْ كَتِيبَةٌ، قالَ: يا عَبَّاسُ، مَن هذه؟ قالَ: هذه غِفَارُ، قالَ: ما لي ولِغِفَارَ؟! ثُمَّ مَرَّتْ جُهَيْنَةُ، قالَ مِثْلَ ذلكَ، ثُمَّ مَرَّتْ سَعْدُ بنُ هُذَيْمٍ فَقالَ مِثْلَ ذلكَ، ومَرَّتْ سُلَيْمُ، فَقالَ مِثْلَ ذلكَ، حتَّى أَقْبَلَتْ كَتِيبَةٌ لَمْ يَرَ مِثْلَهَا، قالَ: مَن هذه؟ قالَ: هَؤُلَاءِ الأنْصَارُ، عليهم سَعْدُ بنُ عُبَادَةَ معهُ الرَّايَةُ).

يدخل مكَّة كمن رأى النِّهاية، وما زال فيها عالِقًا، يصرُخ بحنجرته المُرهَقة: "مَن دَخَلَ بيت أبي سُفيان فهو آمِن".

تبدو فواصِل الصوت، هشَّة، وتبدو الكلمات، مثل ذبالة تَنطفئ، وتبدو نهاية الشَّرف...

تصدح الأصوات بـ اللَّـهُ أَكْبَرُ اللَّـهُ أَكْبَرُ اللَّـهُ أَكْبَرُ.

اللَّـهُ أكبَر مِن العثرات والعَبرات، اللهُ أكبرَ، كالمحال هذي الخَطوات، اللهُ أكبَـر وينهمرون في كلِّ القِفار!

الدَّهشة تملأ الأفق، وكالغَمام يفيضون، وكالبحر كانت الرَّايات الخضراء، تَموج وتَموج.

اللَّـهُ أكبَـر، ويمتلئ الهواء برذاذِ أصواتهم، ويسقُط على جفافٍ طويل، ألفُ ألفُ نجمة، وألفُ ألفُ خيلٍ تصهل فوقها رايات النَّبيِّ ﷺ!

تَرقبه قريش في ارتباكٍ مثير، ومؤلم، كان الخيال صامتًا، ولا يملك فمًا أمام مَارِدِ اللحظة!

يقفُ مُحَمَّدٌ ﷺ أمامهم فاتحًا، مُتشبِّثًا بالسَّير في مَلكوت وعده، يحاولون القَفز على الوقت والفِعل، والتَّفكير!

لقد حاوَلت قريش قتلَه، ونَفيه، وحِصاره، ولم تدَّخر بابًا للإنكار، ولكنَّه الآن هُنا.

كان انتصار الوعـد، رغم الأحلام البَعيدة!

يَسير، ومكَّة كلها ظلُّه، لا شيء يوازي ظلَّه، لا شيء يليق بظلِّه، سوى صَحبه.

لا شيء يَنقص مُحَمَّدًا، ووجه الحقيقة الآن لا يَخون، تمتلئ مكَّة بتفاصيلهم، وهكذا انتهت الحِكاية!

تتيه الجاهلية في شاسِع ﴿إنَّا فَتَحْنَا لكَ فَتحًا مُبِينًا﴾ [سورة الفتح: 1].

المكان مكتظٌ بصمتٍ موحش، قد طوَّقته الهزائم، وصدى الخُطى، يشتدُّ في المدينة المَهجورة، ومكَّة كلها تصغي لضجيجِ السكون، وبريق الضَّوء يتسلَّل إلى المدينة القابعة في نهاية الحَقيقة!

ثمَّة مدن يعود إليها المرء، بعد أن ينتهي مِن دَفْـع الثمن! وثَمَّة ذكريات سَهلة، وثمَّة ذكريات صَعبة!

بدَت الجاهلية مِن مخلَّفات الماضي حين ارتفع صوت النبي، ﴿قُلْ جَاءَ الحَقُّ وَزَهقَ البَاطِلُ﴾ [سورة الإسراء: 81].

تعبيرٌ لم يتكرَّر في ذاكرة قريش، تعبيرٌ، وُلِدَ توقيته الآن، (وكانَ وَعْدًا مَنسِيًّا).

وبغريزةِ الخوف، تبتعد الأقدام مسافة أكثر ممَّا يحتملها الوجَـل!

أنَّى لِـمُحمَّد كلُّ هذي الحقول؟ تِلك عُشب البدايات لو يَفقهون! وفي يابِس الأيام، كان نَخْل الصبر يُثمر.

ها نحن، ما زلنا على قيد المزيد، وقُريش على قيد الحَياة الهشَّة!

تتوالى المسرَّات على صدور الصحابة، بعد أعوامٍ مِن الجري في مشقَّة الحنين، يدخلون آيَةً آيَة.

ومِن هامِش الصورة، إلى منتصف الحقيقة!

تُسافر قريش إلى الوراء القريب، حين كان ينتثر دَم سميَّة وعمار، وفي سكينة الفتح، يمر خيل الذكريات على الآيِبين، مَن يمنح الشعور كلماته؟!

بيت خديجة، وطُرقات الهجرة، والغروب الأخير قبل الرَّحيل، وألف دمعة وحلم لم يسعه الهَجير، وبعض أوزار الجاهلية!

النَّبِيُّ ﷺ في خشوعه، ورقَبته تكاد تطئ رقبة ناقته، وفي كلِّ ثانية، يستيقظ صوت قلبه ودَمعة حنين، هُنا كنَّا.

فهل أبقوا لنا شيئًا!

كان الخذلان ثقيلًا على كاهل أرواحهم، ينهمرُ الدفء على كل جهات التعذيب في مكَّة، وفي وَحشة الغياب، تفوح الحكايات الموءودة، وأنينُ الصحابة على الصُّلبان.

كل شيء في مكة كان يفتقد غيابك!

يبكي أحدهم: اشتقنا يا مكَّة، اشتقنا كثيرًا. واللهِ، حتى مكَّة اشتكت مِن زَحمة الوَجع!

مِن الصباحات التي لم تعثُر عليهم، مِن المطر، الذي كان بلا أفُق!

كانوا في داخلهم يتحسَّسون مكَّة، كلَّما اشتدَّت المسافات قَسوة.

لكن عَزاءنا، أنَّ اللَّــهَ يكتُب أنينَ الذِّكريات، ويُحصي مَناديل التَّعب، وكلَّ الأحلام التي قاتَلت في العراء!

الآن، ما الذي تَجنيه قريش، وهي تغيب في لونٍ باهت؟

هي هي، في لغةٍ تُزَمجِر، مثل صوتِ احتضار أخير، قَد كان يُغريهم وَهج الألم، ولم ينتبهوا للانطفاء فيهم!

لا يتوقَّف النَّبِيُّ ﷺ عن الحَمد والتَّسبيح، يرنو إلى الجنَّة، وفي الجنَّة فَقط، تستعيد الأعمار عافِيتها!

في طُول انتظاره، كان صابرًا، متَّزنًا، لا يميدُ في فتنةٍ خادعة، والزَّيف، لا يبلغ عينه.

ربَط نياط قلبه بالفَرائض، وجعلَ السُّنن لها عونًا!

تنيخُ له المدن، فقد كان حُلم الإسلام في قلبه سيِّـدًا.

بدا مُحمَّد ﷺ مختلفًا عمَّا قرَّروه لــه!

للمرة الأولى، تَجرؤ قريش على تخيُّل الحاضر عبر سُلطة الإسلام، تَخبو الجاهلية، مثل شُعلة تنطفئ بلا رَماد.

وتبدو اللحظة، كأنَّها أوَّل جنائز الحرب، لكن النَّبِيَّ ﷺ يُعلنها بدء العِتق: "اذهَبوا فأنتُم الطُّلقَاء".

تتهجَّى قريش الكلمات من دون أخطاء، وتوقِن أنَّه كان نبيًّا..

مَشهدٌ، لا تعرفه النهايات!

ومثل قارورة عِطر عتيقة، كان مُحَمَّدٌ ﷺ يفوح بالسلام والسكينة، والحُرية..

ويَستُر عــري قُريش! كل كلمة، كانت ثورة في التاريخ.

يعود النَّبِيُّ ﷺ بكامل الذكريات، من دون أن تنهشه، من دون أن تَنال قلبه، يعود، وقد أتبعَته الطرقات!

كان غريبًا في دعوته، وبدا اليوم غريبًا في تفرُّده.

تجيبه قريش: "أخٌ كريم وابنُ أخٍ كريم"، كأنَّما الطَّير يتناول فُتات الكلمات، فلا وزنَ لها إلا معنى التوسُّل!

لا ساريةَ تسند القامات الواهية، لا سارية!

تفيضُ الدروب، بمن هزموا الجاهلية، بمن دافعوا الأقدار بالأقدار، بمن كانوا قَدر الله!

كان الصبر باهظًا، ومُحَمَّدٌ ﷺ يعبر إليه بِــ ﴿رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ [سورة الإسراء: 80].

فقد كانت سورة الإسراء تعلِّمه:

أنَّ شيخوخة الخَطوة، في طوافها حول الأنا، تُريه مُلك إسرائيل، ورماد الصورة، تُريه الممكن في الهزيمة، والراسخ في سُنن الانتصار!

تفرش له صباحًا سخيًّا في التَّمكين على بِساط العالَم، ﴿وَقُلْ جَاءَ الحَقُّ وزَهَقَ البَاطِل﴾ [سورة الإسراء: 81].

وانتصار الخاتمة، يَحتاج إلى وعي السُّنن، يحتاج إلى إعداد ثقيل، يحتاج إلى فهم السُّنن الكونية..

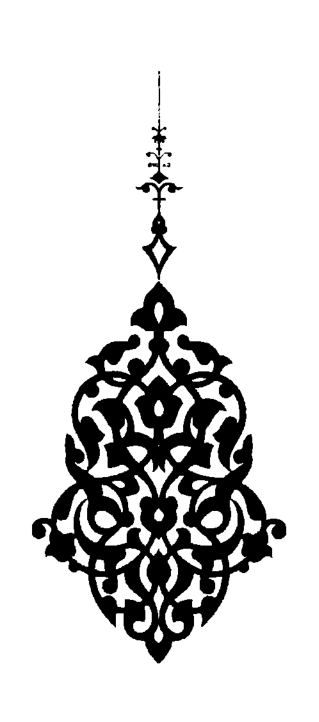
ويحتاج إلى مَن يرى النهايات من البدايات!

فتح مكَّة، كان خاتمة جُهدٍ، لم يغادِر صغيرةً ولا كبيرة في إعداد من سَيرسمون خارطة فتح الأرض كلها.

فقد كانت مكَّة بوابة الزمن الآتي..

بوابة التَّاريخ الجَديد!






37
وإنك لعلى خلق
عظيم

أنتَ معنى الجنَّة، وأنتَ الرَّيُّ الذي لا تَظمأ الرُّوح بعده ولا تَضحى!

كانت الصَّحابة تعيشُ بكَ، حَنينًا إلى الفِردوس الأعلى، يَـا كل المَعنى في {أُسوةٌ حَسَنَة}!

ما قَبلك ما كان، وما بعدك في الاقتداء لم يَكُن، وما كان لِيكون الاقتداء من دونك هديًا.

نظلُّ على ضفَّة المَعنى، حتى نرى تأويلك للقرآن، وبعدها، أنتَ والآيِ ويَحدُث الفَهم!

جَوعى لصوتِ المعاني في هَديِك، فأنتَ مَوْجُ النُّور مِن دوَّامة التِّيه!

نَبِيٌّ، كان يرفع حصَى الأذى عن طريقنا، وكانت الدُّروب معه، صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا، ﴿لَقَد جاءَكُم رَسولٌ مِن أَنفُسِكُم عَزيزٌ عَلَيهِ ما عَنِتُّم حَريصٌ عَلَيكُم بِالمُؤمِنينَ رَءوفٌ رَحيمٌ﴾ [سورة التوبة: 128].

خرَج مِن الدنيا خميصًا، ووَرَدَ الآخرةَ سَليمًا، لم يضَع حَجرًا على حَجر، حتى أجاب داعي الله، "إنْ كنَّا آلَ محمد ﷺ لنمكثُ شهرًا ما نستوقِد بنارٍ، إن هو إلا التَّمرُ والماءُ"!

خفضَ صوته، وغضَّ بصره، وأخذَ بجوامع الفَضل، فرفَع نفسه عن سوء المجازاة واحتسَب لربِّه!

لقد أثبتَ النَّبيُّ ﷺ، ونَفى.

أثبتَ معنى الآخرة في يَقينه، ونفى يقين الشيطان فينا!

فكان جوابًا لمعنى، ﴿إِلَّا عِبَادَكَ منهم الْمُخْلَصِينَ﴾ [سورة الحجر: 40].

ومَن خَلص مِن وَهمِه، خَلُص مِن همِّه!

وقد كان النَّبِيُّ ﷺ خاليًا مِن الوهم، ممتلئًا بالرؤية، قال عنه الله ﴿وإِنَّكَ لَعَلَى خُلقٍ عَظيم﴾ [سورة القلم: 4]، بِلام التَّمكُّن على حرف الاستعلاء!

وقد كنتَ فوق ذلك، تَقطع المسافات المُستحيلة بِـخُلُقٍ عَظيم.

تبلُغنا في بُعدِنا مثل ألوان الشَّفق، تَلمسنا ولا نَلمسها.

تَبدو السنون رواحل تَحملنا على صَبرها، كي نرى ما يؤولُ إليه احتمالك.

تَصبر على كلمة سهيل .. (ما نَعرف الرَّحْمَن).

(أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ لمَّا صالَح قريشًا يومَ الحُديبيَةِ قال لِعليٍّ: "اكتُبْ بِسْمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ"، فقال سُهيلُ بنُ عمرٍو: "لا نعرِفُ الرَّحمنَ الرَّحيمَ، اكتُبْ باسمِك اللَّهمَّ"، فقال صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لِعليٍّ: "اكتُبْ هذا ما صالَح عليه محمَّدٌ رسولُ اللهِ ﷺ"، فقال سُهيلُ بنُ عمرٍو: "لو نعلَمُ أنَّك رسولُ اللهِ لاتَّبَعْناك ولم نُكذِّبْك، اكتُبْ بنَسَبِك مِن أبيك"، فقال رسولُ اللهِ ﷺ لِعليٍّ: "اكتُبْ محمَّدُ بنُ عبدِ اللهِ").

ثمَّ إذا به صوت الثَّبات في زمَن الرِدَّة!

(لما توفي النبي ارتجت مكة، لما رأت قريش من ارتداد العرب، واختفى عتاب بن أسيد الأموي أمير مكة للنبي ﷺ فقام سهيل بن عمرو خطيبًا، فقال: "يا معشر قريش، لا تكونوا آخر من أسلم وأول من ارتد، والله إن هذا الدين ليمتد امتداد الشمس والقمر من طلوعهما إلى غروبهما في ظلام طويل، مثل كلام أبي بكر في ذكره وفاة النبي ﷺ، وأحضر عتاب بن أسيد، وثبتت قريش على الإسلام").

كان النبي فينا، وكان فوقَ ما فينا.

كان لا يَرى تواريخ الابتلاءات، بل غَيب الوعد!



(في صلح الحديبية خير قُريشٍ بيْن أنْ يكونَ بيْننا وبيْنهمْ صُلحٌ وهُدنةٌ زَمنيَّةٌ يُخلُّون فيها بيْن رَسولِ اللهِ ﷺ وبيْن مَن تَبقَّى مِن كُفَّارِ العربِ، قالَ النَّبيُّ ﷺ: "فإنْ أظْهرْ: فإنْ شاؤوا أنْ يَدخُلوا فيما دَخَلَ فيه الناسُ فَعَلوا، وإلَّا فقدْ جَمُّوا"، والجَمُّ: الرَّاحةُ، فإنْ ظهَرَ النَّبي ﷺ على مَن بقِيَ مِن كفَّارِ العربِ وغلَبَهمْ، فإنْ شاءتْ قُريشٌ اتَّبعَتْه كما اتَّبعَه النَّاسُ، وإلَّا بَقوا على صُلحِهمْ وهُدنتِهم معه).

ترك لقريش البقايا وله الباقيات. كان في الحديبة يرى أسراب الطيور العائدة، ثم كان فتح مكة بتدبير من الله عجيب، نبيٌّ استَمسك ظاهره وباطنه بالله فما اهتزَّ.

يا سدرة منتهى الفهم والحكمة واليقين، تضع جمرة في موقد التغيير وتنتظر مواقيت النهاية، كلماتك معدودة لأن أفعالك كثيرة! وكل فعل يحل من أوتاد الظلام محبوكًا.

وفي هنيهة من ذكاء التدبير كان بعد الحديبية عام الوفود، ارتديت بردتك وأقبلت الجزيرة عليك مسلمة!

ما أعظمك.. كل تاريخ منك يمحو للظلم تاريخًا، وكان سعيك الحكيم أقدارًا للأمة فاصلة!

نبي لم يكن يلتفتُ في الصَّلاة، ولا في غيرها، وتلك الأخيرة لا يَقدر عليها إلا مُحَمَّد!

تخطَّت روحه ظاهِر ما نرى، إلى باطِن ما لا نَرى، وما رؤيَ إلا كأنَّه مُقْبِلٌ من الآخرة، تعرفه العَين نبِيًّا، ويعرفه القلب معنى، وتعرفه الحياة غيثًا!

عن أبي هريرة ﷺ أنَّه قال: "كانَ رسولُ اللهِ ﷺ يَجْلِسُ بينَ ظهرَيْ أصحابِه، فيجيءُ الغريبُ، فلا يدري أيُّهم هو، حتى يسألَ، فطلَبْنا إلى رسولِ اللهِ ﷺ أن نَجْعَلَ له مجلسًا يَعْرِفُه الغريبُ إذا أتاه"!

ثابت القلب، وها هو علي يقول: "كنَّا إذا احْمَرَّ البأسُ، ولقيَ القومُ القومَ، اتَّقينا برسولِ اللَّه ﷺ، فما يكون منَّا أحدٌ أدنى مِنَ القومِ منهُ"!

كان النَّبِيُّ ﷺ يرى وعد الله..

وكان مَن سواه، يجرُّ حزن الأمنيات!

تَعِبت قريش وجفَّ ريق سَعيها، وما وجدَت إلى يقينه سَبِيلًا.

وحين شاخَت خُطا الجاهلية، كانت أسرار الفَتح تتكشَّف في ﴿جَاءَ الحقُّ وزَهَقَ البَاطِلُ إنَّ البَاطِلَ كانَ زَهوقًا﴾.

آية في سُورة الإسراء، والإسراء مكِّية، وكانت تدل على ثبات ورسوخ، ومَعنى أزليٍّ، يوم كان أبو جهل على صَدر بلال، يَظُنُّ أَنَّهُ حَسمَ المَعركة!

ليتك ما زلت مَوجودًا.

وليتنا لم نَفقدك!

في رَحمة عينيك يَد، وزحمة الأنَا لا تبلغك، يجذبه أعرابيٌّ مِن ردائه جذبةً شديدة، أثَّرت في عاتقه الشريف، ويقول: "يا مُحمَّد، مُر لي مِن مَال اللَّه الذي عِنْدَكَ"، فما كان من النَّبِيِّ ﷺ إلا أن التفتَ إليه، ثُمَّ ضَحِك، وأمَر له بِعطَاء!

﴿لَقَد جاءَكُم رَسولٌ مِن أَنفُسِكُم عَزيزٌ عَلَيهِ ما عَنِتُّم حَريصٌ عَلَيكُم بِالمُؤمِنينَ رَءوفٌ رَحيمٌ﴾ **[سورة التوبة: 128]**.

تَدنو على ما نبدو، فلا يَضيرك ما اقترفنا، فأنت {رَحْمَةً لِلْعَالَمِين}!

﴿خُذِ الْعَفْو وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ **[سورة الأعراف 199]**، وقد أعرضْتَ عن معارك الجاهلين!

تقتسمُ وجهك الصحابة، كلَّما ضاقت عليها وجوهها، فلا تَراك إلا مُبتسمًا!

يتسرَّب ضعف الناس، فتتَّسع عَباءتك لهم وتقول: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ﴾ [سورة يوسف: 92].

كيف تُطيق ما لا نطيق؟!

كان النَّبِيُّ ﷺ خارج حدود ذاته.

زادته السمَاء، وما أنقصته الأرض.

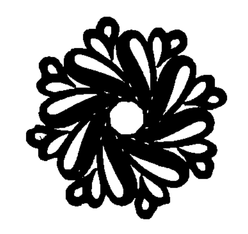
وإذا هَبطت به الدنيا واديًا، علَّمها كيف نَقرِضُ الله كل ما نُطيق، (لو كان لي مِثْلُ أُحُدٍ ذَهَبًا، ما يَسُرُّنِي أنْ لا يَمُرَّ عَلَيَّ ثَلاثٌ، وعِندِي منه شيءٌ إلَّا شيءٌ أرصده لِدَيْنٍ)!

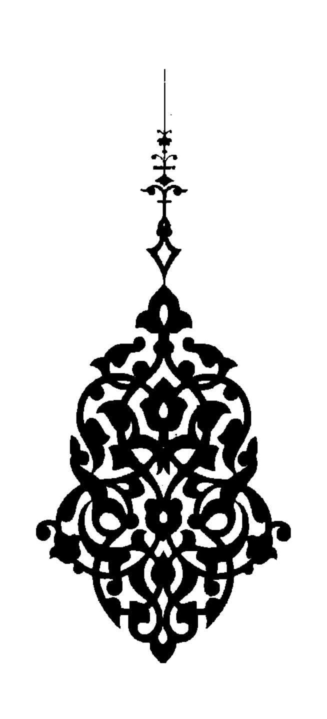
توزَن اللحظات بآمادِ الحياة، ويَعجز سادِن الخَيال أن يُحصي خلُودك.

أنت معنى الجنَّة، وأنت الرَّيُّ الذي لا تَظمأ الرُّوح بعده ولا تَضحى.

وأنتَ الأمينُ على آمالِ البشرية كلِّها!

اللَّـهُمَّ إنْ فاتَنا السُّرور برؤيتِه، فلا يَفُتنا الأنسُ بِصُحبَتِه!






38
عائد من البقيع
والفتن كحبات
المطر

كانَ ﷺ عائدًا من البقَيع، الليل يُغرِق المكان، والزمان يمتَدُّ في حسِّه، آمادًا تبلغ الخُلود!

حيث ترفُّ أرواح أصحابه من الشهداء في عالمٍ نديٍّ عظيم، وقلبُ مُحمد ﷺ، يستبطنُ الشوق إلى الرَفيق، إلى الرفيق الأعلى! (إنَّ رَبَّكَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَأْتِيَ أَهْلَ البَقِيعِ فَتَسْتَغْفِرَ لهمْ).

وطَيبة ساكنة تَلمح ساكنها آتيًا من بعيد، تحفُّه أصداءُ الوعد {فإنَّك بأعيننا}.

تخطو أقدامه في هَدأة الليل، فَيُعلِّمُ بكل خطوة أزمانًا من مسير الأُمة!

قدْ خرج من ضَوضاء الأرض، فأرهَف القلب مسامعه، ينام الصَّحب، ويجفل قلبُ النبي العظيم.

يظلُّ يَقِظًا، يسمع كل هَدير المعركة الآتي، ويَلمحهم يتسَلَّلون في غفلة القادم من عمرنا..

يَسرقون نبض النَّبي ﷺ من أرواحنا، يعبَثون بخزائن العلم، فَيحرفون من أوراقنا أسطُرًا، لعلَّ في بعضها معنى حياتنا!

ثمَّ ينظر، فإذا بالفِتن كأنَّها حبات المَطر قد بدأ نذيرها (فإنِّي لَأَرَى الفِتَنَ تَقَعُ خِلالَ بُيُوتِكُمْ كَوَقْعِ القَطْرِ).

تتساقطُ خائفة على البيوت الجَليلة، تُبَلِّلها، ولا تغمرها.

مع كلِّ قطرة، حكاية ابتلاء لدين الأمة، فَمن أصابه من البَلل شيء، كان له من الحكاية مَشهد!

أمَّا هو ﷺ، فكان يرى عمَّارًا والفِئة البَاغية تغتال فيه الحقَّ.

ويُحبُّ عُثمان، ثمَ لا يملك له إلا البُشرى بالشَّهادة على بلوى تَصبُّبه، ويَخشى على الأُمة كسر الباب واندلاع الفتن حين يُقتَل عمر!

وعائشة رضي الله عنها تُصغي له فلا تُدرك أنها من تنبحها الكِلاب بالأرض الغريبة، (كَيْفَ بِإِحْدَاكُنَّ تَنْبَحُ عَلَيْهَا كِلَابُ الْحَوْأَبِ)، ومِن وراء ذلك، ستكون ألف قصَّة وألف ألم!

يَصعد منبره، فيكشفُ له القُرب حُجُب الغيب.

يَراهم وَهُم يدقُّون مساميرَ نعوش الأُمة، وقِلاع خَيبر تتجذَّر وتمتد في الأرض!

ويلمح في الأُمة ألف وجهٍ لابن سَلول، يَراهم وهم يَصنعون الأصنام الجَديدة، يسجُنون بها كل تَحليقٍ رفيع.

ويرى مدننا، تكاد تصير عواصم الدجال، وفيها تصنع عروش الزَّيف، وقَيد القَهر!

ترى، كمْ يملك الدِّينار من البريق، حتى يصغُر أمامه كبار القَوم؟!

أترانا اليوم نَرث مِن بني إسرائيل نفوسهم ونحن لا نَعلم؟!

أم تراها غُربة موسى وهارون، بين أحبار السُّوء وعُبَّاد العِجل!

ترى، كمْ من النور والنار تريد صحراؤنا، حتَى يشتعل فيها صوت النداء ثانيةً {إنِّي أنا الله فاعبُدني}؟

ترى، من أين لنا حقيقة {تَلقَفُ ما يَأفكون}، وتهدم {ما يعرِشُون}!

ترى، أكانت الغَفلة في الأُمة دهرًا، حتى أَحرَق صيفها كل الرَّبيع؟!

أمْ تراها نيران المعاصي، قد هيأتنا للذبول والسقوط!

حتى إذا ما تلوَّثَ الصميم، قلنا ثمَ ماذا؟

وما هي إلا أن تكون عذَاباتنا، قد أوقَدناها بالأفواه وذُنوب الخَلوة، والخَطو في اتجاه الظلام.

ثمَّ ماذا؟ حتى إذا ما غاضَ الدمع، وتصحَّر العُمق، قلتُ ثم ماذا؟

وما هو إلا التِّيه في بَيداء مكشوف.

ثمَّ ماذا؟ حتى إذا اعوجَّت القلوبُ، وانحرف المسير، وأحسَسنا بأننا نُنكر ذواتنا، ونلتمسُ الطريق من جديد.

فلا البدء نُحسن، ولا العود نستطيع!

والناس من خوف الذُّل، في ذلٍّ!

كان النبي لا يعرفُ إلا حديث المَعركة، ولا يُحسن خَيله إلا الدُّروب المرهقة.

مثقلٌ هو بوَصايا الأنبياء، وآمال وأماني تزدحمُ على السُّرُج، تنزع معها كل بَهارج النَّصر المُزيَّف، وضجيج العَدْو الفارغ!

نحنُ نحتاج اليوم إلى من يَنظر في الحوافر والطُّرقات، لعلَّ قبضة من أثَر الرسول ﷺ باقية في الآثار!

نحتاجُ إلى مَن يبحث في الأصوات عن آيةٍ من الأنفال!

نحتاج إلى من يدلنا في الطرق على خُطى مُصعب وبلال!

تنوء الدنيا بزَهوتها على أرواحنا، ونتشتت في آمادها، كأنَها تتَّسع كيْ نضيع!

يتراكضُ فيها القوم، يلتمعُ عِجْلهم وذهبهم، قد تَعجَّلوا منافعهم!

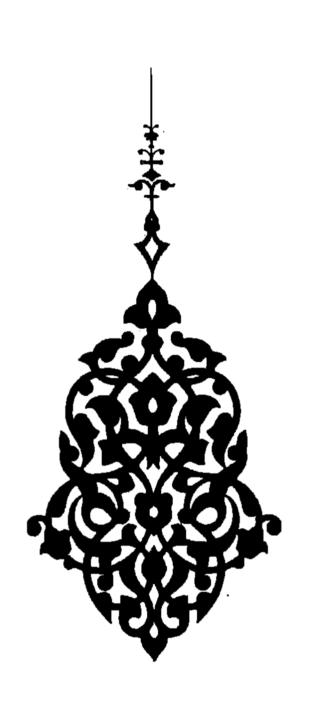
يراهم في عين النبوة، وهم يَحرقون أرواحهم، يَصهرونها في ذَهَبها.

ويَستبشرون من بعد أن استَعلى، واستغلظ فيهم نداء الأجساد.

ترى ماذا يَقبضون؟ هل يدركون أن ما فوقَ التراب، تراب؟

والحُرية للأمة، أن تريدَ في حياتها ما أراد الله لها، وتلك هي اليقَظة، أو السنون العِجاف!

وهذا بعضُ معنى، {اهْدِنا الصِّراط المُسْتَقيم} لو نفقه.





39

ومات النبي

كان يَحتَضر، وكانت الصَّحابة تُساوم حُزنًا مُؤَجَّلًا بِـــ (لعلَّ وعسَى)!

تُحاصر الحَناجر الغصص، لا صوتَ في الطرقات إلَّا صوت السكون، وفي القلوبِ صَخبُ الوَجع.

مات النبي ﷺ حين اشتد الضحى من يوم الاثنين الثاني عشر من ربيع الأول من السنة الحادية عشرة للهجرة، وقد قال أنس بن مالك رضي الله عنه: "ما رأيت يومًا قط كان أحسن ولا أضوأ من يوم دخل علينا فيه رسول الله ﷺ، وما رأيت يومًا كان أقبح ولا أظلم من يوم مات فيه رسول الله ﷺ"، بعده لا نجاةَ للنِّسيان، فقَد كان في كلِّ الدروب وفي القلوب، وعلى الوجوهِ فاجعة الألَم!

كان صمتهم مليئًا بنحيبٍ قاس، تلك ليلة سيظل القلب عالقًا فيها! يغالب القلق جوانحهم، يدركون أنه إذا مضى لا شيء يبقيه! يتوهج الخوف ويكاد صحابي يصيح، مهلًا يا موت على نبض قلبي!

من لقسوة الأيام؟ من يقول لا تثريب على ضعفي، يعاني الوقت من هول الانتظار.

(وبيْنَا هُمْ في الفَجْرِ يَومَ الاثْنَيْنِ، وأَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه يُصَلِّي بهِمْ، فَفَجِئَهُمُ النبيُّ ﷺ قدْ كَشَفَ سِتْرَ حُجْرَةِ عَائِشَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا- فَنَظَرَ إليهِم وهُمْ صُفُوفٌ، فَتَبَسَّمَ يَضْحَكُ فَنَكَصَ أبو بَكْرٍ رضي الله عنه علَى عَقِبَيْهِ، وظَنَّ أنَّ رَسولَ اللَّهِ ﷺ يُرِيدُ أنْ يَخْرُجَ إلى الصَّلَاةِ، وهَمَّ المُسْلِمُونَ أنْ يَفْتَتِنُوا في صَلَاتِهِمْ، فَرَحًا بالنبيِّ ﷺ حِينَ رأوه، فأشَارَ بيده: أنْ أتِمُّوا، ثُمَّ دَخَلَ الحُجْرَةَ، وأَرْخَى السِّتْرَ، وتُوُفِّيَ ذلكَ اليَومَ).

وعند منعطف الحقيقة بدا الفراق مرتجفًا، يتهدج الوجد في أنفاس تحترق، يبتلعون ريق الموت ويلتهم الشوق وداعًا أخيرًا، قال أبو ذؤيب

الهذلي: "قدمت المدينة ولأهلها ضجيج بالبكاء كضجيج الحجيج أهلوا جميعًا بالإحرام، فقلت: "مه؟!"، فقالوا: "قبِض رسول الله ﷺ".

لا صوت للنبي، وفي كل مقلة وجعها، يمشي الناس على أطراف أصابعهم كأنهم يخشون استيقاظ الحقيقة!

ها هو أنس بن مالك رضي الله عنه يقول: "لما قُبِض رسول الله ﷺ أظلمت المدينة، حتى لم ينظر بعضنا إلى بعض، وكان أحدنا يبسط يده فلا يراها" وعلى قدر الحب يكون الأسى!

حشود من مختلف جهات الألم، وفي الأمتار الأخيرة تبدو مشقة الطريق، خطوات ويرون جسده المسجى، وتصبح الأنفاس ذكرى الهلع! ترصف الطرقات أسئلة، ترتجف الشفاه، ويبح صوت الحزن.

(أَقْبَلَ أبَو بَكْرٍ رضي الله عنه علَى فَرَسٍ مِن مَسْكَنِهِ بالسُّنْحِ، حتَّى نَزَلَ فَدَخَلَ المَسْجِدَ، فَلَمْ يُكَلِّمُ النَّاسَ حتَّى دَخَلَ علَى عَائِشَةَ، فَتَيَمَّمَ رَسولَ اللَّهِ ﷺ وهو مُغَشًّى بثَوْبِ حِبَرَةٍ، فَكَشَفَ عن وجْهِهِ ثُمَّ أكَبَّ عليه فَقَبَّلَهُ وبَكَى، ثُمَّ قالَ: "بأَبِي أنْتَ وأُمِّي، واللَّهِ لا يَجْمَعُ اللَّهُ عَلَيْكَ مَوْتَتَيْنِ أمَّا المَوْتَةُ الَّتي كُتِبَتْ عَلَيْكَ، فقَدْ مُتَّهَا". قالَ الزُّهْرِيُّ: وحدَّثَني أبو سَلَمَةَ، عن عبدِ اللَّهِ بنِ عَبَّاسٍ، أنَّ أبَا بَكْرٍ خَرَجَ وعُمَرُ بنُ الخَطَّابِ يُكَلِّمُ النَّاسَ فَقالَ: "اجْلِسْ يا عُمَرُ"، فأبَى عُمَرُ أنْ يَجْلِسَ، فأقْبَلَ النَّاسُ إلَيْهِ، وتَرَكُوا عُمَرَ، فَقالَ أبو بَكْرٍ: "أمَّا بَعْدُ فمَن كانَ مِنكُم يَعْبُدُ مُحَمَّدًا ﷺ فإنَّ مُحَمَّدًا قدْ مَاتَ، ومَن كانَ مِنكُم يَعْبُدُ اللَّهَ فإنَّ اللَّهَ حَيٌّ لا يَمُوتُ، قالَ اللَّهُ: ﴿وَما مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسولٌ قدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ [سورة آل عمران: 144] إلى قَوْلِهِ {الشَّاكِرِينَ}"، وقالَ: واللَّهِ لَكَأنَّ النَّاسَ لَمْ يَعْلَمُوا أنَّ اللَّهَ أنْزَلَ هذه الآيَةَ حتَّى تَلَاهَا أبو بَكْرٍ، فَتَلَقَّاهَا منه النَّاسُ كُلُّهُمْ، فَما أسْمَعُ بَشَرًا مِنَ النَّاسِ إلَّا يَتْلُوهَا فأخْبَرَنِي سَعِيدُ بنُ المُسَيِّبِ، أنَّ عُمَرَ قالَ: "واللَّهِ ما هو إلَّا أنْ سَمِعْتُ أبَا بَكْرٍ تَلَاهَا فَعَقِرْتُ، حتَّى ما تُقِلُّنِي رِجْلَايَ، وحتَّى أهْوَيْتُ إلى الأرْضِ حِينَ سَمِعْتُهُ تَلَاهَا، عَلِمْتُ أنَّ النبيَّ ﷺ قدْ مَاتَ").

ثمة ضوضاء مرهقة، وفي الأفق تناهيد ليل طويل، لمَّا ثَقُلَ النَّبيُّ ﷺ جَعَلَ يَتَغَشَّاهُ، فَقالَتْ فَاطِمَةُ عليها السلام: "وا كَرْبَ أبَاهُ!"، فَقالَ لَهَا: "ليسَ علَى أبِيكِ كَرْبٌ بَعْدَ اليَومِ"، فَلَمَّا مَاتَ قالَتْ: "يا أبَتَاهُ، أجَابَ رَبًّا دَعَاهُ، يا أبَتَاهْ، مَن جَنَّةُ الفِرْدَوْسِ مَأْوَاهْ، يا أبَتَاهْ، إلى جِبْرِيلَ نَنْعَاهْ".

تهرع الناس وعلى التراب تسقط قلوبهم، صمت كأنه حريق ومع كل تلويحة يشتعل حنين خفي، يصطلون بشوق يباغتهم ويرتجفون.

دُفن رسول الله، فَلَمَّا دُفِنَ، قالَتْ فَاطِمَةُ عليها السلام: "يا أَنَسُ، أطَابَتْ أنْفُسُكُمْ أنْ تَحْثُوا علَى رَسولِ اللَّهِ ﷺ التُّرَابَ؟!".

كان الفجر مواعيد اللقاء، لهفة الروح إليك، إطلالة النور من عينيك.

إنْ غبتَ، فإنِّي أراكَ بقلبي. قالها أَحدهم ثمَّ انتحَب.

حاوَل أن يَحْمِلَ شيئًا مِن التُّراب مِن رائحةِ النَّبيِّ ﷺ، شيئًا لا يجفُّ بالنِّسيان!

ما أطولَ طريق العائِدين إلى بيوتهم!

ما أطوَل الطَّريق إلى الدِّيار وهي خَالية مِن رَسول الله!

هُنا كان وهُنا كانوا معًا، يطئون بِساطها غُرباء، والذكريات تخدِش الحنين!

كانت الأنفاسُ تتباطأ، وكانت الخُطى المَكلومة تَقيس المسافة بين القَبر وبين الشَّوق، فَتجدها هائلةً في هُنيهة، وما بين الدَّفن ومَوعد الحَوض لَهفة وانتِظار.

وكان الحَنين يسكُب دمعًا!

العائِدون مِن الحبِّ كانوا غرباء، كانوا يَسيرون في طريقٍ طوله ألف حزن.

وفي وَمضة، تكدَّست الذِّكريات في مآقي العُيون، وغابت الأرواحُ في سُبات الوجع.

صَمتت المدينة، والصَّمت بلاغةٌ في زمَن الحزن!

وكان هناك فائضٌ من الألم، كانت المدينة تعدُّ الجِراح وتبتهل.

(وَما نَفضْنا عَن رسُول الله ﷺ الأيدي، وإنَّا لَفِي دَفنه، حتى أنْكَرنـا قُلوبنا)!

ماذا أنْكَرتم يا أنَس في هُنيهةٍ من الزَّمن؟!

هَل خَـلاء المَكان من رسول الله ﷺ كان يعني احتمال النِّسيان؟

هَـل انفسَخت العَزائم منكم، والثَّرى ما زالَ بماءِ النَّبيِّ ﷺ مَبلولًا؟

هل غابت الروحُ، التي كانت عليها الأرواح تَتَّكئ؟

أمْ أنَّ ما أَنْكـرْتَه في قَلبك شيء لا تَعرفه قُلـوب القُـرون الأخيـرة؟!

تكادُ كلمةُ أنَس، أنْ تَكون مِشكاةً يتوهَّج منها مَعنى دَقيق:

أنَّ غِياب القُدوات، هُـو غـِيابٌ للذِّكـرى!

وفــي إثْر مَوت النَّبي ﷺ، مَوت!

إذ يتكرَّر الجُرح فينا، ولا نسمع صـوت النبي شافيًا.

يَرحلُ، فَتبقى أَعيُننا بلا وجـهٍ (إذا تمَعـَّرَ)، أدرَكنا أنَّ بَيننا وبينَ العذاب خطوات!

يرحَـلُ..

وقَـد كـَان هو الأمانُ، من تيه المَراحل كلِّها!

يَرحَـلُ..

فَيزدادُ التَّردُّد في الجُموع!

وأوَّلُ فَجيعة الأُمَّة، كانت في مَـوت القُـدوة.

وكان ذلك أوَّل الابتـلاء!

يألَـفُ النَّاس الابتعاد عَن القُـدوة الهادية، حتى يُصبح الاقتراب منه تَشدُّدًا وتطَرُّفًا، وَرُعونة.

وَتُذكَـر أحوال النبي ﷺ، فيَراها القلبُ ثَقيلة!

ولو كَانت القَدَمُ حَـذو القَـدَم، لهان الطَّريق!

وبينَ نِسيان أحــوال النَبي ﷺ في حَياتنا وبين إنكارها، خيطٌ رفيع، اسمُه أُلفَــةُ الغِياب!

مِثل أعمَــى بلا مَنسَأة، فلا تُفضي بــه الدُّروب إلى المَخارج، بَــل رُبما أهلَكه اجتهاده!

وعلى غِيابــه، تتَصاعَد الأصوات بالشَّــكِّ في حَــديثه، بالشَــكِّ في رُواتِه، بالشَّــكِّ في أوراقِ الكُتب، حتى تَظلَّ الأُمَّة في غموضِ التَّطبيــق!

كُل الخَطوات سَتعْثَر، إنْ لمْ يَكُــن النَبي ﷺ سِراجًا مُنيرًا!

وكُل الشُّبهات وَجُيوش التِّيه على عَتبة النُّبوة تَتحَطم، لو كانَ النَّبي ﷺ لنا هاديًا!

يا لله كم يَفصلنا عن المَوعد، كم يفصلنا عن الحوض، عبثًا تُحاول المدينة أن تعودَ إلى الوراء!

كان يَطئ بقدمه حياتنا فيَمحو آثار مَن سَبق، كان كثيرًا كما لو أنَّه الأنبياء كلهم!

وأينما حدَّقتَ، رأيت نبيًّا في روحه.

يصفه أنس بن مالك فيقول: "ما نَظرنا منظرًا كان أعجَب مِن وجه النَّبيِّ ﷺ".

عمره في الستِّين، وكأنَّ الجمال عمره ستون.

صوته كان قادرًا أن ينادي الأحلام البَعيدة، وبعده اشتَهت الحياة أن ترى صوته!

ما أقسَى غيابــك يَــا رسُــول الله.

كم شمس، وكم ليل، وكم صلاة مرَّت من دونك!

يا أمانَنا إذا استبدَّ الخوف كدوَّامة تشوِّش ما تبقَّى مِن زَمن الصَّبر.

يا شفاءنا إذا ضرَب الألم مثل مَطرقةٍ صغيرة في خَواء القلب مِن الأمل، وصار الزَّمن مليئًا بالدُّموع.

يا صراطنا إذا اعوجَّت الروح من ثِقل الأسئلة ولا جواب، وإذا اهتزَّ الثبات مِن مَعاول الأيام وبَدا كلُّ شيء هشًّا مِن عبَث العواصف.





ويا دِفْأَنا إذا أمطرَت على الحطب المَخبوء للصقيع، إذا وَهنت أيدينا وهي مَمدودة للسماء، وإذا كِدنا أن نقول، {متَى هو}، وإذا فَترَت الحياة واهتزَّ النَّعيم المُطمئن، وكاد اللهيب أن يَحرق بقايا الطمأنينة!

كنَّا نلقاك، وكنت عميقًا مثل هدوءِ الوعد، طويل النَّظر إلى السماء، كأنَّك ترى ما لا نرى، نتدثَّر بك {يا أيُّها المُدثِّر} بكلِّ يقينك!

كان طمأنينة الحياة، فلما مات، ثَقُلت الحياة علينا!

أحبُّوه، لأنه كأنَّهم، كان بينهم، ولهم، وأمَانهم.

كانَ هُو هو في مكَّة، والمدينة، وقبلَ الفَتح، وبعدَ الفَتح!

كان بلا قناع، وما كانت عينه ترى إلا مَعينه، وكان السَّفر إلى باطنه، كما هو السَّفر إلى ظاهره.

كان كلُّه مُشاهدًا، فاستحقَّ مقام الكَشف!

كان في زمَن الغيب ممتدًا، وما كان عن عيشِ الآخرة غائبًا، فكان في معنى الآخرة، هو المعنى، إذ كان هو تحدِّي التَّسامي عن حُجب الدنيا!

رحل إلى هناك قبل أن يرحل، فلمَّا رأى بعينِ البصيرة ما رأى، صمتَ عن زاد الدنيا فقد رأى موائد الآخرة، وما كان مجهولًا، صار باليقين معلومًا!

تتّسَع دهشةُ ما وراء الخيال، حتى يبكي القلب على أعتاب الشَّوق:

بَل الرفيقُ الأعلى، بل الرفيقُ الأعلى.

نَبِيٌّ أفنى الأنا، وأبقى لا إله إلا الله، فنالَ صِلة: مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّـه!

يزداد وَجيب الحبِّ متى يُطوى الدَّرب، وابن عمر يحاول أن يكون ظِلَّه على الطريق!

ماتَ النَّبِيُّ ﷺ، وأصبح ميراثه ضياء العبور، ولا طَريق سواه لنبلغ حافَّة النَّهار!

وداعًا يا رسول الله، والمَوعد الحَشْر، والمَوعد الكوثر!

ضَجَّت المدينة بالبُكاء، مَن يُواسي دَمع اللهفة يا رسول الله؟

وداعًا، يا مَن كُنت في الأربعين، وكان دَرب الحلم قد انتَصف.

تَلتحفُ باليَقين، والرِّيح تَعوي من حولك!

تُبعثر قُريش النُّور، وتنثرُ في طَريقك الكَدَرا، لكنك كنت وعدًا مِن أحداق الغَيب قد انبَلج..

ما رَحلتَ، حتى نبت فوق الأرض لنا أمَلا، ومِن كَفِّك المُتعَبة، فَجَّرت لنا الدُّنيا فتحًا!

كُنت وَحدك، مثل سُنبلة تُقاوم الرِّيح، ومن خَطوك، قَرأنا مَسيرة التغيير!

علَّمْتَنا، أنَّ السَنابل لا تَنبُت، إلا في أَكُفِّ مَن يَحملون قُلوبًا سَكنَتْها الرسالة!

زرَعْتَ لنا نَخيل الأُمنيات في المدينة، ووَعْدكَ في النَّصر، كان مثل دَعوة قالت عليها المَلائكة: (آمينا)!

كُنتَ خَفقةً لا تهدأُ، حتى في اضْطراب المَوت!

نبيٌّ، يُداهمه النَزع، فلا يَرتَبِك.

يَشتدُّ حَنَكه على الكلمات، ويُوصي الأُمَّة: الصَلاة، والنِّساء.

ها نحنُ في المَشهد الأخير الآن، نَتلفَّح باسمك.

بِوَصيتك قبلَ أن ينثرنا غِيابك.

قبلَ أن نَنْفَرِط!

نحتاجُ إليك يا رسول الله..

بِعَدد اللحظات التي بَيننا وبين مَوتك!

نحتاجُ إليكَ، بِعَدد المَفازات التي بَيننا وبينَ زمانِك!

تَسكُننا الذِّكرى، ونَعلمُ أنَّ بَيننا وبَينك مَسافةٌ مُمتَدَة!

بَيننا وبَينك، وقتُ غِياب..

بَيننا وبينك، نبضٌ يَنقُصه الكَثير من الاتِّباع!

نُحصي الأيامَ الفارغة مِنك، مِن هَديك، وتَضجُّ الأعمارُ بالحَنين إليكَ!

ماذا بين يدي النَبي ﷺ اليوم، غيرَ دُموعنا!

يا الله..

كيفَ يُسرجُ إبليسُ فينا خَيله وصَوته!

ويا الله، كيفَ يزيحُ سُطور النُّور من مَصاحفنا، فَتغدو التِّلاوة هذًا هذًا!

ها هو إبليسُ وأحزَابه، يَعدُّون خيلَ النَّوايا، للجِراح العَرايا.

يكتُبون مُستقبلنا، بخَطٍّ مُشَوَّش، ينتَعلون تَفرُّقنا، ونُصبح في أعينهم، توابيتَ مَكشوفة!

ها هُم، يكتُبون النَّعي لِنَبض الأمَّة!

اليوم، لون السُّكوت مُعتِم، وبعضُ الصمت لله، خُذلان.

هُم يريدون لكَ، أن تحيا بتوقيتِ الصمت، بتوقيت العَدَم!

لذا، افْهَم المعنى في [هُزِّي إليكِ بِجذعِ] تتَساقط مَعاوِلهم!

أُخْلِفوا النَّبي ﷺ، بحمل الرِّسالة.

ولا تَلبسوا ثوبَ ﴿فخَلفَ مِن بَعدِهم خَلفٌ أضاعوا الصَّلوَاتَ واتَّبَعوا الشَّهَوَات﴾ [سورة مريم: 59].

واذْبَحوا الهَوى، بِسكِّين الاقتداء!

يا ربِّ، قَوِّ هَشَاشتنا.

يا ربِّ، قَوِّم انحناءتَنا.

يا ربِّ، تاهَ الدَّليل وتُهنا.

يا ربِّ، اقبِضنا على ما تَراه خيرًا لنا!

قيلَ للقَعقاع الأوْسِي: قُل لنا شَيئًا عَن الجنة، يُشَوِّقنا إليها، قال: "فيها رَسول الله ﷺ".

اللهمَّ الصُّحبة الصُّحبة.



اللهُمَّ إنَّ المُرافقة، في المُوافَقة.

ها نحن نرحل في امتدادك فلا نبلُغ.

نحن اليوم نكتُبك أكثر ما نكتبنا، نحاول أن نكونك أكثر ما نكوننا!

نحنُ إلى سرِّ سِرِّك نحاول الاقتراب، وبين نحن وأنت، مسافة الحبِّ الإلهيِّ ﴿فاتَّبِعونِي يُحْبِبْكُم اللَّهُ﴾ [سورة آل عمران: 31].

ومن دونك نمضي من دوننا.

يرانا في سُجوده، وعلى مَنبره ويطوى له الزَّمن، فيَسمع صهيل الخُيول في أنَدلس الغَيب!

كان يَمضي، وفي كلِّ خطوة، نسلٌ للإسلام يولَد، يزيدُ ولا ينقُص، والمرتدُّون لا ذاكرة تحصي أرقامهم!

أمانيكَ لله، لَيتنا نبلُغ بعض مُناك.

ومِثلك لا يَنتَظر، مثلك مَن ينتظره الغَيب، وقد كان كلُّ الوعـد في قلبك يقينًا!

في غيابِك نحصي الشوق، دمعةً دمعة حتى نراك!

اللَّـهُمَّ تولَّ المَحرومين من رؤياه إذا (مسَّهم الشَّوق وغابَ الوصال).

يا مولاي اجعَلنا في غربة مَن بقي، وارحم غربتنا عن نبيك

يا رسول الله، قلبي الذي اكتظَّ بالشوق ينتظرُ وجهك!

لو تشاءَ، لك صلاتي، بَعضها أو نِصفها ولَيتها كلها.

وليتني دُعـاء طابَ لك، وطابَ بك، وطبت به!

لي مِن حياتي ما اتَّبعتك، وأنا واتِّباعي لك كلُّك.

حَبيبي يا رَسُولَ اللَّـه، وهَبكَ الله أضعافَ ما وهَبْتَنا مع كـلِّ آمِينـا!

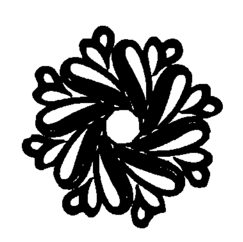
أنتَ انتظارُ اللاجئين، والنازحين، والمُنكسرين، والخِيام التي تقاوم الخَراب، ونبتة تشقُّ طَريقها في حقلٍ أنهَكه الجفاف، ونهارٌ نجا من الحَرب، ورعشة البَرد في جَسد طفل سمُّوه مُحمَّدًا أو أحمَد أو مُصطَفى!

أنتَ انتظارُ قِباب الأندلس مَسروقة في الكنائس، ننتظركُ في حَرائق الشَّام، وأحزان العِراق، ووجع اليَمن.

ننتظركَ في قُيود الأقصى، ننتظركَ في فَوضى الرُّؤى، وتبَعثُر القُبور من حولنا.

ننتظركَ ميلادًا لنا! ننتظركَ..

لأننا نعلم أنَّ البدايات تضيء النِّهايات، وأنَّ مَن يجتمع بهديك وسُنَتك هُنا، يجتمعُ بك على رَحيق الكَوثَـــر!




40
إنا مشتاقون

السَّلام عليكَ يا رسول الله..

بيا النِّداء التي لا رِثاء فيها، فقد أدَّيت الأمانة، وبَقي علينا حُسن الوِراثة!

السَّلام عليكَ يا رسول الله..

ومِثلك لا يُهال عليه تُراب النِّسيان.

فقد كَتب الصَّحْب كلَّ هَمسة، وكلَّ حَركة، وكلَّ إيماءة عَين!

كانت سِيرتك تَحمينا مِن المغيب، لكنَّا نسينا يا رسولَ الله، أنَّ قَدر هذا الشَّرق هو الذُّبول إن لَم تَكُن أنتَ الدَّليل!

السَّلام عليكَ يا رسول الله..

يا مَن جَعلت مِن المَسجد همزَة وَصل لكلِّ التَّائهين المُنقطعين عن الله..

فآوَيت فيه أهلَ الصُّفَّة، ورَبَّيت فيه شباب {العَادياتِ ضبْحًا}!

شَباب..

لا تَعرِفهم الأكفانُ، بل تَعرفهم خَرائط المدائن، يَنبتون فيها فَتحًا لا يَغيب!

يَحِنُّ الجِذع إلى يَدٍ، جعلته غُصنًا خَالِدًا في ربيعِ الجنَّة.

وقد كانَ عُمره على أبعَد مَدى، أعوامًا قَصيرة!

وكذا كانَ الشَّباب في كَفِّك، لا حُزن فيهم ولا هَزيمة.

كانوا شَجَرًا تَصنعه أنتَ، كيْ تُقاتِل بِه شجر الغَرقد الفَاسِد، وكان الشَّباب مَعك لا يَهرَمون!

أكانَت تِلك بَركَتك التي تَمسُّ القَدر، فَتنتهي بَعدها مواسِم القَحط!

أم كانَت قانونًا، تُعلِّمنا به مَعنى (نُصِرتُ بالشَّباب)، حيثُ لا جَدْب آناء المَواسِم كلها، إذْ كانَ الشَّباب على خُطى الأنبياء!

السَّلام عليكَ..

والمَكان كلُّه يَضجُّ بِذكرياتِ الحُجُرات.

يومَ كان صَوتُ الحِكمة في الحُجُرات، مِثل صَوت المَطر، صَوت، كانَ يَغسِل الدُّروب المُمتدَّة إلى عَوالِم الفَتح الإسلاميِّ! كانَت الحُجرات، مَستورةً في بَهاءِ الرِّعاية الإلهيَّة.

حيثُ المَرأة التي تُوقِد لنا تَنُّور التَّغيير، لا تَمسُّها أعينُ العَابِرين!

كان للمُؤمنين، أُمَّهات يَلِدن للأُمَّة مَعاني خَصبة.

وكان النُّور يَسعى مِن بَياض السِّتر، يَكشِف لنا كيفَ تنهضُ الشُّعوب من البُيوت العامِرة!

تَحمل لنا عائِشة عليها السلام دِلاء الحَديث المُحَمَّديِّ، تَسكبه، مِثل ماءٍ لا يَغيض.

وتُعلِّمنا أنَّ مُحَمَّدًا ﷺ كانت عَينه دومًا على السَّماء!

وظلَّت عائِشة في عَينه نَهرًا سَتحتاج إليه الأمَّة ذاتَ يومٍ، فظلَّ يَسقيها مِن بَحر عِلمه، حتَّى ارتَوينا بها جَميعًا!

هكذا كانَت المَرأة في عينِ النُّبوة، فسَلامٌ عليكَ يا رَسول الله!

تَعبُر حَفصة عليها السلام مِن غَضبها إلى صَدر الحَبيب.

تَحطُّ على بابِ قَلبه، وتَفيض بِكلِّ عَتَبها.

ويَسمع عُمر رضي الله عنه الصَّوت عاليًا، ثمَّ يَرى الحَبيب ﷺكيف يُطفئ جمْر الجِراح!

ويتعلَّم عُمَر، أنَّ الرُّعود في البُيوت تَقتل، للأُمَّة كل الوُعود!

نحنُ نَعبُر إلى مَدائن الجنَّة، وإلى زَمن الفُتوحات، إذا كُنَّا مُدثَّرين بِدروع بُيوتنا.

رُبَّما لأجلِ ذلك، جاءه أول نِداء في بيتِ خَديجة {يا أيُّها المُدثِّر}.

إذ البيوت التي لمْ تَتدثر بالدِّفء، لا تَملك نَاصية الأحلام!

سَلامٌ عَليك يا رَسول الله، يا مَن لا يَكفيك الحَنين مِنَّا، ولا بُكاء المعتمرين!

يَرحل المعتمرون إلى صَحراءَ تَحتضِنُ النُّور، تحتشدُ الأشواقُ على مشارِف طَيْبة.

ويَنهمِرون في الحَنين للرَّسول ﷺ، تشتَدُّ الخطواتُ نحو الرَّوضة، نَتعثَّر في خَطايا ضَعفِنا..

يُلقي المعتمرون رِحالهم في الرَّوضة، تَصطخب الأصواتُ في نَحيبِ الحُبِّ، وتعبق السَّماء بِدُعاءٍ شَجِيٍّ.

تَتنفس الروضة المُباركة، وتَفيض بَركة النَّبي حيًّا ومَيتًا!

هُنا مَراعي الأجر، هُنا الغِنى! هُنا النَّحيب حُروف تَكتُب لكَ نصَّ القبول.

فَيا لله!

هُنا، يَسعى نُور الحَبيب ﷺ أبيض يَغمرك، حتَّى يَكفيك حَزن الليالي التي أثقَلَت كاهِليك!

هُنا البَركة المَمدودة {رُطبًا جَنِيًّا} لكلِّ مَن قال: صلى الله وَبَارك عليك يا حَبيبي يا رسول!

فهل يَملك المعتمرون إلا الدُّموع!

فهذا زَمن استثنائي نحياه اليوم يا رسول الله..

حيثُ لا تُعَدُّ الجَنائز، ولا مَراسم لِدفنِ المَوتى!

هذا زمنٌ استثنائي، حيثُ تَخبئ الأمَّهات دُموعَهنَّ، لِموتٍ أبشع مِمَّا يستيقظن عليه!

هذا زمنٌ استثنائي، حَيث تَحتار أقلامنا، بأيِّ العَواصم نبدأ كِتابة نَعيِ المَساء!

يهتزُّ المسك في الرَّوضة بَهِيًّا، تَبتسِم المَلائكة للمعتمرين.

تَهمس المدينة للقادِمين: لا شِيء ينفي الخريف عنكم غيَر هَدْيِ مُحَمَّد، {فاتَّبِعوني}!

يَلتفت المعتمرون إلى المَعالم..

هُنا ملامح النُّبوة، هُنا كانَ مُحَمَّد ﷺ مُصَلِّيًا عابدًا، تتفَطَّر قَدماه، وكانَ قلبه لا يَنام!

هُنا، مَضت بِهِ جَارية سَوداء، فما تَلَكَّأَ في المَسير!

هُنا، أصغَى لِصَوتِ خَولة تَشكوه ظُلم العَشير!

هُنا، انتصر لِبلال، إذْ عيَّره أبو الدَّرداء رضي الله عنه بِأصلِه، وأعلن أنَّه ما زَال فِينا جَاهِليَّة مُعَتَّقة!

هُنا، صَوت الوَحي يُعاتِبه ويَقول: {تَبتَغِي مَرضَاتِ أزواجِك}.

فَتُدرك الأُمَّة أنَّ لِكلٍّ كتابًا لَن {يُغادِرُ صَغيرةً ولا كَبيرة إلا أحْصَاها}!

وهُنا، تَشهدُ لَك المَدينة، أنَّك كُنت دَومًا تَبتسم رغم الوَجع!

لمْ تَكن (صَخَّابًا ولا لَعَّانًا)، وكان لِسانك صَموتًا.

كنت كَلمة طَيِّبة، ودُعاء بالخَير، وأذنًا للمُتعَبين، تَسترهم ولا تَفضحهم!

لكأنَّنا فارِغون مِن سِيرتك نحن، مِثل خَيط انقَطع، فَلا يَنسِج شَيئًا!

فارِغون مِن هَديك، ومُتشَبِّثون بِمسواك ونَافلة!

فارِغون مِن سُنَّتك في أخلاقنا، في بُيوتنا، في زَواجنا، وفي سِلالنا حين نُغادر الحَياة!

مُشتاقون إليك.

لكنَّك أنتَ مُشتاق إلى أن نَغدو نُجومًا، مِثل صَحْبك، فَينتهي الزَّيغ فِينا!

أنت مُشتاق إلى رَعشةِ الخَوف مِن الذَّنب فينا.

أنتَ مُشتاق إلينا، نَمشي إليكَ بِلا وَحل الذُّنوب!

أَتَقبل مِنَّا وَعدًا:

بألَّا نُسرف في الاغتراب عَنك، وأن نقرأ السِّيرة، عسَانا نفهم لماذا احتَفى بِك الكَون في مِعراجه.

عَسانا نَرى، لِماذا عَلوت، حتَّى بَلَغت صَرير أقلامِ وَحي الإله!

عسانا نَفهم مَعنى الثَّناء لكَ: ﴿وإنَّك لَعَلى خُلُقٍ عَظيم﴾ [سورة القلم: 4].

يَبتَسِم لك النبي ﷺ يوم تعثرُ على هَدْيِه، لأنَّك حِينها، عثرْتَ على الطَّريق إلى حَوضه.

والطَّريق إلى الحَوض، مُمْتَدٌّ إلى النَّعيم!



41

الموعد الحوض

على الحوض، يَنطفئ حريقٌ طويل بالنَّظر إليه، وعن الأكتافِ تسقُط المتاعب بالنَّظر إليه.

وعلى نهرِ الكوثر استوى قَمَرًا مُنِيرًا. واقف ينتظرنا وحوضه (مَسِيرَةُ شَهْرٍ، ماؤه أَبْيَضُ مِنَ اللَّبَنِ، ورِيحُهُ أَطْيَبُ مِنَ المِسْكِ، وكِيزانُهُ كَنُجُومِ السَّماءِ، مَن شَرِبَ مِنْها فلا يَظْمَأُ أبَدًا).

تبتلُّ قدماه بماءِ الكوثر فإذا الماء ماء آخر، ترتشفُ الفراشات النُّور من كفَّيه، تُسافر العيون في ملامحه وتشمُّ الريحان في كلماته.

أهذا أنتَ يَـا رَسُولَ اللَّــه!

أهذا أنت يا حبيبَ اللَّــه!

يُكلِّمهم، ينسلُّ أحدهم ببطءٍ ويغتسل بنورِ النَّبِيِّ ﷺ ويبتسم، فقد بلغ تُخوم الحلم!

يهيِّئ أحدهم ما تيسَّر من حنينٍ قديم ويبكي على قدميه.

كان السَّفر شاقًّا يا رسولَ الله، وكنَّا نعدُّ الخطوة على الخطوة ونفرُّ إلى حقيقتك قبل أن نراك.

يحطُّون رحالهم عند كفَّيه وينتهي السَّفر، تمسه يد الرسول، فكأنه يهمس له، هوِّن عليك قد بلَغت.

هوِّن عليك، هوِّن عليك. ها أنت وحدَك ترتوي!

يبكي بين يديه، كنتُ أخشى أن أتوهَ قبل أن أصِل.

يفسح لأحدهم، يئنُّ صوته ويقول: "كنتُ أفتِّش عنك".

يُدنيه الحَبيب وينتهي الوجع.

يتوضَّأ بنورِ النُّبوة ويرتدي القلبُ بُردة الحُــب.

يراه قلب يرتجف، يا رسول الله، ضَيَّقوا دروب الأمَّة ومَلؤوها بالشَّهوة الداكنة.

بعدَك كانت العَتمة كثيفة يا رسول الله. "إِنَّكُمْ سَتَلْقَوْنَ بَعْدِي أَثَرَةً، فَاصْبِرُوا حتَّى تَلْقَوْنِي ومَوْعِدُكُمُ الحَوْضُ".

تعلو يدُ النَّبِيِّ ﷺ روحًا راجفة، وتهطل مِن راحتيه سواقي السكينة وارِفة!

ومن آخر الحشد صوت بعيد، تأخَّرْتُ يومًا، ولكن هربتُ مِن وحشة الطِّين، ثمَّ علوتُ وخبَّأتُ كل الصالحات لأجلِ اللقاء، ارتشفتُ هديك رشفةً رشفة كما تشتهي، وجئتكَ بالحُب كي أرتوي.

املأ كؤوسي عساني إلى الصحبة أرتقي!

وفي الصحيح: "إنِّي فَرَطُكُمْ علَى الحَوْضِ، مَن مَرَّ عَلَيَّ شَرِبَ، ومَن شَرِبَ لَمْ يَظْمَأْ أبَدًا". مكتبة سُر مَن قرأ

مالت الروح منه إليه ومَــدَّ إليه الشَّوق مَدًّا.

يعرف أحدهم كأنَّه يكاد يقول: كانَ ورائي، ائتَمَّ بي، وما اتَّخذ دليلًا سوى خطواتي!

يُكال الحُب للمُتَّبعين {فاتّبعوني يُحبِبْكُمُ اللَّــهُ}، الحمد لله، آمنًّا بالوحي فأرانا الله التأويل..

تحول الملائكة بين مَن رضع مِن جمر الفتنة، حتى اتَّقد بها، بين من ألقى الستر وما خَصفت كفَّاه على العورات، بين مَن اشتَعلوا في لهيبِ الشهوات، "لَيَرِدُ عَلَيَّ أقْوامٌ أعْرِفُهُمْ ويَعْرِفُونِي، ثُمَّ يُحالُ بَيْنِي وبيْنَهُمْ، قالَ: إنَّهُمْ مِنِّي، فيُقالُ: إنَّكَ لا تَدْرِي ما بَدَّلُوا بَعْدَكَ، فأقُولُ: سُحْقًا سُحْقًا لِمَن بَدَّلَ بَعْدِي".

يَراهم على مُنحَدرٍ عالٍ، تنفلتُ الفتنة مثل غواية لذيذة، تتَساقط في قلوبِ القابعين في أسفَل المنحَدر، وقد كان قال لهم: "ألَا وإنِّي آخِذٌ بحُجَزِكم أن تهافَتوا في النَّارِ كتَهافُتِ الفَراشِ أو الذُّبابِ".

وعلى الكوثَر، شَابٌ يناجي الحَبيب وفي يده ارتعاشة الظمأ:

"يَــا رَسُولَ اللَّــه، كنَّا نهرول في الاتباع وكانت العَتمة داكنة، وأصوات الشَّهوة صاخبة".

يَسقيهم، يجري الكوثر في عروقهم ويَمنحهم سكينته على مَهل!

يبلُغ أحدهم مرسَى الطمأنينة ويقول: "الْحَمْدُ لِــلَّــهِ ما ضلَّت السفينة"!

وفي الصفوف، شَبابٌ تَبع الهُدى حتى آخِر الموت.

شاب واصل الطَّرْقَ على بابِ ربه، حتى انفتح.

الملائكة تحول بين من غيروا وبدلوا وبين النبي، فالحشر، يكْشِف أسرارك..

والقيامة، تتلو أخبارَك، والجزاءُ، يَهْتكُ أستَارك.

أنَّه لا زِحام في الجزاء، فَكُلٌّ سيأتيه فَردًا!

فيا لله، كمْ أحنى الذَّنب للعباد ظَهرًا وكم أخزى وجهًا!

نحتاجُ إلى أسمائنا مِلء فَمك في طلب الشفاعة كيْ تُقفل عنَّا أبواب الجَحيم!

يا فَرطنا على الحَوض..

ويا مُنتهى الشَّوق..

ننتظرُك نحن يا رَسُولَ اللَّــه، ننتظرُ دمعةَ دُعائك لنا في السُّجود، ونحتاجُ إلى أنْ نكون نحن سُؤلك وسُؤالك إذا سَجدْتَ على عتَبات العَرش في المقام المَحمود!

نحتاجُ إلى أسمائنا مِلء فَمك في طلب الشفاعة.

في الصحيح (أنَّ رسولَ اللَّهِ ﷺ خرجَ إلى المقبَرةِ، فقالَ: "السَّلامُ عليكُم دارَ قومٍ مُؤمنينَ، وإنَّا إن شاءَ اللَّهُ بِكُم لاحقونَ، وَدِدْتُ أنِّي قد رَأيتُ إخوانَنا". قالوا: "يا رسولَ اللَّهِ، ألَسنا إخوانَكَ؟"، قالَ: "بل أنتُمْ أصحابي، وإخواني الَّذينَ لم يَأتوا بعدُ وأَنا فرَطُهُم على الحَوضِ". قالوا: "يا رَسولَ اللَّهِ، كيفَ تعرِفُ مَن يأتي بعدَكَ مِن أمَّتِكَ؟"، قالَ: "أرأَيتَ لو كانَ لرجلٍ خَيلٌ غرٌّ محجَّلةٌ في خيلٍ بُهْمٍ دُهْمٍ ألا يعرفُ خيلَهُ؟"، قالوا: "بلَى". قالَ: "فإنَّهم يأتونَ يومَ القيامةِ غرًّا مُحجَّلينَ منَ الوضوءِ وأَنا فَرَطُهُم على الحوضِ").

ننتظرُ يدكَ فيها أباريق الكَوثر، تغسِل عنَّا دمُوع المَحشر!

نتعثَّر بخطايانا، تتساقطُ الصُّحف على ظُهورنا أوزارًا، نمشي الهُوَينا، نكادُ نتلاشى!

فيا وجَع الخُطى من دون شَفاعتك يوم القيامة.

ويا انفراط الرُّوح في هَول الحشر من دون ظِلالك.

ويا شَهقة الصَّحائف إذ تنشر وأنتَ ليس لها شَفيعًا.

ويا خِفَّة الموازين من دون هَدْيِك واتِّباعك!

(رُئِيَ أحدُ مُلوك خَراسان في النوم بعد مَوته، فقيل له: "ماذا فعَل الله بك؟". قال: "غَفر لي"، قيل له: "بماذا؟"، قال: "صَعدتُ ذروة جَبلٍ يومًا، فأشرفتُ على جُنودي، فأعجبتني كَثرتهم، فتمنيتُ أنِّي حضَرتُ رسول الله ﷺ في مَعاركه، فأعَنْته، ونَصرته بجيشي، فشَكر الله لي ذلك، وغَفر لي").

اللهم اجعل نياتنا كلها نصرة للحبيب.

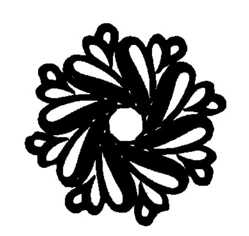
أنتَ مفتاح العبور، وكَفِّي إنْ لم تَمدَّ لها يدًا، {فأُمُّها هاوية}!

تضجُّ الأنبياء: نَفْسي نَفْسي!

ونحنُ نَفسك يَـا حبَيب الله إذ تقول: أُمَّتي أُمَّتي!

والأُمَم تَبقى من دُونك على رُكَبِها جَاثية.

لا مُصابَ أعظَم مِمَّن وَرد حوضَك، وصُرِف عنه مَحرومًا!




وقال الحبيب...

1 - عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: "كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى"، قالوا: "يا رسول الله، ومن يأبى؟"، قال: "من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى".

2 - عن جابر بن عبد الله -رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله ﷺ: "من استطاع منكم أن ينفع أخاه فليفعل".

3 - عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: "من كانت عنده مظلمة لأخيه فليتحلله منها، فإنه ليس ثم دينار ولا درهم من قبل أن يؤخذ لأخيه من حسناته، فإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات أخيه، فطُرحت عليه".

4 - عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: "لا تحاسدوا، ولا تناجشوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، ولا يبع بعضكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله إخوانًا، المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يحقره، التقوى ها هنا (ويشير إلى صدره ثلاث مرات)، بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم، حرام دمه، وماله، وعرضه".

5 - عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: "إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث".

6 - عن جابر بن عبد الله -رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله ﷺ: "اتقوا الظلم، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح، فإن الشح أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم".

7 - عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أوَلا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم".

8 - عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: "اجتنبوا السبع الموبقات"، قالوا: "يا رسول الله، وما هن؟"، قال: "الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات".

9 - عن ابن عمر -رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله ﷺ: "على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره، إلا أن يؤمر بمعصية، فإن أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة".

10 - عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "كان الرجل يداين الناس فكان يقول لفتاه: إذا أتيت معسرًا فتجاوز عنه لعل الله أن يتجاوز عنا"، قال: "فلقي الله فتجاوز عنه".

11 - عن عياض بن حمار ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "إن الله أوحى إلي أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد، ولا يبغي أحد على أحد".

12 - عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذِ جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت".

13 - عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبدًا بعفو إلا عزًّا، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله".

14 - عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقًا خلفًا، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكًا تلفًا".

15 - عن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "من سره أن يبسط له في رزقه، وينسأ له في أثره، فليصل رحمه".



16 - عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئًا".

17 - عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "من نفَّس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفَّس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسَّر على معسر يسَّر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلمًا ستره الله في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه، ومن سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سهَّل الله له به طريقًا إلى الجنة، وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده، ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه".

18 - عن ابن عباس رضي الله عنه قال: كنت خلف رسول الله يومًا، فقال: "يا غلام إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رُفعت الأقلام، وجفت الصحف".

19 - عن الزبير بن العوام رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "لأن يحتزم أحدكم حزمة من حطب، فيحملها على ظهره فيبيعها، خير له من أن يسأل رجلًا يعطيه أو يمنعه".

20 - عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: "كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته، فالإمام راعٍ وهو مسؤول عن رعيته، والرجل في أهله راعٍ وهو مسؤول عن رعيته، والمرأة في بيت زوجها راعية وهي مسؤولة عن رعيتها، والخادم في مال سيده راعٍ وهو مسؤول عن رعيته".

21 - عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: سمعت النبي ﷺ يخطب يقول: "لا يخلون رجل بامرأة، إلا ومعها ذو محرم، ولا تسافر المرأة، إلا مع ذي محرم".

22 - عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين فيها، يزل بها في النار أبعد مما بين المشرق والمغرب".

23 - عن صهيب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "عجبًا لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر، فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر، فكان خيرًا له".

24 - عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "انظروا إلى من أسفل منكم، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم، فهو أجدر ألَّا تزدروا نعمة الله".

25 - عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صدِّيقًا، وإياكم والكذب، فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابًا".

صلى عليك اللـه يا خير الورى ... تعـداد حبـات الرمـال وأكثـرا
صلى عليك الله ما غيث همى ... فوق السهول وبالجبال وبالقرى







ليس سَردًا لأحداث السيرة وتفاصيلها، لكنه محاولة الكتابة عن نَبيٍّ كان في الحياة بَشَرًا، وما كان فيها ملكًا.. لكن ترابها لم يُجاوز قدميه!

وفي صحبة الحبيب ﷺ سترى نبيك معنى الجنة، والري الذي لا تظمأ الرُّوح بعده ولا تَضحى.

سترى الأمين على آمال البشرية كلها!

وستقرأ سيرته التي تحمينا مِن المغيب، وتدرك أن قَدر هذا الشرق، هو الذبول إن لم يكن هو الدليل!

يا رسول الله نحن إلى سرٍّ بِسرك؛ نحاول الاقتراب.

وبين نحن وأنت، مسافة الحب الإلهي {فاتَّبعوني يُحببكم اللَّه}.

ومن عثر على هَدْيه.. فقد عثر على الطَّريق إلى حَوضه.. والطَّريق إلى الحَوض مُمتد إلى النَّعيم!

وهنيئًا لمن وصل.

